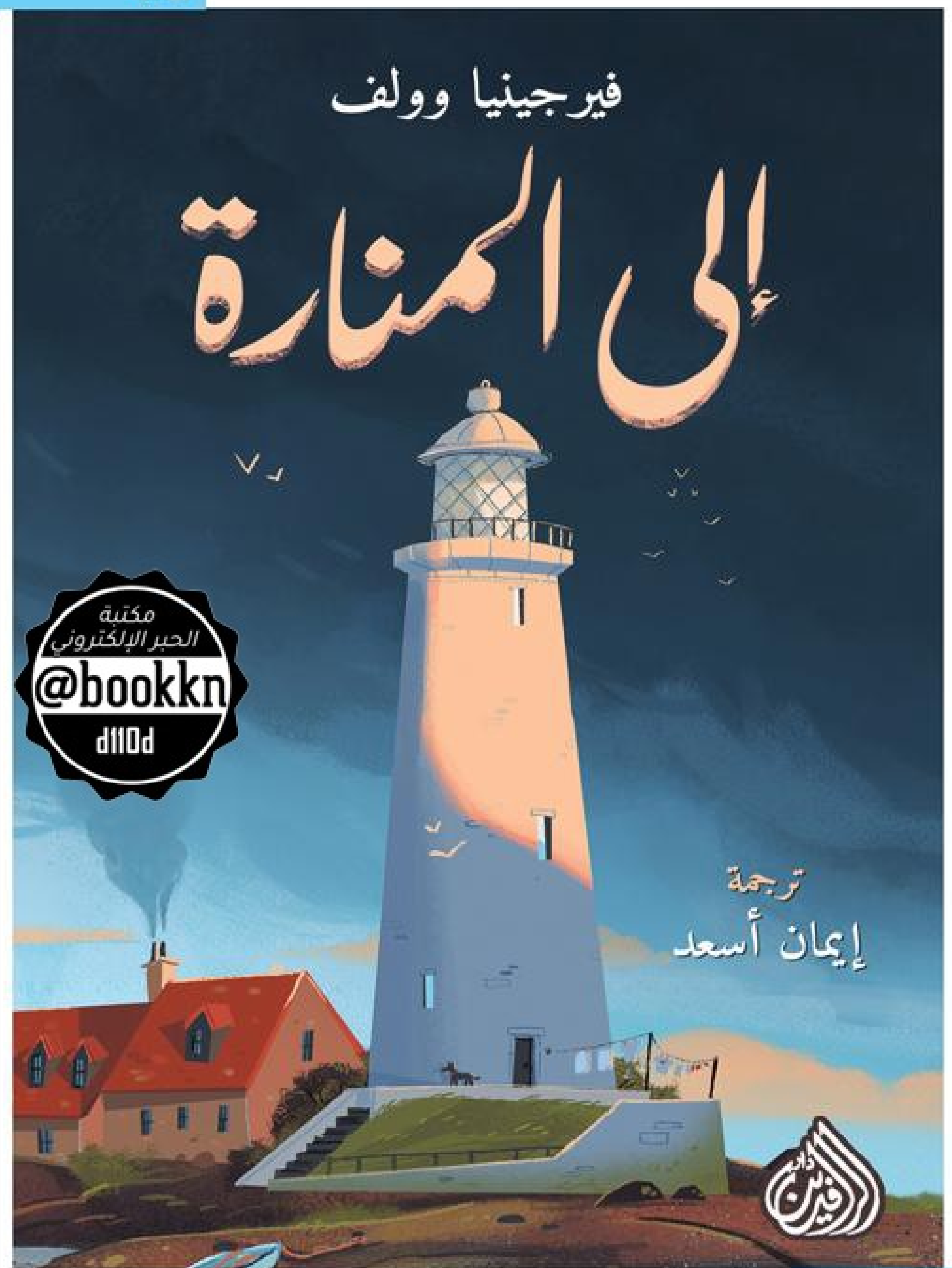
رواية



فيرجينيا وولف
إلى المنارة
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d
ترجمة
إيمان أسعد

إلى المنارة

إلى المنارة

فيرجينيا وولف

ترجمة: إيمان أسعد

To The Lighthouse

By Virginia Woolf

Translated by Eman Assad

الطبعة الأولى: أبريل - نيسان، 2020 (1000 نسخة)

بيروت - لبنان

تم تحويل هذا الكتاب بدعم من مبادرة **أضواء على حقوق النشر** التي أطلقها معرض أبوظبي الدولي للكتاب 2021 التابع لمركز أبوظبي للغة العربية دون تحمّلهما أية مسؤولية عن محتوى الكتاب.



لبنان ـ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+



info@daralrafidain.com | dar alrafidain

daralrafidain@yahoo.com | Dar.alrafidain



www.daralrafidain.com | دارالرافدين@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 623 - 92 - 4

رواية

فيرجينيا وولف

إلى المنـارة

ترجمة:

إيمان أسعد



www.daralrafidain.com

الفهرس

مقدمة المترجم

إن كنت تنوي قراءة الرواية متوقعاً حبكة واضحة تبدأ من الألف إلى الياء وفق منحنيات الحبكة المألوفة وتصاعد الأحداث المثير للاهتمام والحوارات الممتعة بين الشخصيات؛ فدعني أقل لك الآن، إنّ هذه الرواية ستخيب أملك، وأخشى أنك سترميها من بين يديك بعد عدة صفحات. أو، إن كنت قارئاً يحمل في قلبه فطرة البحَّار في خوض عاصفة عاتية حيث تتلاطم بك الأمواج وتجد نفسك وحيداً في عرض البحر وقد تلاشى من خلفك الساحل الذي انطلقت منه، والساحل الذي تسعى إليه لا يصلك منه سوى نبضة فنارٍ واهنة تنبعث من منارة نائية منتصبة على صخرةٍ جدباء؛ فهذه الرواية كُتبت لك.

لأعوامٍ وأعوام، وأنا أؤجل قراءة «إلى المنارة». وكل مرة أطلب فيها طلبية كتب جديدة من أمازون أجدني، وقد وضعتها في عربة الشراء؛ يجتاحني هاجسٌ غريب فألغيها وأعيدها إلى قائمة الأمنيات. ولو أني لم أفعل، لما ترجمتها هذا العام، لأني ببساطة لا أترجم عملاً سبق أن قرأته. إذ أجد في التجلي الأوليّ عنصراً مهماً من عناصر عملي في الترجمة، إذ سألتقط معه كل إحساس بالانشداه، الاستغراب، الضياع، الحيرة، إثارة الهاجس المكبوت، مسّ الوتر المجروح، الشيء قبل أن يغدو شيئاً، والذي لا نعيشه سوى في القراءة الأولى. وهكذا، بعدم قراءتي مسبقاً لها، وجدتني قد رميت نفسي دون أن أدري في عرض بحرٍ هائج، لا على صعيد ترجمتها وحسب، بل على صعيد حياتي الشخصية، إذ ختمتُ ترجمتي لهذه الرواية بتقديم استقالتي من وظيفتي التي قضيت فيها عشرة أعوام، علَّني بذلك، وقد تجاوز عمري الأربعين، أقبضُ على رؤياي.

لهذا كله، سأحرص في تقديمي للرواية، قدر استطاعتي، ألا أفسد عليك الرحلة بتفسيري لكل حدث وكل شخصية ولكل شاردة وواردة، بل سأمنحك مفاتيح أعانتني، وأراها ستعينك، على استدراك المغزى والذي وحدك وحسب ستراه. فهذه رواية، ومذ نشرها عام 1927، كُتِبَ حولها من

الرسائل العلمية والبحوث والمقالات التي تستلزم منك أعواماً كيما تقرأها كلها[1]، وستكتشف إن فعلت، أنَّ المعنى الحقيقي، المغزى منها، هو ما مسَّك أنت وهي بين يديك.

مُربَّعان يصل بينهما رواق

هكذا تصف فرجينيا وولف في مذكراتها البناء الروائي في روايتها «إلى المنارة» قبيل شروعها في كتابتها. فالرواية تنقسم إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول «النافذة»، الجزء الثالث «المنارة»، والجزء الثاني الواصل بينهما «ويمرُّ الزمن». الجزء الأول نتعرّف فيه على عائلة رامزي في يومٍ من أيام أيلول قبل وقوع الحرب العالمية الأولى بأعوام حيث تقضي إجازتها في بيت العائلة الصيفي في جزيرة سكاي على الأرخبيل الأسكتلندي. وإلى جانب عائلة رامزي المكونة من السيد رامزي والسيدة رامزي وأطفالهما الثمانية، فهناك ضيوف العائلة من المعارف والأصدقاء. وفي تسعة عشر فصلاً نعيش أحداث هذا اليوم الاعتيادي من يوميات عائلة اعتيادية وأناسٍ عاديين حيث ظاهراً لا شيء مثيراً للاهتمام يقع، لكن في الباطن، الوعي يهيج في عواصف الشك والتساؤلات الوجودية وإرضاء الآخرين وإرضاء الذات وخيبة الأمل من الآخرين وخيبة الأمل من الذات؛ تياره يجرف القارئ إلى مختلف الجهات، حدَّ أن في وسط الجملة قد ينجرف بك تيار الوعي من شخصية إلى الأخرى دون سابق إنذار، وعلامات الترقيم من فواصل وفواصل منقطة ونقاط هي الصخور التي لك أن تتعلق بها كيما تلتقط أنفاسك. ومن هذا الوجود المكثف للشخصيات في الجزء الأول، ندخل الجزء الثاني حيث البطل الأوحد هو الزمن ومروره في أمدٍ يبلغ عشرة أعوام على بيت العائلة الصيفي المهجور. وفي هذا الرواق الطويل في بعده الزماني والقصير في بعده الروائي، إذ يمتد وحسب على عشرة فصول قصيرة، نجد الحقيقة الجلية التي نعيها مذ لحظة ولادتنا والتي ما ننفك ننكرها حتى لحظة وفاتنا، وهي أن عمر أشيائنا أطول من عمرنا. أن فناء الواحد منا ليس سوى سطرٍ عابر، خبرٍ عرضي، في قصة الزمن. من ثم ندخل في الجزء الثالث، يوم العودة ومحاولة تحقيق ما لم يتحقق في ذاك اليوم في الماضي البعيد قبل عشرة أعوام، وكأنما في العودة إلى المكان يتسنى للمرء منَّا القبض على الزمن الضائع، يتسنى التصالح مع الماضي، مع الذاكرة، كيما نمضي قُدماً نحو المستقبل المجهول.

المرأة ليس بوسعها أن تكتب... ليس بوسعها أن ترسم

الرواية تبدأ وتنتهي مع امرأة، امرأتين مختلفتين. تبدأ مع «أجل» تنطقها السيدة رامزي، و«أجل» تنطقها ليلي بريسكو. السيدة رامزي تؤمن أشد الإيمان في مؤسسة الزواج، أن المرأة لا يتحقق وجودها إلا في دعم زوجها وتربية أطفالها وإدارة شؤون البيت. بينما ليلي بريسكو، الواقفة على عتبة العنوسة؛ رافضةٌ لمبدأ الزواج كيما تحافظ على استقلاليتها وقدرتها على تحقيق وجودها كرسامة. ورغم إيمان كلتا المرأتين في منظورها للحياة فكلتاهما تعانيان من الهواجس تنقض عليها، من عصوف الشك في صحة إيمانها. السيدة رامزي، متى ما تسنى لعقلها لحظات قليلة من التقاط الأنفاس من جريها على عجلة حياة البيت اليومية المرهقة، في لحظات صمتها وانفرادها، وعلى صوت النذير في قلب انكسار الموج على الصخر، تنبعث من أعماقها شعاعة شك، شعاعة رغبة في حياة أخرى تحقق فيها وجودها في خدمة الفقراء وإرساء إصلاح اجتماعي قبل أن ينسرب منها العمر. لكن سرعان ما تعود متطلبات الحياة اليومية وصيحات الأطفال وتغمر هذه الشعاعة فتنطفئ، وتعاود السيدة رامزي دورها زوجةً وأمّاً.

وإن كانت الهواجس تتحين فرصاً نادرة من الفراغ مع السيدة رامزي، فمع ليلي بريسكو هي القرين الذي يكاد لا ينفك عنها لحظة. فعدا شكوكها الداخلية في جدوى رسمها لوحتها، إن كانت حتى ستعلق على حائط كيما يراها أحد، فهناك الضغوط والتشكيك الخارجي الذي يمارسه الآخرون عليها. أولاً في كونها امرأة «رسامة» في المطلق، من ثم في رؤياها في الرسم التي تخالف بها ما هو سائدٌ ورائج. ورغم معاناة المرأتين من الشكوك، ووجود رابط الإعجاب بينهما الذي يصل مرتبة الحب؛ فلا امرأة منهما تجد في الأخرى ملاذاً تبث إليه هواجسها، لما يتطلّبه ذلك من خلع القناع الذي تُجبر كل امرأة على ارتدائه، لا أمام الرجال وحسب، بل على الأخص أمام النساء؛ ولما يعنيه من إزالة الحجر الثقيل على لسانها كيما تعبر عن عواطفها وأفكارها. ومع ذلك، مع ذلك، بين «أجل» و«أجل»، يدٌ تمتد، ويدٌ تقبضْ.

الحصى وشكسبير

وفي مقابل هاجس المرأة، هاجس تحقيق وجودها في حياتها، نجد في المقابل الهاجس الذكوري، هاجس تحقيق الخلود من بعد الموت. إذ لا يكفي السيد رامزي، الفيلسوف الذي حقق مكانة أكاديمية عالية مذ نشر كتابه الأول في العشرينات من عمره، أن يحقق هذه المكانة في حياته، بل ما يسعى إليه حقاً ويبتغيه هو تحقيق هذه المكانة بعد وفاته، أن يظل هناك من يقرأ كتبه، لا

لأعوام بعد وفاته، بل لقرون. لكن هل بيده؟ ففي كل جيل هناك شكسبير واحد وحسب يصل هذه المكانة، وكل من لم يصل مكانته من أقران جيله ينتهي به المآل إلى أن يندمج نورهم في نوره الوهَّاج. لكن حتى شكسبير، ما قيمة بقاء ذكره حيّاً لأربعة قرون أمام حصى تركلها جزمة، حصى يصل عمرها آلاف السنين؟ وإن كانت هذه الهواجس تتحين الفرص وتنقض بعصوف الشك على يقين السيد رامزي، فهو، على خلاف السيدة رامزي وليلي بريسكو، لا يجد حرجاً في اللجوء إلى الآخرين واستنطاق مديحهم كيما يهدئ من روعه، من اللجوء إلى استدرار العطف «النسوي». ففي تعاطف المرأة يجد الملاذ، منها يروي تعطشه إلى يقينٍ وإن زائف، إلى خلود عمله في وجه الفناء المحتوم.

الحرب العالمية الأولى

لا ذكر مباشراً يرد البتة عن الحرب العالمية الأولى، ومع ذلك فهي العنصر المحرك في الجزء الثاني «ويمرُّ الزمن». لا ذكر هناك لمعارك ودمار وهزائم وانتصارات، لن نشهد أرض معركة ولا جندياً يقاتل، بل سنرى الحرب تتجلى في تقلبات الطبيعة، في تداعي البيت الصيفي المهجور. سنراها في عصوف الريح الشاردة، خط الجند الأمامي في الجيوش العظيمة، سنراها في وحوش لوياثان تنبعث من أعماق البحر كيما تلهو وتتصارع عبثاً، سنراها في الأشجار المذعورة على وهج الضوء المتفجر ليلاً، سنراها في طية الشال المنسدلة على صوت القصف، سنراها في البحر الأرجواني الهائج ولفائف الدخان الحالكة. وسنراها كذلك في انبعاث المرأة العاملة، البسيطة «عقلاً»، الواهنة جسداً، حامية للبيت الذي هجره الرجال كيما يقاتلوا. «أبقين على نار البيت موقدة» أغنيةٌ وطنية بريطانية اشتهرت في الحرب العالمية الأولى، إذ وقعت على المرأة مسؤولية الحفاظ على البيت والأطفال إلى أن يعود الرجل، لكن فجأة، ومع استطالة أمد الحرب، باتت مسؤوليتها أيضاً الحفاظ على نار الوطن موقدة وذلك بخوضها العمل في المصانع والمزارع والمؤسسات نتيجة استنزاف الحرب للرجال وخسائر الأرواح التي بلغت الملايين. فإن كانت الدول، وحوش لوياثان المتصارعة، لاهية تخوض حربها العبثية في عرض البحر، فوحش لوياثان المنبثق من غور المرأة، بعد أن عاش مختبئاً في صدوع الجبل القائم على النظام السلطويّ الذكوريّ والطبقية الاجتماعية وقواعد السلوك الأنثوي، هو من أنقذ الوطن من الانهيار. من منع الريشة من أن تحط على كف الميزان.

الأطفال أبداً لا ينسون

الذاكرة ليست بالكينونة الثابتة. بل تتبدّل مع كل مرةٍ نعود إليها، إذ لا نتذكر شيئًا كما حدث في واقع الحياة. ما نحتفظ به هو انطباعنا عنه، المشاعر التي تركها فينا، ومشاعرنا تجاه أصحاب الذكرى. من هذه الذكريات ما نلجأ إليها كي نجد الملاذ في حياة سابقة ما كانت لنا فيها همومٌ تثقلنا، ولا قلقٌ من المستقبل نقف جامدين أمام أصوات نذيره. نحافظ عليها ثابتة كما أودعناها ذاكرتنا أول مرة، نجول فيها كما الطيف العابر خشية أن نعكر صفوها بأي إدراكٍ متأخر عن أنفسنا وقراراتنا التي اتخذناها في الحياة. ومن الذكريات ما يحفر ألماً فينا لا يندمل ولو طوى الزمن عليه ألف ورقة وورقة؛ ألمٌ يهتاج على أوهى لمسة، على نظرة، على نبرة، ولا ينفكّ يغذي الغضب والكراهية المعترمين في الصدر حدَّ لو وقع في متناول يدنا فأسٌ أو سكين، أو لسانٌ حاد، لأغمدناه في القلب. ومن الذكريات ما نعيد ترميمها كيما نتصالح مع الماضي، كي نعاود رؤية أولئك من هم في حياتنا، الباقين منهم والراحلين، في عينٍ أكثر إشفاقاً، علَّنا نجد في قلبنا العذر لهم، فنغفر لهم، وفي مغفرتنا لهم نغفر لأنفسنا وتتحرك خطانا في الحياة قُدماً.

لحظةٌ تحبس في قلبها البلّوري العاطفة العابرة

أغرب ما في الحياة، أنَّ ما يحمل التأثير الأعظم على تشكيل أفكارنا وعواطفنا، وبذا تقرير مسار حياتنا، هي اللحظات العابرة. لحظةٌ نحبس فيها عاطفة أو حدث، فتدوم طوال حياتنا وكأنما تقع «الآن». كينونة هي صنيعة الوعي الإنساني، يخلّد فيها شذرات من حياته ويكتنزها لديه، ما ينفك يعود إليها ويتغذى عليها وينسجها في ذاته إلى أن تغدو عصيّة على النزع. لذا، كلما سبرت الرواية لحظة من هذه اللحظات، كان التصريف المضارع هو التصريف الغالب. فكيما يعيش القارئ وعي الشخصية بهذه اللحظة، اختلاسه للعاطفة أو الحدث وحبسه في اللحظة، أو عودته إليها، ارتأيت لزاماً عليه أن يعيشها وكأنما تقع له الآن.

الطبيعة مرآة.. والمرآة تهشّمت

مع الجملة الأولى في الرواية، تتجلى لنا العلاقة بين الطبيعة والإنسان. ففي آنٍ، الطبيعة تملك السطوة على تقرير مسار يوم، وبذا تقرير مسار حياة عائلة. وفي آن، هي الحامي التي تمنح في قلب تهويدتها السند والسلوان، وفي آن، هي الرسول الذي يحمل النذير بدنو النهاية. وفي آن، هي المرآة التي ما أن يتأملها المرء متى ما لاذ إلى عزلته وصمته، يجد فيها الإجابة على ما يحمل من

تساؤلات. غير أنَّ كل هذه التجليات لدور الطبيعة في حياة الإنسان ما هي إلا صنيعة الإنسان نفسه. مرآة أُريد بها أن يُسقط عليها عواطفه التي لا يجد في يده القدرة على الإقرار بها، الهواجس التي ليس بيده مواجهتها، الإجابات التي أصلاً يحملها غير أنه يترك للطبيعة النطق بها. لكن مع وقوع الحرب العالمية الأولى، وما تمخض عنها من أهوال ودمار عبثي، فمرآة الطبيعة هشَّمتها نظرة المتأمل الفزع، إذ اتضح له، أنها هي الأخرى، عاجزة قدر عجزه، جاهلة قدر جهله.

والروح تتجلى في قصيدة

إن كان من عواقب الحرب العالمية الأولى وآثارها انكسار مرآة الطبيعة، فمن آثارها انبعاث القصيدة وعودة الشاعر بقوة إلى المشهد الأدبي ومكتبة القارئ. فويلات الحرب تجسدت في قصائد الشعراء الذين حاربوا فيها، ومن ضمنهم على سبيل المثال، ولربما أشهرهم، ولفريد أوين. الشاعر الذي نظم قصائده في ساحة المعركة ومن أشهرها، آخر قصيدة نظمها، «نشيدٌ لأجل الشباب الهالك»، والتي رثا فيها القتلى من رفاقه، وإذ به يقتل قبل أسبوع من نهاية الحرب. وهذه القوة التي امتلكتها قصيدة الحرب امتدت إلى كافة الشعراء وأحيت اهتمام الناس في الشعر من جديد. لكن في بيت آل رامزي، ومن قبل الحرب، يكون للشعر محلّه في يوميات العائلة. فالسيد رامزي لا يكتفي وحسب بقراءة القصيدة، إنما يجد فيها التجلي الروحيّ لذاته في كل أطوارها. ولأن القصائد التي ضمّنتها فرجينيا وولف في الرواية هي قصائد شهيرة ومعروفة أصلاً بشكل عام لدى القارئ الانجليزي، وبذا سيعي الإسقاط والسياق متى ما ورد أي بيتٍ منها؛ وجدتُ لزاماً عليّ أن أرفق مع ترجمتي للرواية ملحقاً شعرياً يتضمن ترجمتي للقصائد كاملة، عوضاً عن الاكتفاء وحسب بترجمة الأبيات المذكورة في مواقعها في النص. وستجد عزيزي القارئ في استهلال كل قصيدة نبذة موجزة عنها تلقي الضوء على الجانب فيها ذي العلاقة بالرواية. وأوصي هنا بقراءة الملحق الشعري قبل قراءتك الرواية كي تمتلك المعرفة المسبقة التي ستساعدك على التقاطك المعنى لحظة قراءتك البيت.

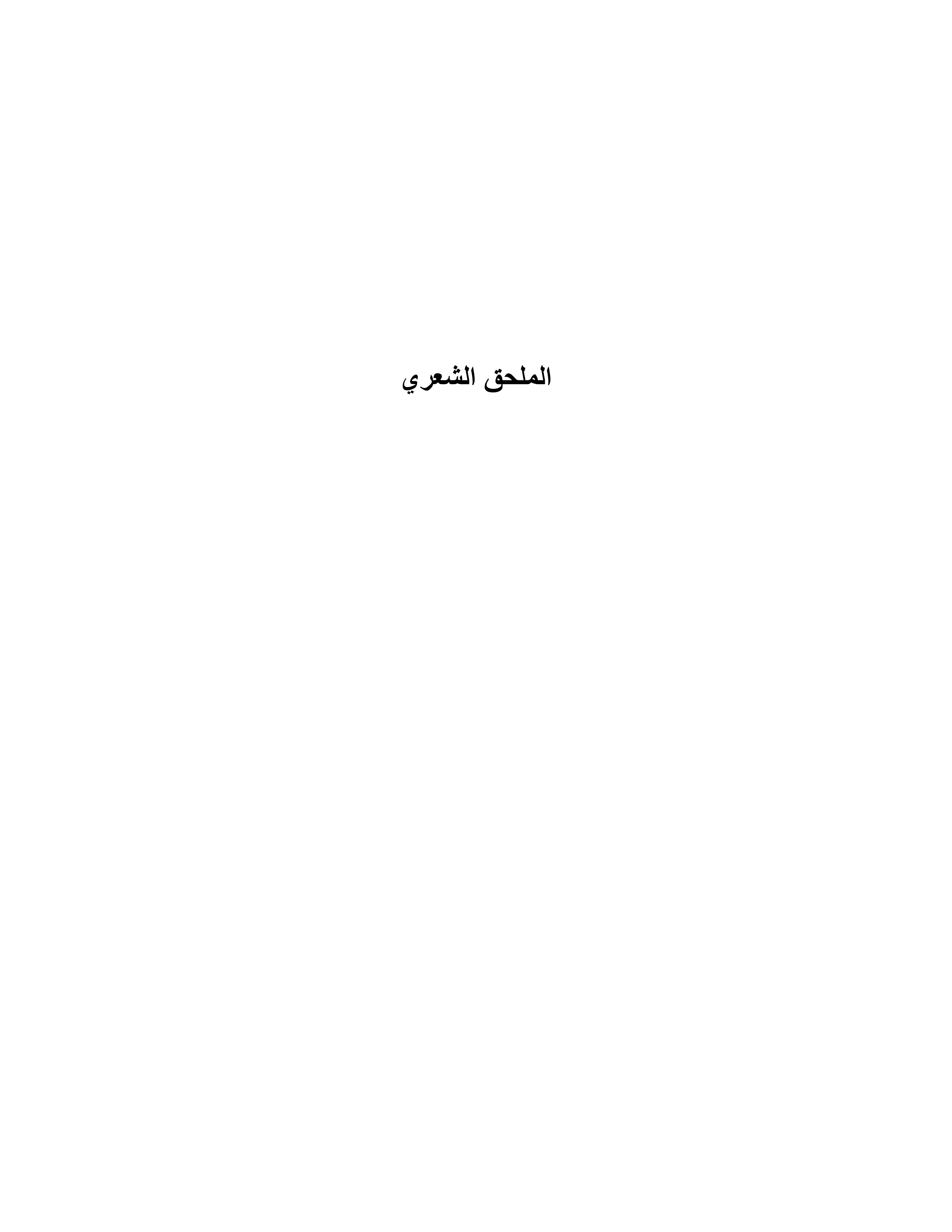
عزيزي القارئ،

ما أوردته لك في هذا التقديم ليس سوى نبضات ضوءٍ متقطع ترشدك في قراءتك للرواية، أما النبضة الطويلة الثابتة التي ستصل بك إلى البر فهي شعاعة الضوء المنبثقة منك أنت.

إيمان أسعد

السابع من كانون الثاني 2020

الكويت



الملحق الشعري

The Charge of the Light Brigade

هجمة فرقة الخيَّالة

ألفريد تنيسون (1809 - 1892)

نظم الشاعر البريطاني ألفريد تنيسون القصيدة تيمّناً بالهجمة العسكرية الفاشلة التي شنّها الجيش البريطاني بقيادة لورد كارديغان في معركة بلاقلافا في حرب القرم، في تاريخ الخامس والعشرين من تشرين الأول 1854. وكان من المفترض بفرقة الخيالة، بأوامر من لورد راغلان، منع الروس من الاستحواذ على البنادق المرمية في المواقع التي انسحبت منها القوات التركية مدحورة، وفرقة الخيالة هي المهيأة لتنفيذ مهمة من هذا النوع. إلا أنَّ تخبطاً في التواصل بين مواقع سلسلة القيادة أدى إلى إرسال فرقة الخيالة إلى موقع آخر حيث سرية المدفعية الروسية تقف بكامل جهوزيتها على الخط الأمامي مدججة بالمدافع الثقيلة. ووجدت فرقة الخيالة نفسها تشن هجوماً مستحيلاً تحت قصف المدافع، ورغم أن الفرقة، ببسالة جنودها، نجحت إلى حد ما في تشتيت خط الدفاع الروسي، إلا أنها سرعان ما أرغمت على الانسحاب، وانتهت الهجمة بخسائر عالية في الأرواح من الجانب البريطاني دون تحقيق أية مكاسب في المقابل.

هذه القصيدة ستخيم بظلالها بعد عقود على أداء الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918)، إذ كرّة أخرى، سيشنّ الجيش هجمات عديدة فاشلة ناتجة عن: جهوزية الجيش الألماني بأسلحة متقدمة لم يضع الجيش البريطاني لها حسباناً (أشدها ترويعاً الغاز السام)، التخبط في سلسلة القيادة، وعقيدة الجندي البريطاني أياً تكن رتبته العسكرية في تنفيذ الأوامر التي تصله دون أي مساءلة حتى وإن أدرك الخطأ الجسيم فيها. ما أدى في النهاية إلى وقوع خسائر كارثية في الأرواح مقابل مكاسب ضئيلة.

نصفُ فرسخ، نصفُ فرسخ

نصفُ فرسخ قُدُماً

والكلُّ انطلق يعدو

الستّمائة

إلى وادي الموت.

«قُدماً، قُدماً يا فرقة الخيَّالة»

«انقضي على البنادق»،

صاح آمراً إيّاهم

وعدا الستمائة

نحو وادي الموت.

«قُدماً، قُدماً يا فرقة الخيَّالة»،

أما من رجلٍ ذُعِر؟

كلا، وما من جُنديٍّ إلا وعرف

أنَّ أحدهم قد تخبّط، ارتكب خطأً جسيما.

فالجنديُّ لا يُجادِل

الجنديُّ لا يُسائِل

الجنديُّ ينفّذ ويموت

ونحو وادي الموت

عدا الستمائة.

مدفعٌ على يمينهم

مدفعٌ على يسارهم

مدفعٌ في وجوههم

ترشقُ وترعدْ

تعصفُ فيهم قذائف ورصاص

وببسالة وإقدام عدوا

إلى فكيِّ الموت

إلى فاه الجحيم

عدا الستمائة.

رفعوا مناصِلَهم

تلمعُ وتبرقُ في وجه المدفعيّين

منقضّين على جيشٍ بأسره

والعالم وقف يرقبهم، حيرانَ مندهشا.

مندفعين اقتحموا الدُّخان

بمناصلهم فرَّقوا الصفوف

القوقاز والروس منتكصون

تشتّتوا وانشطروا

وها هم الخيالة يعودون أدراجهم

لكن ليس كل الستمائة.

مدفعٌ على يمينهم

مدفعٌ على يسارهم

مدفعٌ خلف ظهورهم

ترشقُ وترعد

تعصفُ فيهم قذائف ورصاص.

الخيل والخيّال يهويان

وقد قاتلا ببسالة وإقدام

اقتحموا فكيِّ الموت

وها هم عائدون من فاه الجحيم

كلُّ ما تبقى منهم

كلُّ من تبقى من الستمائة.

وأيّان سيخبو مجدهم؟

آهٍ ثم آه، يا لها من هجمةٍ عاصفة

والعالم وقف يرقبهم، حيرانَ مندهشا.

المجدُ لهجمتهم الباسلة

المجدُ لفرقة الخيالة

المجدُ للنبلاء الستمائة.

«A Garden Song» Luriana Lurilee

أغنية الفردوس «لورْيانا لورِلي»

تشارلز إلتون (1839 - 1900)

تتميز هذه القصيدة عن سواها من القصائد المضمّنة في رواية «إلى المنارة» كونها الوحيدة المجهولة وقت نشر الرواية، فالقصيدة نفسها لن تنشر رسمياً إلا عام 1945. القصيدة، التي تعود إلى تشارلز إلتون، المحامي الشهير والشاعر المغمور؛ عرفت بها فرجينيا وولف كون إلتون قريباً لعائلتها بالمصاهرة. والقصيدة تناقلتها القلة ضمن دائرة العائلة والأصدقاء، إلا أنها كانت من القصائد المفضلة لدى فرجينيا وزوجها ليونارد وولف. وتساؤلات كثيرة تحوم حول السبب الذي دفع فرجينيا وولف إلى تضمين روايتها قصيدة يجهلها القارئ، قصيدة لشاعر غير معروف البتة، وفي فصل يُعد من أهم فصول الرواية. كذلك يرد السؤال: كيف تسنى للسيد رامزي والسيد كارمايكل أن عرفا بالقصيدة، والقصيدة أصلاً ليست منشورة؟ لعل لنا أن نعتبر القصيدة خط التماس بين العالم المتخيل في الرواية وواقع حياة فرجينيا وولف وطفولتها لدى أسرتها، إذ تُعد الرواية شبه سيرة ذاتية، وكان للشعر وإلقاء القصائد حيّز في يوميات العائلة. أو لنا أن نجد في تضمين الرواية قصيدة غير معروفة احتفاءً بالشعر، أن ليس على القصيدة أن تلقى احتفاء النقاد وقبولهم أولاً كيما تكتسب مصداقيتها وقيمتها كقصيدة تُقرَأ، قصيدة تُقْتَبس، قصيدة تترك في النفس أبلغ الأثر.

تعاليْ خارجاً ولنصعَدْ درب الفردوس

لورْيانا لورِلي

ها هي الخطمية الحمراء مزهرة

تضجُّ بطنين النحلة الصفراء.

وسنؤرجحك على غصن الأَرْز عالياً

لورْيانا لورِلي.

أتُراكِ تريْن، لورْيانا لورِلي

كيف كلُّ الحيوات التي عشناها

وكلُّ الحيوات التي سنعيش

ملأى بالأشجار والأوراق المتبدلة

لورْيانا لورِلي.

مذ متى أنا وأنتِ

لورْيانا لورِلي

ما طفنا الغابة حيث وُلِدَ جنسنا إلى الوجود

حيث ضحكنا وزقزقنا بين الزهور

لورْيانا لورِلي.

مذ متى أنا وأنتِ

لورْيانا لورِلي

ما ذهبنا خارجاً

كيما نرى الملك ممتطياً حصانه

يعدو مروجَ زهر الربيع

مكلّلاً بأوراق الغار وحزم الأَرْز

لورْيانا لورِلي.

تأرجحي، تأرجحي، تأرجحي على الغصن

لوزْيانا لورِلي

إلى أن تنامي في كومة شوكٍ وضيعة

أو أسفل شجرة موحشة في فناء كنيسة

من ثم حلقي عائدة وتأرجحي على الغصن

لوزْيانا لورِلي.

The Sirens’ Song

أغنية السَّيْرانة

ويليام براون (1588 - 1643)

السَّيْرانة في الميثولوجيا اليونانية هي مجموعة من الحوريّات لهن رؤوس نسوة وأجساد طيور تسحر الملاَّحين بغنائها فتقودهم نحو الهلاك. وفي هذه القصيدة نجد أن الحب، وقد تجسد في هيئة سَيْرانة، له أن يورد من يسمع نداءه موارد الهلاك، إذ سيغويه إلى أن يحيد عن سبيله في الحياة ويُثنيه عن تحقيق هدفه. وإن أضاع السامع بوصلته مقابل نيل بهجة مؤقتة، فلن يجد في تلبيته النداء سوى خسران كل شيء.

أَدِرْ الدفة، أَدِرْ دفَّة الصنوبر المجنَّحة

ملاحيَ المُرهَق!

ههنا خبيئة الحب ونفائسه

غنيمةٌ للعابرين -

عطرُها أزكى من أريج رماد العنقاء وعشها.

لا تخش على سفينتك

ولا تخش ملاماً من أحد إلا من شفاهنا

فقط أقبل على الساحل

حيث لا بهجة تموت قبل أن ينال الحب كل شيء.

فلا أمواج عالية هنا سوى صدورنا اللاهثة

ولا عاصفة عاتية تهب

بدِّل مسارك، وحل ضيفاً علينا لأمدٍ قصير:

فالنجوم ترنو إلى أعيننا.

والحب سيغني البوصلة كل ساعة

وفيما يرتحل حول الحلقة

فلن يفوتنا

أن نهمس لك الجهة في قُبْلة.

فأقبل إذن على الساحل

حيث لا بهجة تموت قبل أن ينال الحب كل شيء.

Sonnet 98

السونيتة الثامنة والتسعون

ويليام شكسبير (1564 - 1616)

تعد سونيتات شكسبير من الأعمال الخالدة في الأدب الانجليزي، ويبلغ عددها 154 سونيتة. وهذه السونيتة تقع ضمن المجموعة الأولى من السونيتات التي يتوجه فيها شكسبير إلى صديقٍ له تعلق به قلبه. فهو يراه شاباً وسيماً يستحق جمالُه الخلودَ الأبديّ والذي لن يناله إلا بالزواج وإنجاب الذرية. فإن لم يتزوج، فشكسبير سيخلده في أبيات شعره حيث سيعصى على الزمن نشب براثنه في صور جماله. فمن الثيمات المسيطرة على هذه المجموعة، ومن ضمنها هذه السونيتة، حتمية فناء الإنسان وذبوله مقابل الطبيعة الخالدة في تبدل فصولها وانبعاثها من جديد بعد كل شتاء. كذلك تجسد السونيتة حتمية الفقد ومعايشة الغياب حيث لا يبقى من المحبوب سوى طيف عابر يجد فيه الحبيب شيئاً من السلوان[2].

في الرَّبيع كان غيابي عنك،

يوم نيسان الأرقط المزهوّ، في كامل زينته وزركشته،

أوْدعَ روح الشباب في كل شيء،

وساتورن الخَصْبُ ضاحكاً يثب معه.

مع ذلك، لا عشش الطيور الملآى،

ولا زكيّ الرائحة في أريج الزهور وألوانها،

ألهمَتْ فيَّ حكاية صيفٍ أسردها،

ولا من أحضانها المزهوّة حيث تفتَّحتْ رحتُ أقطفها،

ولا انشدهتُ على مرأى الزنابق البيض،

ولا أطريتُ قُرْمزَ الزهرة القاني،

فما هي إلا آيات الجمال، صور البهجة المرسومة عليك،

يا أصل الجمال في كل شيء.

لكن الشتاء، في غيابك، لمَّا يزل،

ومثلما يواسيني طيفك هي واسَتْني.

The Castaway

الغريق

ويليام كوبر (1731 - 1800)

هي القصيدة الأخيرة التي نظمها وليام كوبر، قبل عامٍ من وفاته. والقصيدة رثائية، نظمها كوبر بعد قراءته كتاب «رحلة حول العالم» للأدميرال جورج آنسون، حيث يسرد واقعة حقيقية عن رجلٍ جرفه الموج عن متن السفينة والذعر الذي أصاب رفاقه بمشاهدتهم إياه يغرق دون أن يملك أحدهم مدّ يد العون له. وويليام كوبر، الذي عانى في حياته من اكتئاب شديد، روَّعته هذه الواقعة، فأسقط عليها معاناته النفسية مع الاكتئاب، وألهمته نظم هذه القصيدة في ذكرى وفاة صديقته المقربة السيدة أنْوِن. وكانت السيدة أنْوِن صديقته في أسعد فترات حياته، وبفقدها أصابه اكتئاب لم يفارقه حتى مماته.

في أحلك ليالي السماء المظلمة

أمواجُ الأطلسيّ العظيم تزأرُ عارمة

انجرفَ بائسٌ بؤسي أنا

من على متن سفينة

ومن الأصدقاء، من الأمل

من الكل حُرِم

ومن بيته العائم تهجَّر للأبد.

ما كانت ألبيون[3] لتفخر بقبطانٍ شجاع

فخرها بالقبطان الذي مضى معه

وما غادرت سفينةٌ ساحل ألبيون

محملة بأماني السلامة أكثر من الأماني المودعة في سفينته

وقد أحبَّ كليهما، وحبه كليهما ضاع عبثاً

إذ ما عاد يراه، وما عاد يراها بعد.

سباحٌ ماهر، ما انسحق في الأمواج المالحة

ولا استشعر فقدانه قواه

ولا هانت فيه شجاعته

بل نازع الموت حتى الرمق الأخير

مدفوعاً بتوقه اليائس للحياة.

صاح عالياً: وما تهاون أصدقاؤه في وقف مسار السفينة

لكن الريح الهائجة فرضت مشيئتها

وبذا، تحت حكم الريح القاسية

مضوا تاركين صديقهم منبوذاً خلفهم

واندفعوا أبعد وأبعد تسوقهم الريح العاتية.

ومع ذلك، كان بيدهم مدّ يد العون

بما تسمح به العاصفة الهوجاء

برميلاً، خمّاً، حبلاً طافياً

عدا أنَّ الوقت قد فات.

فهو (وهم يعلمون) مهما ساعدوه

لا سفينة سيركب

ولا ساحلاً أبداً سيزور.

ولا، رغم قسوة فعلهم

له أن يلومهم في نفسه على عجلتهم

موقناً أن في بحرٍ كهذا

وحدها العجلة سبيل نجاتهم.

لكن ما خفّف يقينه شيئاً

من مرارة الموت مهجوراً

بلا صديقٍ في القرب.

من ينجو ساعةً في المحيط، عائماً بقواه

كمن عاش دهراً.

ولآخر ذرة من قواه

قاوم مصيره المحتوم

ومع كل دقيقة تنسرب

ما انفك يصرخ متضرعاً العون

أو هاتفاً، «الوداع».

في النهاية، محاولاته إرجاء موته المحتوم استنفدت

رفاقه، من سمعوا نداءه في كل عصفة ريح

ما عادوا يسمعون صوته

فقواه خارت

ابتلع الموج الخانق

وغرق.

لا شاعر بكاه: لكن صفحة السرد الصادقة

حيث مدونٌ اسمه، مآثره، عمره

مبللة بدمعة آنسون:

والدمعة التي تذرفها عين الشاعر أو البطل

لهي كافية كيما تخلد الميت الذي ترثيه.

وحاشا أن أدَّعي، ولا حتى أحلم

بالتغنّي على مأساته

كيما أمنح الاكتئاب ثيمةً باقية:

غير أنَّ البؤس لمَّا يزل يبتهج

في تقفّي أثر أشباهه في مأساة غير مأساة صاحبه.

ولا صوتَ إلهياً هدَّأ هيجان العاصفة

ولا ضوءَ مبشّراً في الظلمات شعّ،

يومَ، وقد انتُزِعْنا من كل عون،

فَنِينا كلنا، كلٌّ وحده:

لكني الغريق في البحر الأشد اهتياجاً،

ابتلعتني دوامات أعمق من دوامته.

The Fisherman and his Wife

حكاية السمَّاك وزوجته (مختصر)

هي حكاية خيالية ضمن حكايات الأخوين غريم. وتروي قصة سمَّاكٍ يعيش مع زوجته في كوخ أشبه بزريبة على شاطئ البحر. وفي يوم من الأيام يصطاد السمَّاك سمكة مفلطحة، وتدَّعي السمكة أنها أميرٌ مسحور وترجوه إطلاق سراحها، وبكل لطف يطلقها السمَّاك ويعود إلى بيته خالي الوفاض. فما أن تسأله زوجته وتسمع بالقصة تزجره قائلة إنه كان عليه أن يطلب من السمكة المفلطحة تحقيق أمنية مقابل إطلاقه سراحها. وهكذا تصر عليه أن يعود إلى البحر ويسأل السمكة تحقيق أمنيتها بالعيش في بيتٍ جميل. ويعود السمَّاك تنفيذاً لرغبة زوجته، لكن شعوراً من عدم الارتياح يساوره بعثوره على البحر عكراً بعض الشيء وقد كان صافياً وقت التقاطه السمكة. وفي قافية مغنّاة يستدعي السمّاك السمكة المفلطحة، والسمكة تحضر وتلبي رغبة زوجته قائلة: «اذهب وستجد زوجتك جالسة في بيتها الجميل». وبالفعل ما أن يعود يجدها جالسة أمام مدخل البيت، فيقول لها ما أن يتجول في غرفه وحديقته الخلفية: «يكفينا ويرضينا». ورغم سعادة السمَّاك بالبيت، إلا أن الزوجة بعد عدة أيام ما عادت راضية بما حظيت به، فتصر عليه بالعودة إلى البحر والطلب من السمكة المفلطحة أن يمنحها قصراً، فيذهب مرغماً تحت إلحاحها ويستدعي السمكة وتلبي رغبته قائلة: «اذهب وستجد زوجتك جالسة في قصرها». فيعود ويجدها كما قالت السمكة، في قصرٍ فخم بخدمه وأثاثه الفاخر. فيقول لها: «يكفينا ويرضينا». لكنها بعد عدة أيام لم تعد راضية فتصر عليه أن يعود ويطلب من السمكة أن تنصّبه ملكاً، لكنه يرفض. فتقول له أن يطلب منها إذن أن تنصّبها هي ملكة. ومرغماً يذهب السمَّاك ويستحضر السمكة ويطلبها، والسمكة تعود وتلبي رغبة زوجته: «اذهب وستجد زوجتك ملكة». فيذهب ويجدها قد غدت ملكة يحيط بها الحرس والجند في قصر أفخم من القصر السابق. ومرة أخرى، بعد أيام تطلب من زوجها أن تنصبها السمكة إمبراطورة. والسمَّاك ينصاع لأمرها رغم إدراكه الخطأ الجسيم الذي يرتكبه، مع رؤيته البحر يهتاج أكثر وأكثر مع كل مرة يستحضر فيها السمكة ويطلبها. غير أنه يستحضر السمكة وتلبي رغبته: «اذهب وستجد

زوجتك إمبراطورة.» فيعود ويجدها إمبراطورة تجلس على عرشٍ مهيب، في يدها صولجانٌ من ذهب، وتحمل على رأسها تاجاً ضخماً مرصعاً بالجواهر حدَّ أعمى عينيه عن رؤيتها. فيقول لها: «يكفينا ويرضينا، لن نعود ونطلب من السمكة شيئاً.» لكن في الصباح، يستيقظ على طلب زوجته أن تشرق الشمس بأمرها، وتبعث به مع هذا الطلب إلى السمكة: «أن أكون مساوية للرب». ورغم الذعر الذي دبَّ في أوصاله على سماعه طلبها، إلا أنه يعود ويذهب إلى البحر ويستدعي السمكة والسمكة تلبي طلبه فيما البحر بأسره يهيج من الأعماق والعواصف العاتية تهب قائلة: «اذهب وستجد زوجتك جالسة في زريبتها مرة أخرى». وتنتهي الحكاية بـ «وما زالا يعيشان في زريبتهما حتى يومنا هذا».


الرواية

الجزء الأول

النـافذة

الفصل الأول

«أجل، بالطبع، إن كان الغدُ صافياً»، قالت السيدة رامزي. ثم أردفت، «لكن عليك أن تصحو مع القُبَّرة».

في مخيلة ابنها حملت تلك الكلمات بهجةً عارمة، كأنما تقرّر الأمر ولا عدول عنه، الرحلة ستنطلق حتماً في موعدها، والأعجوبة المتلهف عليها، وكأنما قضى أعواماً وأعواماً ينتظرها، ها قد باتت، على بُعدِ عتمة ليل وإبحار نهار، ملموسةً في يده. فهو ينتمي، حتى وإن كان في السادسة من عمره، إلى تلك العشيرة العظيمة العاجزة عن فصل مشاعرها تجاه هذا عن مشاعرها تجاه ذاك، تسلّم أمرها لما قد يحمله الغيب، بهجةً يكون أم أسى، فيغبش العين عما تراه اللحظة الراهنة، إذ أنّ في مخيلة أولئك الناس، منذ طفولتهم المبكرة، أيّ وكزةٍ طفيفة على عجلة إحساسهم تستحيل قوةً تُحجّر لحظة الزمن، تحبس في قلبها البلّوري العاطفة العابرة، فإما أن تشع بهجةً مشرقة أو تخيم بظلال كآبتها، جيمس رامزي، الجالس على الأرض يقص صوراً من الكتالوج المصور لمتاجر آرمي آند نيفي، على وقع حديث أمه، منحها بطيب خاطر صورة برَّاد، تغمره سعادةٌ سماوية. الفرحة تتدلى أهداباً من أشفارها المقصوصة. عجلة اليد، جزّازة العشب، صوت أشجار الحور، شحوب الأوراق قبيل المطر، نعيب الغِدْفان، قرقعة المكانس، حفيف الأثواب - كلها تجلت في مخيلته جدّ ملونة ومتمايزة بحيث سرعان ما باتت رموزاً لشفرته، لغته السرية، مع أنه بدا التجسيد الحيّ للجدية الصارمة، بجبينه العالي وعينيه الزرقاوين الضاريتين، عفته الطاهرة بيضاء لا يشوبها دنس، شبه عابس على مرأى الهشاشة الإنسانية، وبذا فإنّ أمه، تتأمله يرشد مقصه حول البراد بإتقان، تخيّلته في المعطف الأحمر بياقة الفرو البيضاء[4] جالساً على المنصة أو يقود مشروعاً مصيريّاً بالغ الأهمية في مواجهة أزمة قومية.

«عدا أنَّ»، قال والده، وقد توقف قبالة نافذة حجرة الاستقبال، «الغد لن يكون صافياً».

لو كان من فأسٍ في المتناول، مِسْعَر، أو أيّ سلاحٍ ماضٍ يشقّ ثقباً في صدر أبيه ويرديه قتيلاً، آنذاك وهناك، لقبض عليه جيمس. كذا هي المشاعر المتطرفة التي يثيرها السيد رامزي في صدور أطفاله بمجرد تواجده، واقفاً، كما الآن، ناحلاً كما السكين، حاداً كما النصل، يكشّر ابتسامته العريضة الساخرة، ليس تلذّذاً وحسب بمتعة تجريد ابنه من وهمه والسخرية من زوجته، من كانت ألف ألف مرة خيراً منه في كلّ شيء (في عين جيمس)، بل زهواً خفيّاً بصحة حكمه. فما قاله صحيح. ولطالما كان مُحقّاً في ما يقول. فهو عاجزٌ عن النطق بكذب؛ ما تلاعب قطّ بحقيقة؛ ما استبدل قطّ كلمة مقيتة بأُخرى تسرّ السامع الفاني من البشر، لا سيما أطفاله، ثمرة صلبه، فهم بالذات عليهم أن يعوا مُنذ طفولتهم أن الحياة شاقة؛ الحقائق لا تحتمل التزييف؛ والسبيل إلى تلك الأرض الخرافية حيث آمالنا المشرقة محتومٌ عليها أن تنطفئ، نباحنا الواهن يغرق في لجج الظلمة (ولاستقام السيد رامزي بظهره وخزَّر عينيه الزرقاوين الصغيرتين في الأفق)، يتطلب منا أن نتحلى، فوق كلّ شيء، بالشجاعة، الحقيقة، وقوة الجلد.

«لكن لربّما سيغدو صافياً - أتوقع سيغدو صافياً»، عقَّبت السيدة رامزي، تفتل غرزةً في الجورب البنيّ المحمر الذي تنسجه، نافدة الصبر. إن أنهته الليلة، وانطلقوا غداً إلى المنارة رغم كلّ الجلبة، فستُهديه إلى حارس المنارة لأجل ابنه الصغير، العرضة للإصابة بالتهاب المفاصل السلّي؛ كما ستُهديه رزمة من المجلات القديمة، وبعض التبغ، حقاً، أيّاً ما ستجده من أشياء مهملة في بيتها، لا حاجة لأحد إليها، مبعثرة ومرمية في أنحاء الغرف، ستُهديه أولئك المساكين، من لا بُدّ أنّهم قد ضجروا حتى الموت من جلوسهم طيلة النهار دون شيءٍ يفعلونه سوى جلي الفنار وتشذيب الفتيلة وتقليب رقعة الأرض التي يعدّونها حديقة، فقط من باب التسلية. إذ كيف ستروق لك حياتك إن قضيتها حبيساً على مدّ شهر متواصل، ولربّما أكثر في الطقس العاصف، على صخرةٍ حجمها لا يزيد عن مساحة مرجة تنس؟ هي ستطرح السؤال؛ ألا تصلك رسائل أو صحف، ألا ترى أحداً؛ وإن كنت متزوجاً، ألا يتسنى لك رؤية زوجتك، ولا معرفة أحوال أطفالك - إن كانوا مرضى، إن وقعوا أرضاً وكسروا ساقاً أو ذراعاً؛ ألا ترى من حولك سوى ذات الأمواج الموحشة تتكسّر على الصخور أسبوعاً تلو أسبوع، من ثم تهبّ العاصفة المروعة، النوافذ يكسوها الرذاذ، الطيور تتهشم على الفنار، والمنارة بأكملها تهتز، أن تعجز حتى عن دسّ أنفك خارج الباب خشية أن تجرفك الريح إلى قاع البحر؟ كيف ستروق لك حياة كهذه؟ سألت، موجّهةً سؤالها بالذات إلى بناتها. من ثم أردفت، في نبرةٍ مغايرة، لزامٌ على المرء أن يتقبّل حياته بحلوها ومرّها.

«الريح غربيّة»، بذا أدلى الملحد تانسلي، باسطاً أصابعه الهزيلة في الهواء كيما تعبر الريح بين الفجوات، إذ كان برفقة السيد رامزي يشاركه مشيته المسائية، يقطعان المصطبة جيئةً وذهاباً، جيئةً وذهاباً. ما كان يقصده، أن الريح تهب من أسوأ اتجاه ممكن للرسو عند المنارة. أجل، من عادته أن يتفوّه بكلامٍ كريه، أقرّت السيدة رامزي في نفسها؛ وما تفوّه به الآن هو أيضاً تصرفٌ كريه، أن يُثخن جرح ابنها جيمس، يعمّق من خيبة أمله؛ لكن، ومع ذلك، ما كانت لتسمح لهم بالاستهزاء منه. «الملحد»، كذا أطلقوا عليه، «الملحد الضئيل». روز تهزأ منه؛ برو تهزأ منه؛ آندرو، جاسبر، روجر، كلهم يهزؤون منه؛ حتى بادجر العجوز الذي لا يملك سنّاً في رأسه قد عضّه، وذلك لكونه (كما قالت نانسي) الشاب العاشر بعد المئة من يلحق بهم طوال الطريق من لندن إلى هبريدز فيما كنَّ يفضلن البقاء وحدهن.

«هراء»، قالت السيدة رامزي، بجدّيةٍ صارمة. فبصرف النظر عن عادة المبالغة التي اكتسبنها منها، ومن التلميح (الذي كان حقيقةً) إلى دعوتها الكثير من الناس للبقاء في البيت، حدَّ تأجير مسكنٍ لبعضهم في البلدة، فهي ما كانت لتطيق التصرف بفظاظة تجاه ضيوفها، لا سيما الشباب اليافع منهم، الأفقر حتى من فئران الكنيسة، «المتفوقون على أقرانهم» كذا يصفهم زوجها، الجمع العظيم من معجبيه، من يؤمّون بيته لقضاء عطلة. حقيقةً، كانت قد نصَّبت نفسها حاميةً للجنس الآخر بأسره؛ لأسبابٍ تعجز عن تفسيرها؛ بداعي شهامتهم وبسالتهم، حقيقة توليهم التفاوض على المعاهدات، حكمهم الهند، سيطرتهم على المال؛ وأخيراً بداعي تأثيرهم على نظرتها إلى نفسها والذي لا مناص لكل امرأة من استشعاره أو حتى الاستمتاع به، تأثيرٌ يغذي فيها إحساسها بالثقة، إحساسٌ طفولي، تبجيليّ؛ الإحساس الذي يتسنى للمرأة في كهولتها أن تستمدّه من شابٍ يافع دون أن تخسر كرامتها، والويل للفتاة - وحاشا للسماء أن تكون تلك الفتاة إحدى بناتها! - من لا تستشعر قيمة هذا التأثير، وكل ما يتضمنه، في نخاع عظامها!

التفتت نحو نانسي ترمقها بنظرةٍ جدية. هو لم يلحق بهم، قالت لها. بل دُعيَ إلى المجيء.

لا بُدّ وأن هناك سبيلاً أبسط، أقل كدحاً، تفكّرت متنهدة. حين لمحت صورتها على انعكاس المرآة ورأت شعرها الرمادي، وجنتيها الغائرتين، في عمر الخمسين، قالت في نفسها، لربّما كان بيدها تدبّر الأمور بشكلٍ أفضل - زوجها؛ المال؛ كتبه. لكن فيما يخصها هي فما كانت لتندم أبداً، ولو لثانية، على قرارها، لما تحاشت الصعاب، ولما لعنت واجباً من الواجبات. مرآها أنزل الرهبة في

قلوب بناتها، وفيما جلسن يسترقن النظر في صمت من أعلى أطباقهن، بعد تأنيبها الحازم دفاعاً عن تشارلز تانسلي، تسنّى لبناتها - برو، نانسي، وروز - أن يتسلين بالأفكار الوثنية المختمرة في عقولهن عن حياةٍ مختلفة عن حياتها؛ في باريس، لربّما؛ حياة مثيرة؛ لا يعتنين فيها برجلٍ أو بآخر؛ ففي عقولهن يجوس تشكيكٌ صامت في التوقير والشهامة، بنك إنجلترا والإمبراطورية الهندية، خواتم الخطوبة والأقمشة المخرّمة، ومع ذلك فهن يرين في كلّ هذا كنهاً من جمال، قلوبهن الأنثوية الغضة تستحضر صورة الرجولة، ما دفع بهن، جالساتٍ حول المائدة تحت عينيّ أمّهن، إلى إجلال صرامتها الغريبة، كياستها المتطرفة، مثل ملكةٍ انبعثت من الطين كي تغسل قدمي الشحاذ القذرتين، في عتابها الشديد لهن على تعرضهن للملحد البائس الذي لاحقهم - أو بالأحرى، دعيَ إلى الإقامة لديهم - في جزيرة سكاي.

«ما من سبيلٍ للرسوّ عند المنارة الغد»، قال تشارلز تانسلي، يصفق يديه واقفاً عند النافذة برفقة زوجها. صدقاً طفح بها الكيل من مداخلاته. تمنت لو أنّ كلاهما يغادر ويتركانها وجيمس لحالهما ويواصلان حديثهما بعيداً. أخذت تمعن النظر فيه. يا له من عينةٍ بائسة، كذا وصفه أطفالها، أحدابٌ وتجاويف. عاجزٌ عن لعب الكريكت؛ يدس أنفه فيما لا يعنيه؛ مراوغٌ ماكر. وغدٌ متهكم، كذا وصفه آندرو. والجميع على دراية بما يهواه قلبه - قضاء الأبدية يسير برفقة السيد رامزي، جيئةً وذهاباً، جيئةً وذهاباً، يحدثه عمن فاز بهذا، ومن فاز بذاك، من «الرجل الأول» في الشعر اللاتيني، من «بالغ الذكاء وإن كنت أظنه يعاني من خطبٍ في عقله»، من كان بلا أيّ شك «أبرع الرجال في باليول»، ومن ذا الذي دفن ضوءه مؤقتاً إما في برستول أو بدفورد، لكن محتومٌ لضوئه أن يتجلّى ما أن تظهر مقدمته النقدية لكتابٍ ما في فرع الرياضيات أو الفلسفة، والتي يملك السيد تانسلي الصفحات الأولى المنقحة منها إن ودّ السيد رامزي الاطلاع عليها، وبذا سيسمع به الجميع. هو ذا جلّ حديثهما.

أحياناً يشق عليها أن تحبس ضحكتها. مرةً، ذات يوم، قالت شيئاً أشبه بهذا، «قمم الأمواج فاقت الجبال». أجل، أجابها تشارلز تانسلي، كان طقساً شاقّاً. «ألستَ غارقاً في البلل؟» سألَته. «رطب، لكن لست مبلّلاً»، قال السيد تانسلي، يعصر كُمّي قميصه، يتحسس جوربيه.

ليس أنهم مانعوا أي شيءٍ من هذا، أسرَّ لها أطفالها. لا خلقة وجهه، ولا مثالب خُلقه. بل ما مانعوه هو منظوره للحياة. كلما تبادلوا الحديث في موضوعٍ مثير، أناس، موسيقى، التاريخ، أي

شيء، حتى وإن قالوا إن الطقس هذا المساء رائع فلنُقضِه خارجاً، فمبعث شكواهم عن السيد تشارلز تانسلي أنه ما لم يقلب الموضوع برمته ويعكسه بطريقة أو بأخرى على نفسه ويستخفّ بهم وينتقص من آرائهم فما كان ليهدأ له بال. وكلما شد الرحال إلى زيارة معرضٍ فنّي توجه إلى أحدهم بالسؤال، أترى أحدهم معجبٌ بربطة عنقه؟ ويعلم الربّ، قالت روز، أن أحدهم لم يُعجب.

ما أن اختفى الجميع، خلسةً انسلوا كما الأيائل عن الطاولة، ورُفِعت المائدة، أبناء وبنات السيد والسيدة رامزي الثمانية قصدوا حجر نومهم، معتكفهم في هذا البيت حيث لا مكان آخر يلتمسون فيه خصوصية الخوض في الجدل حول أي شيء، كلّ شيء؛ ربطة عنق تانسلي؛ تشريع قانون الإصلاح الانتخابي؛ طيور البحر والفراشات؛ الناس؛ فيما الشمس تسكب ضياءها في تلك العلاليّ، لوحٌ خشبي وحسب يفصل بين العلية والأخرى وبذا فإنّ كلّ خطوة تُسمَع جلية والفتاة السويسرية تنتحب لأجل أبيها الذي يصارع السرطان على فراش الموت في وادي غريسونز، فتشعشع مضارب الكريكت، أطقم الكريكت القطنية، قبّعات القش، دلاء الطلاء، الخنافس، وجماجم الطيور الصغيرة، وتستلب عبق الملح والطحالب من أشرطة أعشاب البحر الطويلة المزركشة المسمَّرة على الحائط، والتي عبقت بها المناشف كذلك، حُبيبات رمل الشاطئ عالقة في خيوطها من بعد الاستحمام.

نزاعٌ، انقسام، اختلافٌ في الآراء، عصبياتٌ تفتل غرزها في صميم الكينونة، آهٍ على أطفالها، أن يستهلوا الجدل في سنٍ مبكرة. فأطفالها أولاء ميالون جداً إلى الانتقاد. وحديثهم هراءٌ في هراء. غادرت حجرة الطعام، يد جيمس في يدها، إذ أبى الذهاب مع الآخرين. بدا لها أنّ من السخافة بمكان - اختلاق الفروقات، فالسماء أعلم بأن هناك ما يكفي من الفروقات بين الناس. فالفروقات الحقيقية، قالت في نفسها، وهي تقف قبالة النافذة في حجرة الاستقبال، كافية، كافيةٌ ووافية. واللحظة يخطر لها، الأغنياء والفقراء، علية القوم وأراذلهم؛ العظيم بأصله يلقى ابتسامةً منها، على مضض، وبعض الاحترام، إذ أنّها هي أيضاً يسري في عروقها دمٌ نبيل، دمٌ شبه أسطوري، من بيت نبيلٍ إيطالي، تفرّقت بناته على حجر الاستقبال الانجليزية في القرن التاسع عشر، لثغتهنَّ آسرة، دمائهن ثائرة، ومن عِرْقهنَّ ورثت فطنتها وجلَدَها ومزاجها، لا من العرق الإنجليزي البليد، ولا الأُسكتلندي البارد؛ غير أنها ببصيرةٍ أعمق، تأملت الوجه الآخر للفروقات، بين الأغنياء والفقراء، ما تراه بعينيها، أسبوعياً، يومياً، هنا أو في لندن، كلما زارت هذه الأرملة، أو تلك الزوجة الكادحة لقاء لقمة، تحمل حقيبةً على ذراعها، مع قلم رصاص ودفتر ملاحظات لا تنفك تدون عليه، في أعمدةٍ

سطّرتها بدقة، الأجور والنفقات، الوظيفة والبطالة، على أملِ أنها بتدوينها هذا ستكفّ عن كونها امرأة متحفظة لا يتعدى عملها الخيري ذرف شبه دمعة تعبيراً عن سخطها، منح نزر معونة مقابل إشباع فضولها، وتصبح المرأة التي لطالما في عقلها غير المدرَّب أعجبت بها، تغدو مُحقّقة، تلقي الضوء على معضلة الطبقية الاجتماعية.

مسائل عصية على الحل، كذا تبدّت لها، واقفة هناك، يد جيمس في يدها. قد لحق بها إلى حجرة الاستقبال، ذاك الشاب الذي هزئوا منه؛ واقفاً عند الطاولة، يعبث متململاً بغرضٍ ما، على نحوٍ أخرق، يستشعر نفسه خارج الأشياء، وهي واعية إلى حاله دون حاجة بها إلى تفحص ملامحه. الجميع كان قد غادر - الأطفال؛ مِنْتا دويل وبول رايلي؛ أغسطس كارمايكل؛ زوجها - كلهم غادروا. لذا التفتت إليه وقالت متنهدة، «أتود مرافقتي، إن لم يكن الأمر يضجرك، سيد تانسلي؟».

لديها مهمة رتيبة في البلدة؛ رسالة أو رسالتان وجبت عليها كتابتهما؛ عشر دقائق على الأرجح؛ وستعتمر قبعتها. وهكذا، مع سلتها ومظلتها، ها هي مرة أخرى، بعد عشر دقائق، توحي بأهبة الاستعداد، بجهوزيتها للانطلاق في رحلة، عدا أنَّها، وجدت أنّ لزاماً عليها أن توقف سيرها لدقيقة، لدى عبورهما المرجة، لسؤال السيد كارمايكل، الذي استلقى يتشمس بعينيه الصفراوين شبه المفتوحتين كما القط، وبذا كما عيني القط بدتا وكأنما تعكسان على صفحتيهما حركة الأغصان ومرّ السحب، لكن ما كانتا لتكشفان أوهى تلميحٍ لعاطفة ولا لخاطر، إن أراد شيئاً من البلدة.

فهما بصدد الانطلاق في مغامرة عظيمة، قالت ضاحكة، في طريقهما إلى البلدة. «طوابع، أوراق كتابة، تبغ؟» أخذت تقترح عليه، وقد توقفت جانبه. لكن لا، لا يريد شيئاً. يداه تحضنان كرشه الفسيح، عيناه تطرفان، وكأنما ودَّ لو أنّ بيده الردّ بلطف على تملقها (بدت مغرية وإن متوترة بعض الشيء) غير أنَّ ليس بيده، غارقٌ كما هو في رحاب النعاس الأخضر الرمادي يضمهم جميعاً في عناقه، دون داعٍ للكلمات، في حضنه الخامل الفسيح من النوايا الطيبة؛ يعانق البيت بأسره؛ العالم بأسره؛ البشرية جمعاء، إذ قد دسّ في شرابه وقت الغداء عدة قطرات من شيءٍ ما، والذي يظنّه الأطفال التفسير وراء الخطوط الصفر صفار الكناري التي تشوب شاربه ولحيته البيضاء بياض الحليب. لا، غمغم قائلاً، لا شيء.

كان مقدراً له أن يكون فيلسوفاً عظيماً، قالت السيدة رامزي، يقطعان الطريق نحو قرية الصيادين، عدا أنه تورط في زواجٍ تعس. المظلّة السوداء في يدها منتصبة، تتحرك في هالةٍ لا

توصف من التوقعات العالية، وكأنما ستلاقي أحداً في الجوار، وسردت الحكاية؛ علاقة غرامية في أكسفورد مع فتاةٍ ما؛ زواجٌ مبكر؛ الفقر؛ السفر إلى الهند؛ ترجمة شيءٍ من الشعر «على نحوٍ جميلٍ جداً، على ما أظن»، استعداده تعليم الأولاد الفارسية أو الهندوستانية، لكن بحق السماء ما النفع من تعلمهما؟ - ومن ثم الاستلقاء، كما رأياه، على المرجة.

غمرهُ الإطراء؛ وبعد الازدراء الذي تعرض له، أراح قلبه أن السيدة رامزي أسرّت إليه بالحكاية. تشارلز تانسلي انتعش. إذ كأنه بها ألمحت، أيضاً، إلى أنَّ مكمن العظمة في فكر الرجل، حتى في انحلاله، لهو في إخضاع كلّ الزوجات - ليس أنها ألقت اللوم على الفتاة، والزواج كان سعيداً كفاية، وفق رأيها - إلى النهوض بأعباء أزواجهن، مما جعله يشعر بالرضا إزاء نفسه على نحوٍ لم يشعر به من قبل، ولكم كان سيسعد لو أنهما استقلا سيارة أجرة، مثلاً، ودفع هو أجرتها. أما بخصوص حقيبتها الصغيرة تلك، هل له أن يحملها عنها؟ لا، لا، قالت له، هي دوماً ما تحمل حقيبتها تلك بنفسها. وحقاً هي تفعل. أجل، قد استشعر ذلك فيها. هو استشعر أموراً كثيرة، وأمرٌ بالذات أخذ يستثيره ويشوشه لأسباب عجز عن إدراكها. تمنى لو كان لها أن تراه في البردة والقلنسوة، يمشي في موكب السائرين. في درب الزمالة، الأستاذية، شعورٌ عارم بقدرته على تحقيق أي شيء غمره ورأى نفسه - لكن فيم تراها تحدق؟ في رجلٍ يلصق إعلاناً. الصفحة الضخمة الخفاقة انبسطت، كلّ ضربة فرشاة تكشف عن لاعبين، أطواق، أحصنة، ألوانٍ حمرٍ زرقٍ متلألئة، منسابة على نحوٍ فاتن، إلى أن بات نصف الجدار مغطى بإعلان السيرك؛ مئة فارس، عشرون فقمة مدربة، أسود، نمور.. أتلعت عنقها، إذ تعاني من قصر النظر، وقرأت.. «سنزور هذه البلدة»، قرأتها جهراً. يا له من عملٍ بالغ الخطورة لرجلٍ بذراعٍ واحدة، قالت متعجبة، الوقوف هكذا أعلى السلم - كان قد فقد ذراعه اليسرى قبل عامين في حصّادة.

«فلنذهب جميعاً!» صاحت في حماس، ماضيَين في طريقهما، وكأنما كلّ راكبي الأحصنة غمروها بجذلٍ طفولي أنساها شفقتها. «فلنذهب»، قال هو الآخر، مردداً كلماتها، يطقطقها، على نحوٍ واعٍ أجفلها. «فلنذهب جميعاً إلى السيرك». لا. ليس بيده قولها على نحوٍ صحيح. ليس بيده الشعور بها على نحوٍ صحيح. لكن لماذا؟ تساءلت بينها وبين نفسها. يا ترى ما خطبه؟ وإذ بها، لحظتها، يخالجها إحساسٌ دافئ تجاهه. أما سبق لأهله أن اصطحبوه هو وإخوته إلى السيرك حين كانوا أطفالاً، سألته. ولا مرة، أجابها، وكأنه بها سألته السؤال الذي تاق إلى سماعه بشدة؛ قضى كلّ تلك الأيام متلهفاً للإجابة عليه، كيف أنَّه لم يسبق لأهله أن اصطحبوه وإخوته إلى السيرك. عائلة

كبيرة، تسعة أشقاء وشقيقات، وأبوه صاحب مهنة. «أبي صيدليّ، سيدة رامزي. يدير متجراً». هو نفسه بدأ يؤمن قوت يومه مذ كان في الثالثة عشرة. وغالباً ما قضى الشتاء دون معطفٍ ثقيل. في الكلية ما كان بيده قطّ «أن يرد كرم الضيافة» (تلك كلماته التي نطقها بتكلفٍ جاف). كان لزاماً عليه أن يصيَّر الأشياء صالحة ضعف أمد صلاحيتها لدى الآخرين؛ لا يدخن إلّا أرخص التبغ؛ التبغ المفروم؛ مثله مثل الكهول على رصيف المرفأ. عمل كادحاً - سبع ساعاتٍ في اليوم؛ موضوع بحثه تأثير شيءٍ ما على أحدٍ ما - كانا يسيران في الطريق والسيدة رامزي لم تلتقط المعاني بوضوح، فقط الكلمات، منثورة هنا وهناك.. رسالة.. زمالة.. قراءات.. محاضرات. إذ أنها عجزت عن متابعة الجعجعة الأكاديمية القبيحة، فعقعتها تتدفق في ثرثرته، ومع ذلك قالت في نفسها إنها الآن تدرك لماذا الذهاب إلى السيرك أخلّ بتوازنه وأطاح به من عليائه، هذا الشاب المسكين، ولِمَ فضفض لها، فوراً، بكل هذا الحديث عن أبيه وأمه وأشقائه وشقيقاته، وستحرص ألّا يهزؤوا منه مرةً أخرى؛ وستخبر برو بما سمعته. فما سيسعده حقاً، هي افترضت، أن يقول لأحدهم كيف أنه ما ذهب قطّ إلى السيرك غير أنه ذهب إلى إزبن برفقة آل رامزي. أجل، هو متزمتٌ مزعج - وآه، مملٌ على نحو لا يُطاق. إذ، ورغم وصولهما البلدة وسيرهما على الطريق الرئيس، العربات العادِيات تجرش الحصى، ما برح يثرثر عن التسويات، التدريس، الطبقة العاملة، مدّ يد العون إلى طبقتنا، والمحاضرات، فاستنبطت أنه لا بُدّ قد استعاد جلّ ثقته في نفسه، استعاد توازنه من بعد السيرك، وكان على وشك (وها هو الشعور الدافئ يخالجها مرةً أخرى) أن يقول لها - لكن ها هي البيوت تنحدر من على الجانبين، قد وصلا رصيف المرفأ، وها هو الجون بأسره ينبسط أمامهما وما كان بيد السيدة رامزي أن تمنع نفسها عن الهتاف، «آه، يا له من منظرٍ فاتن!» فها هو الأزرق العظيم يملأ عينيها؛ وفي غمرته، تنتصب المنارة العتيقة، نائية، محض بسيطة؛ وعلى يمينها، أقصى ما يصله البصر، تخبو وتنحدر، في طياتٍ ناعمة خفيضة، كثبان الرمال الخضر مع العشب البري ينساب على انحناءاتها، والتي لطالما بدت كأنما تفرُّ إلى بلدٍ قمري، لا يستوطنه الرجال.

هو ذا المنظر، قالت له وقد توقفت، الرماديّ يشوب عينيها، الذي يحبه زوجها.

انقطعت عن الكلام للحظة. لكن الآن، قالت له، بدأ الرسامون يفِدون إلى هنا. وبالفعل، هنالك، على بعد خطوات وحسب، وقف أحد أولاء الرسامين، يعتمر قبعة باناما ويرتدي جزمتين صفراوين، يحدّق في نظرة جديّة، رقيقة، مستغرقة، هو ذاته يتأمله عشرة صبيان صغار، ووجهه الأحمر الدائري المتأمل تكتسيه هالة من الرضا العميق، وما أن فرغ من التحديق، حتّى بدأ يغمس؛

طرف فرشاته تتشرب من كومة الأخضر أو الزهري. مذ قدوم السيد بونسفورت هنا، قبل ثلاثة أعوام، وكل اللوحات باتت تبدو كما تلك اللوحة، قالت له، خضراء رمادية، قوارب شراعية بلون الليمون، ونسوة زهريات على الشاطئ.

لكن صديقات جدتها، أردفت قائلة، تسترق نظرة متحفظة على اللوحة لدى تجاوزهما إياها، هن من عانين الأمرَّين؛ فهن من كنَّ يمزجن ألوانهن، وهن من يطحنَّها، من ثم يغطين ألوانهن بأقمشةٍ رطبة كي يحافظن عليها ناعمةً نديّة.

فافترض السيد تانسلي من حديثها أنها عنت أن تريه كيف أنّ لوحة ذاك الرجل ضحلة، أهكذا يصفون اللوحات؟ الألوان ليست واقعية، أهكذا توصف الألوان؟ وتحت تأثير ذاك الشعور الطاغي الذي تملكه طوال مسيرهما، انبثق بدءاً في الحديقة لدى رغبته بحمل حقيبتها، من ثم تعاظم في البلدة لحظة اعترته الرغبة بفصح مكنون صدره إليها، رأى صورته، وكل ما عرفه يوماً في حياته، يختل قليلاً. كان إحساساً شديد الغرابة.

وها هو ذا واقف في ردهة بيتٍ رث إلى حيث اصطحبته، ينتظرها، وقد صعدت إلى الطابق العلوي دقيقةً كي تطمئن على امرأة. تناهت إليه خطواتها السريعة من الأعلى؛ سمع صوتها مفعماً بالبهجة، من ثم خبا؛ تأمّل قطع السجاد، علبيات الشاي، ظُلَل المصابيح؛ انتظر نافد الصبر؛ ترقب متلهفاً مسير عودتهما إلى البيت؛ عاقد العزم على حمل حقيبتها؛ من ثم سمعها تخرج؛ تغلق الباب؛ تحثهم على إبقاء النوافذ مفتوحة والأبواب مغلقة، تسأل أهل البيت إن كانوا يحتاجون شيئاً (على ما يبدو توجّه حديثها إلى طفل) وإذ بغتةً، ها هي ذي، تقف مكانها للحظة، صامتة (وكأنما كانت في الأعلى تتقمص دوراً، وها هي تمنح نفسها لحظة تطلق فيها العنان لحقيقتها)، للحظة وقفت ثابتة بلا حراك مقابل صورة للملكة فيكتوريا موشحة بوسام العرش الأزرق؛ وإذ به اللحظة يعي كنه الشعور الذي تملكه: هو ذا: هو ذا: - هي أجمل امرأةٍ وقعت عيناه عليها.

بريق النجوم في عينيها والخُمْر في شعرها، عشبة بخور مريم والبنفسج البريّ - أي هراءٍ يجول في فكره اللحظة؟ فهي على الأقل في الخمسين؛ أمٌ لثمانية أطفال. تقطع الحقول المزهرة، تضم إلى صدرها براعمَ تكسرت ونعاجاً وقعت؛ مع بريق النجوم في عينيها والنسيم يداعب شعرها - ها هو قد قبض على حقيبتها.

«وداعاً، إلسي»، قالت مودِّعة، وعادا يسيران على الطريق، المظلّة في يدها منتصبة تمشي كأنما تتوقع الالتقاء بأحدٍ في الجوار، فيما للمرة الأولى في حياته يراود تشارلز تانسلي إحساسٌ عظيمٌ بالفخر؛ رجلٌ يحفر في مصرف المياه كفَّ عن الحفر ونظر إليها، ترك ذراعه تتدلى ونظر إليها؛ وللمرة الأولى في حياته تشارلز تانسلي يراوده إحساسٌ عظيمٌ بالفخر؛ استشعر النسيم وبخور مريم والبنفسج البريّ لأن ها هو ذا يسير برفقة امرأةٍ جميلة. وقد قبض على حقيبتها.

الفصل الثاني

«لا رحلة إلى المنارة، جيمس»، قال له، في نبرةٍ من اللين حاول أقصى وسعه أن تبدو لطيفة توقيراً للسيدة رامزي.

يا لك من ضئيلٍ كريه، قالت السيدة رامزي في نفسها، ما الذي دهاك كي تقول شيئاً كهذا؟

الفصل الثالث

«من يدري، ربّما ستصحو الغد وتجد الشمس مشرقة والعصافير تغرّد»، أخذت تواسيه، تمسّد شعر الصبيّ الصغير، فزوجها، بقوله الساخر إن الغد لن يكون صافياً، قد سحق معنوياته أمام عينيها. فقد رأت كيف شغف قلبه بهذه الرحلة إلى المنارة، ومن ثم، كأنما لم يكن كافياً حديثُ زوجها الساخر عن الغد وكيف لن يكون صافياً، ها هو ذا الضئيل الكريه يعود ينكأ جرحه من جديد.

«ربّما سيغدو صافياً»، أخذت تواسيه، تمسّد شعره.

كل ما بيدها فعله الآن هو إظهار إعجابها بالبراد، تقليب صفحات قوائم المحال التجارية آملةً العثور على شيء مثل مدمة، أو حصّادة، غرض ذي أشواك مدبّبة ومقابض، يتطلب قصّه أدقّ عناية ومهارة. جلست تتفكّر، كيف أنّ كلّ أولاء الشباب يحاكون زوجها ساخرين؛ إن قال إنها ستمطر؛ واثقين رددوا أنَّ إعصاراً سيهبّ.

غير أنَّ اللحظة، ما أن تقلب الصفحة، بحثها عن صورة مدمة أو حصّادة ينقطع فجأة. فالهمهمة الجشاء، متقطعة على الوقع غير المتّسق لإخراج الغلايين ووضعها في الأفواه، ما انفكّت تطمئنها، رغم عدم سماعها كلمة مما يقال (تجلس لدى النافذة المفتوحة المطلّة على المصطبة) من أن الرجال يتبادلون الحديث سعداء؛ هذا الصوت، والذي استمر نصف ساعة آخذاً موقعه بانسيابية ضمن مقياس الأصوات المحتشدة حول رأسها، نقر الكرات على المضارب، الهتاف المفاجئ الحاد، بين الفينة والأخرى، «هل تحسب للضارب؟ هل تحسب للضارب؟» لأطفالها يلعبون الكريكت، قد توقف؛ وإذ يتناهى إليها سقوط الأمواج الرتيب على الشاطئ، خفقه يدق وشماً موزوناً رقيقاً على أفكارها وكأنما يردد مواسياً المرة تلو المرة لدى جلوسها برفقة أطفالها كلمات تهويدة عتيقة، تهمسها الطبيعة، «أنا حاميتكِ ـ أنا راعيتكِ»، لكن في أحيان أخرى، بغتةً وعلى حين غرة، لا سيما متى ما سما عقلها بنفسه عن المهمّة بين يديها، فالموج لا يكشف عن تهويدة أمومية، بل قرع طبولٍ وحشي ينذر بانقضاء العمر خفقةً خفقة، يوحي بدمار الجزيرة وابتلاعها في البحر، يحذّرها هي مَنْ انسلَّ

يومها من بين أصابعها تهرع بين عمل هذا وذاك بأن العمر يفنى في أجلٍ أقصر من تجلّي قوس قزح - هذا الصوت المستتر، الخبيء تحت كلّ ما عداه من أصوات، فجأة أخذ يقصف رعداً في أذنيها فرفعت رأسها مشدوهة العينين فزعاً.

لقد كفوا عن الكلام؛ هذا هو التفسير. وفي ثانية، تهوي من أقصى التوتر الذي قبض عليها إلى أعمق أطوار هدوء النفس، الرضا، وكأنما تعوّض على نفسها الهدر العاطفي غير الضروري، استنبطت، مع نفحةٍ من الخبث، أن الجمع قد تكالب على المسكين تشارلز تانسلي. ما همّها في شيء. إن كان زوجها يتطلب القرابين (وصدقاً فعل) لقدّمت له بكل بهجة تشارلز تانسلي، من ازدرى ابنها الصغير.

بعد لحظة، رفعت رأسها، تصغي، كأنما تترقب سماع صوتٍ مألوف، صوتٍ ميكانيكي منتظم؛ من ثم، صوتٌ متواتر تناهى إليها، نصف قول، نصف ترنيمة، تنبثق عن الحديقة، فيما زوجها يطرق المصطبة بخطاه جيئةً وذهاباً، صوتٌ بين نقيق وأغنية، وإذ بروعها يهدأ، وتعود تطمئن إلى أن كلّ شيء على ما يرام، عيناها الآن في الكتاب على حجرها وقد عثرت على صورة سكّين جيب ذي ستة نِصال لا تقصّ إلا إذا أظهر جيمس مهارته العالية.

فجأة، صيحةٌ مدوّية، كأنما صاح بها سائرٌ في منامه أُوقِظ التو، صيحة عن شيءٍ أشبه بـ

تعصف فيهم قذائف ورصاص

صدحت قوية في أذنها، ما جعلها تتلفّت متوجّسة حواليها كي ترى إن كان أحدٌ آخر قد سمعه. ليلي بريسكو وحسب، ما طمأن قلبها؛ لا داعي للقلق إذن. إلا أن مرأى الفتاة تقف على حافة المرجة ترسم قد ذكّرها؛ يفترض بها أن تبقي رأسها على ذات الوضعية قدر المستطاع لأجل لوحة ليلي. لوحة ليلي! ابتسمت السيدة رامزي. فمع عينيها الضيقتين الصينيتين ووجهها المتغضّن، لا أمل لها قطّ بالزواج؛ وليس بوسع امرئٍ أن يأخذ رسمها على محمل الجدية؛ هي مخلوقة صغيرة مستقلة، والسيدة رامزي معجبة بها لتلك الخصلة؛ لذا، ما أن تذكرت وعدها، حتّى أطرقت برأسها.

الفصل الرابع

حقّاً، كاد يوقع حاملها أرضاً، قادماً ينقضّ عليها وهو يلوّح بيديه ويصيح بأعلى صوته، «ببسالة وإقدام عدونا»، لكن، من رحمة السماء، حاد عن طريقه، وانطلق بعيداً عنها، كي يلقى حتفه المشرف على أعالي بالاقلافا. ما سبق لها قطّ أن رأت رجلاً على هذا القدر من السخافة ومثيراً للقلق في ذات الآن. طالما سيظلّ على هذا وحسب، تلويحٌ، وصياح، فهي في مأمن منه؛ ما كان ليقف ثابتاً ويتأمل لوحتها. وليلي بريسكو ما كانت قطّ لتطيق وقوفه. إذ حتى لدى إمعانها النظر في كتلة، في خط، في لون، في السيدة رامزي تجلس عند النافذة برفقة جيمس، فقرون استشعارها متأهبة لأي تغيير حواليها في حال تسلّل أحدهم خلسة، فتجد لوحتها فجأة وقد انكشفت لعينيه. لكن الآن، مع كلّ حواسها متحفّزة على عادتها، تتأمّل الجدار، تطيل النظر في زهور الجاسمنّا ما وراء الجدار، لونا الجدار والجاسمنا يخزان ساطعين عينيها المرهفتين، استشعرت خروج أحدهم من البيت، ماضياً نحوها؛ إلا أنه قدومٌ شبه سماوي، من وقع أقدامه، ويليام بانكس، لذا حتى وإن ارتعشت فرشاتها، هي ما ارتعشت، كما لو كانت سترتعش لو أنَّ القادم كان السيد تانسلي، بول رايلي، منتا دويل، أو أي شخصٍ آخر في المطلق فتقلب قماشة الرسم صوب العشب، والتي تركتها الآن قائمة. ويليام بانكس وقف جانبها.

كلاهما يقيم في غرف مستأجرة في القرية، وهكذا، داخلَين، خارجَين، مفترقَين في وقت متأخر على مماسح الأرجل، يتبادلان القليل من الكلام عن الحساء، عن الأطفال، عن شيءٍ أو آخر، باتا حليفَين؛ لذا حين وقف جانبها الآن بحصافته المعهودة (كذلك هو كبيرٌ كفاية كي يكون في عمر أبيها، عالم نبات، أرمل، رائحة الصابون تفوح منه، دقيقاً ونظيفاً) هي وقفت وحسب. هو وقف وحسب. حذاؤها مثالي، أبدى ملاحظته. إذ يفسح المجال للأصابع أن تأخذ امتدادها الطبيعيّ. مقيماً في ذات البيت حيث تقيم، فقد لاحظ أيضاً، كم هي منظمة، تنهض قبل الفطور وتهمُّ إلى الرسم، وحدها، على ما يظن: فقيرة، على الأرجح، وبالتأكيد تفتقر إلى بشرة وفتنة الآنسة دويل، لكنها تمتاز

بحسٍّ عقلاني حصيف يضعها في مقامٍ أعلى في عينيه من تلك السيدة اليافعة. فمثلاً، الآن، حين اندفع رامزي منقضّاً عليهما، يصيح، يومئ بيديه، فقد اطمئنَّ، إلى أنَّ الآنسة بريسكو، تتفهم.

أحدهم قد تخبّط، ارتكب خطأً جسيما

السيد رامزي حملق بهما. حملق بهما وكأنما لا يراهما. وكلاهما انتابه إحساسٌ مبهم من الضيق. فمعاً قد شهدا أمراً ما كان يفترض بهما أن يرياه. فقد انتهكا حرمة خصوصية. لذا، فقد ظنت ليلي، أنّه لربّما وجد فيما حدث عذراً كي يمضي، كي يبتعد عن السمع، مما دفع السيد بانكس إلى إبداء تعليقٍ عن برودة الطقس واقتراح المضيّ في نزهة. أجل، كانت سترافقه. غير أنه شقَّ عليها رفع عينيها عن لوحتها.

الجاسمنّا بنفسجية زاهية؛ الجدار أبيضٌ ناصع. ولا تجد مصداقية في التلاعب بالبنفسج الزاهي ولا البياض الناصع، فهكذا رأتهما، حتى وإن بات الدارج، مذ زيارة السيد بونسفورت، رؤية كلّ شيءٍ شاحباً، متأنقاً، وشفيفاً. ومن أسفل اللون يكمن الشكل. لها أن تبصر كلّ شيء بمنتهى الوضوح، بكل إحكام، متى ما ترى: لحظة تمسك يدها بفرشاتها، حينذاك يتغير الأمر برمته. في لمحة البصر تلك بين اللوحة والقماشة تنقضُّ عليها الشياطين بشراسة تدفعها إلى حافة البكاء، تصيّر هذا العبور من التصوّر إلى العمل مفزعاً كما عبور طفلٍ في ممرٍ مظلم. هو ذا الشعور الذي غالباً ما راودها ـ تصارع الاحتمالات الرهيبة كي تُبقي على شجاعتها؛ كي تقول: «لكن هذا ما أراه أنا؛ هذا ما أراه أنا»، تحتضن الأثر البائس المتبقّي من رؤياها إلى صدرها فيما ألفُ قوةٍ تعمد إلى اقتلاعها منها. وأيضاً آنذاك، تهبّ عليها كما الريح الباردة، ما أن تبدأ بالرسم، هواجسُ أخرى، افتقارها الموهبة، انعدام قيمتها، اعتناؤها ببيت أبيها خارج طريق برومبتون، وكم من جهد جهيد تبذل حينها كي تلجم نفسها (حمداً للسماء فهي نجحت حتى اللحظة في مقاومة نزوتها) عن الارتماء في حضن السيدة رامزي والإفصاح لها ـ لكن يا ترى الإفصاح لها عن ماذا؟ «أنا واقعة في غرامك؟» لا، تلك ليست الحقيقة. «أنا واقعة في غرام كلّ هذا»، ملوّحةً بيدها صوب الوشيع، البيت، الأطفال. شعورٌ عبثيّ، مستحيل. وهكذا فيما أخذت تسجي فُرَشَها في العلبة، مُرتّبة جنباً بجنب، التفتت إلى ويليام بانكس قائلة:

«لقد تبدّل الطقس فجأة وبات بارداً. على ما يبدو فالشمس تضن بدفئها»، قالت، متلفّتة حواليها، إذ كان الطقس مشمساً كفاية، العشب لمّا يزل أخضرَ نديّاً، روضة البيت الخضراء مرصعة

بزهور الآلام الأرجوانية، والغدفان تنعق بنحيبها الخفيض من أعالي الزرقة. لكن شيئاً ما تحرّك، التمع، استحال جناحاً فضيّاً في الهواء. لا عجب، فهو شهر أيلول، منتصف أيلول، والساعة تجاوزت السادسة مساءً. وهكذا همّا إلى النزهة في دربهما المعهود عبر الحديقة، متجاوزَين مرجة التنس، سهل عشب النجم، إلى تلك الفجوة في الوشيع الكثيف، تحرسها زهور سوسن الشعلة، حمراء متّقدة كما لهب الفحم المستعر في قلب كانون، ومن بين سوقها يتجلى ماء الجون الأزرق أكثر زرقة.

كان من عادتهما الذهاب هناك كلّ مساء مدفوعَين باحتياجٍ غامض. وكأن ماءً انبجس عن الأرض فأطلق الأفكار في البحر بعد أن كانت متلبّدة في أرضٍ جافة، مانحاً إياهما إحساساً من الارتياح الجسدي. أولاً، الجون يفيض أزرقَ إثر النبض الحيّ للّون، والقلب يتّسع بفيضه هذا والجسد يسبح، لولا أنَّ الجسد يُكبَح في لحظة وتُصيبه القشعريرة على وخز السواد الشائك على كشاكش الموج. ومن ثم، هناك خلف الصخرة السوداء العظيمة، في معظم الأماسي، تنبجس على أوقات مختلفة، مما يجعل لزاماً على المرء أن يترقبها ويا لها من بهجة عارمة متى ما رآها، عينٌ من الماء الأبيض؛ ومن ثمّ، فيما يترقّب المرء انبجاس العين، يُبصر، على الشاطئ الشاحب شبه الدائري، الموجة تلو الموجة، تطرح عنها في دفقٍ سلس، المرة تلو المرة، سديماً مرصّعاً بأمّ اللآلئ.

كلاهما تبسَّم، واقفَين هناك. كلاهما اغتبط بمرحٍ مشترك، تستثيره حركة الأمواج؛ ومن ثم قاربٌ شراعي انطلق مندفعاً على نحوٍ رشيق، وقد حزَّ قوساً على الجون، لكن وإذا به يتوقف؛ يرتعش؛ وينزل أشرعته؛ ومن ثم، إثر فطرةٍ غريزية إلى إكمال اللوحة، بعد هذه الحركة الرشيقة، كلاهما حوَّل بصره صوب الكثبان البعيدة، وإذا بالمرح الذي اعتراهما يغلبه إحساسٌ من الحزن - حزنٌ على الاكتمال، وحزنٌ على الفناء، إذ بدا من طبيعة تلك المناظر البعيدة أن تفوق حياة الرائي بمليون عام (تفكّرت ليلي) تقضيها في محادثات حميمة مع سماءٍ تشاهد الأرض بأسرها في سكونٍ سرمدي.

متأملاً التلال الرملية البعيدة، خطر رامزي إلى ويليام بانكس: تفكَّر في طريقٍ في ويستمورلاند، تفكَّر في رامزي يقطع الطريق بخطىً واسعة في عزلةٍ بدت آنذاك هي هالته الطبيعية. غير أنَّ مسيره، كما تذكر ويليام بانكس (ولا بُدّ أن الذكرى تعود إلى حدثٍ حقيقي) قد انقطع فجأة، إثر دجاجة، تقطع الطريق ناشرةً جناحيها كيما تحمي فوج كتاكيتها الصغار، فإذا برامزي يتوقّف، يشير بعصاه قائلاً «جميلة - جميلة»، كانت إشراقةً غريبة على قلبه، ظنّ بانكس

حينها، كشفت عن بساطته، شفقته على المخلوقات الضعيفة؛ لكن تبدى له وكأن عروة صداقتهما انقطعت تلك اللحظة، هناك، على مدِّ ذاك الطريق. إذ بعد ذاك، تزوج رامزي. مع انشغاله بأمرٍ أو آخر، لبُّ صداقتهما انتُزِع. خطأ من كان؟ ليس بيده القول، عدا أنَّ، وبعد أمد، التكرار حلَّ محل التجديد. لقاؤهما ما عاد سوى عودٍ إلى ذكرى. لكنه في خضم حديث النفس الأبكم مع الكثبان الرملية أيقن أن عاطفته تجاه رامزي ما نقص منها مثقال ذرة؛ لكن هناك، مثل جسد شابٍ يافع سجّوه على الخُث مائة عام، الأحمر القاني نضرٌ على شفتيه، باتت صداقتهما، بقساوتها وواقعيتها، مسجّاة عبر الجون بين الكثبان.

كان معنيّاً من كلّ جوارحه بالحفاظ على هذه الصداقة ولربّما أيضاً كي يُبرئ نفسه في عينيه من تهمة الانكماش والتقلص - فرامزي يتمرغ في الأطفال، بينما بانكس أرملٌ وأبتر - كان معنياً بألّا تحط ليلي بريسكو من قدر رامزي (رجلٌ عظيمٌ بطريقته) ومع ذلك تتفهم كيف لطبيعة الأمور بينهما أن تبدلت. صداقةٌ متينة امتدت منذ أعوام طويلة، واضمحلت على طريق ويستمورلاند، حيث فردت الدجاجة جناحيها أمام كتاكيتها؛ ومن بعدها تزوج رامزي، ومع افتراق طريقهما إلى اتجاهين، يظل هناك، ويقيناً ليس بخطأ أحد، ميلٌ يساورهما، كلما التقيا، إلى التكرار.

أجل. هو ذا. اكتفى. استدار مبتعداً عن الإطلالة. ومن ثم، عائداً في طريقه، يسير أعلى درب البيت، بات السيد بانكس واعياً لأمورٍ ما كانت لتخطر قطّ في باله لولا أن كشفت تلك التلال الرملية أمام عينيه عن جثمان صداقتهما مسجّى على الخثّ مع الأحمر النضر على شفتيه - منها على سبيل المثال، كام، الطفلة الصغيرة، أصغر بنات رامزي. كانت تقطف زهور أليس من على الضفة. جامحة وشرسة. ما كانت لتقبل «بإهداء زهرة إلى السيد» كما حثّتها مربيتها. لا! لا! لا! لا تقبل! أحكمت قبضتها. ضربت الأرض بقدمها. وغمر السيد بانكس إحساسٌ من الشيخوخة والحزن، وعلى نحوٍ ما، الذنب وكأنما الطفلة تُحمّله اللوم على مآل صداقتهما. فقد انكمش وتقلص.

آل رامزي ليسوا بالعائلة الغنية، ولطالما تعجب، أيّة حيل تتدبر بها هذه العائلة معيشتها. ثمانية أطفال! أن تطعم ثمانية أفواه من صنعة الفلسفة! وها هو طفلٌ آخر من أطفالهم قادم، جاسبر هذه المرة، يتمشّى على مهل، كي يصطاد عصفوراً، كذا قال، بلا اكتراث، يؤرجح يد ليلي وكأنها ذراع مضخة ما أن مرَّ جانبها، ممّا دفع السيد بانكس إلى أن يقول، في مرارة، كيف أنها هي المفضلة. والآن هناك هَمُّ التعليم (أجل، على الأرجح السيدة رامزي قد حظيت بقسطٍ من التعليم) عدا

الكسوة اليومية سريعة البلى من الأحذية والجوارب التي لا بُدّ سيحتاج إليها أولاء «الشباب الرائعون»، البالغون، الخشنون، القساة. أما تمييزه أحدهم عن الآخر، معرفة ترتيب مجيئهم إلى الدنيا، فخارج نطاق قدرته. كان يدعوهم، بينه وبين نفسه، بألقاب ملوك وملكات إنجلترا؛ كام الشريرة، جيمس متحجر القلب، آندرو العادل، برو الجميلة - فبرو ستحظى بالجمال، هو موقنٌ من ذلك، وكيف لا؟ - وآندرو سيحظى بالعقل. وفيما سار أعلى الدرب وليلي بريسكو تجيب بنعم ولا وتفوقه في تعليقاته (إذ كانت واقعة في غرامهم جميعاً، في غرام عالمهم هذا) أخذ يزِن قضية رامزي، يرثي لحاله، يحسده، وكأنما رآه وقد جرَّد نفسه من أمجاد العزلة والتقشف التي توَّجتهُ في شبابه فقط كي يعيق نفسه عامداً متعمّداً برفرفة الأجنحة ووقوقة الحياة المنزلية. لكنهم منحوه شيئاً - ويليام بانكس أقرّ بذلك؛ لكان لطيفاً لو أنَّ كام دسّت زهرةً في معطفه أو تسلّقت كتفيه، مثلما تتسلّق كتفي أبيها كي تتأمّل لوحة انفجار بركان فيزوف؛ غير أنهم أيضاً، وما كان لأصدقائه القدامى إلا أن يستشعروا ذلك، قد دمروا فيه شيئاً. وما عسى الغريب يظن به الآن؟ ما الذي تظنه فيه ليلي بريسكو هذه؟ أبوسع أحدٍ ألّا يرى كيف للعادات أن تملكته؟ غرابة الأطوار، ولربّما حتى الضعف والوهن؟ إنّه لأمرٌ مذهل كيف لرجلٍ بذكائه أن انحط إلى الحضيض - لكن هذه عبارةٌ قاسية - أن بات يعتمد اعتماداً كبيراً على استنطاق مديح الناس له.

«أوه، لكن»، اعترضت ليلي، «تأمَّل عمله!».

كلما «تأملت هي عمله» تبدَّت في عينيها واضحاً جليّاً طاولة مطبخٍ كبيرة. صنيعة آندرو. إذ سألته يوماً عمَّ تدور كتب أبيه. «الشخص والشيء وطبيعة الواقع»، كذا أجابها. وحين قالت مندهشة يا للسماء، فلا فكرة كانت لديها عمّا يعنيه. «إذن فكّري بطاولة مطبخ»، قال لها، «متى ما لم تكوني هناك».

وهكذا بات من طبيعتها أن ترى، كلما تأمّلت عمل السيد رامزي، طاولة مطبخ مفروكة ونظيفة. وها هي مستقرة الآن على مذراة شجرة كُمّثرى، إذ قد بلغا البستان. ومع جهدٍ جهيد مؤلم أخذت تُركّز، تُصوِّب عقلها، لا على لحاء الشجر المرصّع بالفضيّ، ولا على الأوراق الشبيهة بأشكال السمك، بل على طيف طاولة المطبخ، طاولةٍ منضدتها مصقولة، محبّبة ومعقودة، فضيلتها تتبدى صافية على يد أعوامٍ من الاستقامة الذكورية، عالقة هناك، سيقانها الأربع في الهواء. ومن الطبيعي، إن قضى المرء أيامه في رؤية الكنه الخشن للأشياء، إن اضمحلت الأماسي الجميلة،

بسُحُبِها الفلامنغو وبزرقتها وفضّيتها إلى مجرد طاولة بيضاء من أربع سيقان (ولهي حقّاً دلالة على العقل اللبيب أن يقدر على هذا)، فمن الطبيعي أن ليس بيد أحدٍ أن يحكم على ذاك المرء مثلما يحكم على شخصٍ عادي.

أُعجب بها السيد بانكس لدعوتها إياه إلى «التأمّل في عمله». ولطالما تأمّله، قال لها، مرّات ومرّات لا تُحصى. «رامزي أحد أولئك الرجال ممّن يبلغون ذروة عملهم قبل الأربعين». كان قد حقّق مساهمةً حقيقية في الفلسفة في كتابٍ صغير حينما كان في الخامسة والعشرين وحسب؛ كلّ ما تلا من كتب ما هي إلا إسهاب، تكرار. ومع ذلك، يظل أنَّ من قدموا في حياتهم مساهمةً حقيقية لأي علمٍ كان هم ثلة صغيرة جداً، قال لها، واقفاً عند شجرة الكُمّثرى، متأنقاً، لا تشوبه شائبة، بذهنٍ مذهلٍ حصيف. فجأة، وكأنما إيماءة يده حرّرته، إذ بحِمْل انطباعاتها المتراكمة عنه يفيض، وكل مشاعرها تجاهه اندفقت سيلاً ثلجيّاً جارفاً وثقيلاً. ذاك إحساس. جوهرٌ كنهه يتصاعد عن السيل كما الدخان. ذاك إحساسٌ آخر. إحساسها بحدة بصيرتها شلَّها؛ هي صرامته، قالت في نفسها، هي طيبته. أحترمك (عبرت له في صمت) بكل ذرةٍ فيَّ؛ أنت لست بمختال؛ أنت موضوعيّ حتى النخاع؛ أنت خيرٌ من السيد رامزي؛ أنت خير إنسانٍ عرفته على الإطلاق؛ لا زوجة لك ولا طفل (ومنزهة عن أيّة مشاعر جنسية، تاقت إلى توقير وحدته هذه)، كرّست حياتك للعلم (وإذ لا إرادياً تتجلى في عينيها أشكالٌ من البطاطس)؛ أيُّ مديح هو إهانةٌ لك؛ أنت أيها الرجل الكريم، ذو القلب النقي، البطولي! غير أنها الآن، استذكرت إحضاره خادماً شخصيّاً كلّ الطريق إلى هنا؛ اعتراضه على جلوس الكلاب على الكراسي؛ سرده لساعات (إلى أن يصفق السيد رامزي الباب خارجاً) عن الملح في الخضروات وآثام المطبخ الانجليزي.

وما عساها تستنبط من كلّ هذا؟ كيف لامرئٍ أن يحكم على الناس، أن يتصوّرهم؟ كيف لامرئٍ أن يجمع هذا بذاك فيَعي إن كان ما يساوره تجاه الآخر لهو إعجابٌ أم كره؟ وما المعنى، يا ترى، المرتبط بتلكما الكلمتين؟ واقفة الآن، مرأى شجرة الكُمّثرى يأسرها، دفقُ انطباعاتها عن الرجلين يغمرها، ملاحقتها خيط أفكارها أشبه بملاحقة صوتٍ يهذر بسرعة حدَّ أن يعجز امرؤٌ عن تدوينه بقلم رصاص، والصوت هو صوتها، يتفوّه دون تلقينٍ منها بأمور أبدية، غير قابلة للإنكار، ومتناقضة، وبذا حتى الشقوق والأحداب على لحاء شجرة الكُمّثرى ترسخت في ذهنها للأبد. أنت تملك العظَمة، واصلت حديث نفسها، والسيد رامزي يفتقر إليها. إنّه مثيرٌ للشفقة، أنانيّ، مختالٌ، مغرور؛ هو مدلّل؛ هو طاغية؛ يرهق السيدة رامزي حدَّ الموت؛ غير أنه يملك (توجه حديثها للسيد

بانكس) ما لا تملكه أنت؛ روحانية متقدة؛ لا يكترث البتّة بتوافه الأمور؛ يعشق الكلاب وأطفاله. لديه ثمانية. والسيد بانكس لا ولد له. ألم يأت تلك الليلة مرتدياً معطفين طالباً من السيدة رامزي أن تقص شعره في آنية البودنغ؟ كلّ انطباعاتها هذه تراقصت عالياً وأسفلاً، مثل سربٍ من البعوض، كلّ بعوضة منفصلة عن الأخرى بيدَ أنها جميعاً محكومة على نحو عجائبي في شبكةٍ خفية مرنة - تتراقص عالياً وسافلاً في عقل ليلي، حول أغصان شجرة الكُمّثرى وعليها، حيث لا تزال عالقة طاولة المطبخ المصقولة، رمز احترامها العميق لعقل السيد رامزي، هكذا حتى انجرفت جميعها في دوامة فكرة أخذت تتسارع وتتسارع إلى أن تفجرت من شدتها؛ فغمرها شعورٌ من الانعتاق؛ طلقةٌ دوّت قريبة جداً، وها هو ذا، يطير مذعوراً إثر تشظيها، متدفقاً هائجاً مضطرباً، سربٌ من الزرازير.

«جاسبر!» هتف السيد بانكس. استدارا وواصلا سيرهما إلى حيث حلَّق سرب الزرازير، أعلى المصطبة. وفي تقفّيهما أثر السرب المتفرّق يحلق برشاقة في السماء، عبرا فجوة الوشيع العالي، وإذ يقعان على السيد رامزي، يصيح بهما بصوته الهادر المأساوي، «أحدهم قد تخبّط، اقترف خطأً جسيم!»

عينه، تتّقد عاطفةً، جسورة إلى حدٍّ مأساوي، اللحظة التقت بعينيهما، ارتعشت وهلة التعرف عليهما؛ غير أنَّه، رافعاً يده، يحجب نصف وجهه كأنما يتحاشى، ينفض عنه، موجعاً في خزيٍ شكس، نظرتهما الطبيعية، كأنما يتوسلهما الامتناع للحظة عما هو موقنٌ بحتمية وقوعه، كأنما يقرّ لهما امتعاضه الطفولي على مقاطعتهما - مع أنَّ حتى في لحظة الانكشاف هذه ما كان ليُهزَم هزيمةً نكراء، بل عزم على التشبث سريعاً بشيءٍ من هذه العاطفة اللذيذة، هذه النشوة الرابسوديّة غير النقية التي تخزيه، وإن تبهجه - فجأة أدار لهما ظهره، وصفق بابه الخاص في وجهيهما؛ من ثم، ليلي بريسكو والسيد بانكس، وهما يتأملان بغير ارتياح السماء أعلاهما، لاحظا أن سرب الزرازير الذي هزمه جاسبر هزيمةً نكراء برصاص بندقيته قد عاد واستقر على قمم أشجار الدردار.

الفصل الخامس

«وحتى إن لم يكن الغد صافياً»، قالت السيدة رامزي، وهي ترفع عينيها ناظرةً نحو ويليام بانكس وليلي بريسكو ما أن مرَّا أمامها، «سيكون صافياً في يومٍ آخر. والآن»، أردفت، يجول في خلدها كيف أن فتنة ليلي تكمن في عينيها الصينيتين، المنحرفتين في بياض وجهها الصغير المتغضّن، فتنة لا تتجلى إلا في عين رجلٍ ذكي، «هلمَّ انهض، ودعني أقس ساقك»، إذ لعلهم سيذهبون إلى المنارة رغم كلّ شيء، وعليها أن تتأكد إن كان الجورب يحتاج إلى بوصة زيادة أو بوصتين.

مبتسمة، إذ راقت لها الفكرة، والتي لمعت للتوّ في خاطرها - على ويليام وليلي أن يتزوجا - تناولت الجورب المرقط، صنّارتا الحبك متصالبتان عند فوهته، وقاسته على ساق جيمس.

«عزيزي، اثبت في مكانك»، قالت له، إذ في غمرة غيرته، ممتعضاً من فكرة كونه حجر قياس لابن حارس المنارة الصغير، تململ جيمس متعمداً؛ وإن تململ، فكيف لها أن ترى، إن كان طويلاً زيادة، أو قصيراً زيادة؟ سألته.

رفعت رأسها - أيّ شيطانٍ تملكه، آخر عنقودها، أثير قلبها؟ - وأبصرت الغرفة، أبصرت الكراسي، ووعيت حالها الرهيب الرث. أحشاؤها، كما قال آندرو ذاك النهار، منتثرة على سائر الأرضية، غير أنَّ ما الفائدة، سألت نفسها، من شراء كراسٍ جديدة وتركها هنا طوال الشتاء حيث ستتلف لا محالة، مع وجود عجوز وحسب تعتني بالبيت، إذ حتماً ستتبلّل بقطرات الماء المتسربة؟ لا بأس، الإيجار سِنْتان ونصف بنس؛ الأطفال يعشقونه؛ وقد نفع زوجها وجوده على بعد ثلاثة آلاف، أو إن وجب عليها تحري الدقة، ثلاثمئة ميل عن مكتباته العامة ومحاضراته وحواريّيه؛ وفيه متسعٌ للزوار. قطع السجاد، سرر التخييم، أطياف الكراسي والطاولات المجنونة والتي انقضت حياة خدمتها في لندن - ها قد وجدت نفعاً لها هنا؛ مع صورةٍ أو صورتين، ومجموعة كتب. والكتب، تصورتها، لا تنفكّ تتوالد. وما حظيت قطّ بوقتٍ لقراءة أيٍّ منها. وأسفاه! حتى تلك الكتب الممهورة

بإهداء لها على يد الشاعر ذاته: «إلى من طلباتها أوامر تطاع» ...«إلى هيلين عصرنا السعيدة»...وكم مخزٍ لها أن تقول، إنّها ما قرأت قطّ أيّاً منها. كروم عن **العقل** وبيتس عن **العادات الهمجية في بولونيزيا** («عزيزي، اثبت مكانك»،) - ولا كتاب منها لها أن ترسله إلى المنارة. وفي مرحلة ما، توقعت، سيغدو البيت رثاً بالياً حدَّ أنّه يستلزم فعل شيء بشأنه. لو أنهم وحسب يتعلّمون مسح أقدامهم وألّا يُحضروا الشاطئ معهم - لكان تقدّماً يذكر. السلطعون، عليها السماح به، إذ إن رغب آندرو فعلاً بتشريحه، أو إن ظنّ جاسبر أنّ للمرء أن يطهو حساءً من الطحالب، فكيف لها أن تمنعه؛ وأشياء روز - الأصداف، القصب، الحجارة؛ فأطفالها موهوبون، جميعهم، كلّ بطريقته الخاصة. والنتيجة، تتأمل الحجرة متنهدة، من أرضيتها إلى سقفها، فيما تمسك بالجورب على ساق جيمس، إن متاع البيت قد تراكم عليه البلى فوق البلى صيفاً تلو صيف. السجادة بهتت؛ ورق الجدران يتدلى. وما كان سيخطر لك أن الورق يوماً كان موشّىً بالزهور. ويقيناً، طالما كلّ بابٍ في البيت ما برح مفتوحاً على الدوام، ولا صانع أقفال في أسكتلندا بأسرها بيده إصلاح رتاج، فالبلى محتوم. ما المغزى من طرح شالٍ أخضر من الكشمير على حافة إطار لوحة؟ ففي أسبوعين سيستحيل أخضرَ مائعاً كما حساء البازلاء. غير أنَّ الأبواب هي التي لا تنفكّ تزعجها؛ فكل بابٍ تركوه مفتوحاً. أصغت. باب حجرة الاستقبال مفتوح؛ باب الردهة مفتوح؛ وبدا لها أن أبواب حجر النوم مفتوحة هي الأخرى؛ وبالتأكيد النافذة المطلة على مبسط السلم مفتوحة، فهي بنفسها من فتحها. أن يُبقوا على النوافذ مفتوحة والأبواب مغلقة - طلبٌ على بساطته، أما لأحدٍ منهم أن يتذكّره؟ من عادتها ليلاً المضي نحو غرف الخادمات فتجدها خانقة محكمة الإغلاق كما الموقد، ما عدا غرفة ماري، الفتاة السويسرية، من تؤثر الحرمان من الاستحمام على الحرمان من الهواء النقي، عدا أن هنالك في موطنها، «الجبال جدّ جميلة». هكذا قالت الليلة الماضية فيما وقفت تتأمّل خارج النافذة بعينين دامعتين. «الجبال جدّ جميلة». فوالدها يصارع الموت هناك، والسيدة رامزي على علمٍ بذلك. سيترك أطفاله أيتاماً بلا أب. توبيخها إياها (هكذا تعدّين الفراش، هكذا تفتحين النافذة، بيدين تنغلقان وتنبسطان مثل يدي امرأة فرنسية) انطوى على نفسه في سكونٍ حولها، ما أن تحدثت الفتاة، مثلما الطير، بعد تحليقه في ضياء الشمس، ينطوي جناحاه عليه في سكون، زرقة ريشهِ تتبدّل من فولاذيةٍ زاهية إلى أرجوانيّة رقيقة. وقفت تسمعها في صمت إذ ما كان عساها أن تقول. يعاني من سرطانٍ في حنجرته. وما أن استعادت الذكرى - وقوفها هناك، كيف قالت الفتاة، «في موطني الجبال جدّ

جميلة»، وما من أمل، ما من أملٍ على الإطلاق، نوبة سخطٍ انتابتها، وفي نبرةٍ حادة، وبّخت جيمس قائلة:

«اثبت في مكانك. كفَّ عن إزعاجي»، وفوراً أدرك أن صرامتها حقيقية، فوقف مستقيم الساقين وأخذت المقاس.

الجورب كان قصيراً جداً بنصف بوصة على الأقل، مع وضعها في الاعتبار أن ابن سورلي الصغير أصغر حجماً من جيمس.

«قصيرٌ جداً»، قالت، «قصيرٌ قصيرٌ جداً».

لا أحد قطّ تبدّى عليه حزنٌ طاغٍ كهذا. أسودُ مرير، نصف غارق، في الظلمة، في شعاع الشمس المنحدر إلى الأعماق، ولربّما دمعةٌ تشكلت، دمعةٌ هوت؛ المياه المتخبطة يمنةً ويسرة تلقّفتها، وعمّها السكون. لا أحد قطّ تبدى عليه حزنٌ طاغٍ كهذا.

لكن أتُراها سيماء وجهها وحسب، لا أكثر ولا أقل؟ تساءل الناس. إذ ما الشيء الكامن وراء سيمائها - وراء جمالها وروعتها؟ أتُراه فجّر رأسه برصاصة، كذا تساءلوا، أتُراه مات الأسبوع السابق لزواجها - آخرون تكهّنوا، عشيقٌ سابق، من لربّما إشاعة وجوده ستصل أذن المرء؟ أو ليس هنالك أصلًا من شيء؟ لا شيء سوى جمال فريد لا يُضاهى وعاشت هي خلفه، وليس بيدها صنع شيءٍ كي تفسده؟ إذ لكان من السهل عليها أن تُفصح في لحظةٍ حميمية متى ما سردوا في وجودها قصص العشق العظيمة، خسران الحب، الطموح الهاوي، أنها هي أيضاً قد شعرت أو عرفت أو خبرت إحساساً كهذا، عدا أنها ما تكلمت قط. دوماً ما التزمت الصمت. هي عرفت حينها - عرفت دونما حاجة إلى أن يعلّمها أحد. إذ ببساطتها تعي جيداً ما يزيّفه الأذكياء. بفرادة عقلها تقع على قدمين ثابتتين، تحطّ في دقّة كما الطير، ما منح روحها ملكة الوقوع والانقضاض على الحقيقة التي تبهجها، تريح قلبها، وتؤازرها - زيفاً على الأرجح.

«لا تملك الطبيعة في يدها سوى القليل من الطين»، قال السيد بانكس مرةً، متأثراً جداً بصوتها على الهاتف، مع أن كلّ ما قالته أمرٌ يتعلق بقطار، «الذي قولبتك منه». رآها في نهاية الخط، إغريقية، زرقاء العينين، مستقيمة الأنف. كم بدا متناقضاً مع الواقع مهاتفة امرأة مثلها. بدا

وكأن آلهات الحسن الثلاث قد اجتمعن في مروج البَرْوق وتضافرن على نحت هذا الوجه. أجل، سيركب متن قطار الساعة العاشرة والنصف في أوستون.

(«إلا أنها غافلة عن جمالها غفلة الطفل»، قال السيد بانكس، يقفل السماعة، قاطعاً الغرفة كي يرى مدى التقدم الذي حققه العمال في بناء الفندق الذي يشيّدونه خلف بيته. ووقف يتفكّر في السيدة رامزي فيما يتأمّل ذاك الاضطراب بين الجدران غير المنتهية. وخطر له، كيف أن دائماً، ما يطرأ شيء يتنافر مع تناغم تقاسيم وجهها. ترتدي بسرعة قبّعة صيادي الغزلان؛ تهرع جارية عبر المرجة في جرموقها كي تنتشل طفلاً من الأذى. فإن كان جمالها وحسب ما يتفكر به المرء، فعليه أن يتذكر دوماً ذاك الشيء المرتعش، ذاك الشيء الحي (يشاهدهم يحملون أحجار القرميد أعلى عارضةٍ خشبية صغيرة)، ويدمجه في اللوحة؛ أما إن كان المرء يتفكّر فيها كونها امرأة وحسب، فعليه أن يضفي عليها خصوصية عجائبية - لا يروق لها إبداء الإعجاب بها - أو يفترض فيها رغبةً مستترة إلى التجرد عن هيئتها الملكية وكأنما جمالها وكل ما يقوله الرجال عن الجمال يضجرها، وجلّ ما تريده أن تكون مثلها مثل بقية الناس، عادية. لا يعرف. لا يعرف. لا بُدّ أن يمضي الآن إلى عمله).

فيما جلست تحبك جوربها البني مُحمرّ الزَّغِب، خطٌّ رأسها الجانبيّ يحده بغرابةٍ الإطار الذهبي، الشال الأخضر الذي رمت به على حافة إطار اللوحة، ورائعة مايكل آنجلو الموثّقة، لطّفت السيدة رامزي الخشونة التي انتابت سلوكها قبل لحظة، رفعت رأسه، قبّلت جبين ابنها الصغير، وقالت:

«دعنا نعثر على صورةٍ أخرى نقصّها».

الفصل السادس

لكن ما الذي جرى؟

أحدهم قد تخبّط، اقترف خطأً جسيما.

جافلة عن تأملاتها، منحت معنىً لكلماتٍ عدَّتها في ذهنها بلا معنى لأمدٍ طويل. «أحدهم قد تخبط، اقترف خطأً جسيما» - تحدّق في زوجها بعينيها الحاسرتين، من يدنو منها الآن على نحوٍ مخيف، تمعّن فيه جيداً إلى أن كشف لها قربه (الأنشودة والمعنى تزاوجا في ذهنها) أن خطباً فعلاً قد وقع، أحدهم حقاً قد اقترف خطأً جسيما. غير أنها ما كانت لتعرف أيّ خطأ هو ذاك، حتى وإن توقّفت حياتها على معرفته.

ارتجف؛ ارتعش. كلُّ خيلائه، كلُّ زهوه في عظمته، سنابك خيله تدوّي كما الصواعق، يتقدم رجاله كما الصقر الشرس عبر وادي الموت، كله تشظى، كله تدمر. تعصف فينا قذائف ورصاص، ببراعة وبسالة عدونا، بلمح البرق قطعنا وادي الموت، المدافع ترشق وترعد - مباشرة إلى ليلي بريسكو وويليام بانكس. ارتجف؛ ارتعش.

ما كانت أبداً لتحادثه عمّا أصابه، مدركةً، من العلامات المألوفة، يشيح بعينيه، يستجمع نفسه بشكلٍ غريب، كأنما يدثّر نفسه لاحتياجه إلى خصوصيّة يستعيد فيها توازنه، إنه غاضبٌ ومكروب. أخذت تمسّد رأس جيمس؛ تُسقط عليه إحساسها تجاه زوجها، وهكذا، فيما جلست تشاهده يلون بالطبشور الأصفر القميص الأبيض لأحد السادة في كتالوج متاجر آرمي آند نيفي، قالت في نفسها كم سيبهجها إن استحال ابنها يوماً رساماً عظيماً؛ ولم لا؟ فجبينه جميلٌ ومهيب. من ثم، رفعت عينيها، فيما زوجها يتجاوزها مرة أخرى، واطمأن قلبها إلى أن الخراب قد حُجِب؛ الحياة المنزلية انتصرت؛ الروتين دندن ترنيمته المريحة للنفس، وبذا لدى توقفه عمداً، بدلاً عن الاستدارة من جديد، في نزوة، مال مازحاً عبر النافذة كيما يدغدغ ربلة ساق جيمس العارية بغُصينٍ ما، وعاتبته

بنبرة تشوبها السخرية على إعدامه «ذاك الشاب المسكين»، تشارلز تانسلي. كان على تانسلي أن يدخل ويكتب رسالته، أجابها.

«يوماً ما سيحتاج جيمس إلى كتابة رسالته»، أردف متهكماً، ينقره بالغُصين.

كارهاً أباه، دفع جيمس بالغصين المدغدغ بعيداً، والذي على نحوٍ يتفرد به، في مزيج من الصرامة والدعابة، مشّق به أبوه ساق أصغر أبنائه.

تحاول الانتهاء من تلك الجوارب المتعِبة كي تُرسلها الغد إلى ابن سورلي الصغير، قالت السيدة رامزي.

ليس هناك من أوهى احتمال لذهابهم الغد إلى المنارة، قاطعها السيد رامزي وهو غضبان.

وكيف له أن يتيقَّن؟ سألته. فمن عادة الريح أن تغير اتجاهها.

اللامعقولية الاستثنائية لملاحظتها هذه، حماقة عقول النسوة، دوماً ما تغضبه. قد قاد الرجال عبر وادي الموت، تشظّى وارتجف؛ والآن، تأتي هي وتحلّق في وجه الحقائق، تغرس أملاً ما منه أمل في أطفاله، أي بالأحرى، تنطق كذباً. ضرب بقدمه المرقاة الحجرية. «اللعنة عليك»، لكن ما الذي قالته حقاً؟ أنَّ بكل بساطة الغد قد يغدو صافياً. وقد يغدو.

ليس مع هبوط درجة البارومتر وهبوب الريح من الغرب.

سعيه وراء الحقيقة بهذا الافتقار المدهش إلى مراعاة مشاعر الآخرين، تمزيق الأحجبة الرقيقة للتصرف الحضاري بكل هذا التلذذ المستهتر، بكل قسوة، رأت فيه انتهاكاً صارخاً لآداب السلوك الإنساني حدَّ أنها، دون أن تبادله الرد، مشدوهة عمياء، أطرقت برأسها وكأنما تدع رَشْق بَرَدٍ خشن، بلالة ماءٍ قذر، يلطّخها دون صدٍّ منها. ما من شيء لديها تقوله.

وقف جانبها في صمت. في تواضعٍ جم، بعد برهةٍ طويلة، قال لها إنه لن يمانع الذهاب إلى خفر الساحل وسؤالهم إن أرادت.

لا أحد في الدنيا بأسرها تكنُّ له في قلبها التوقير الذي تكنُّه إلى زوجها.

هي مستعدة لأن تأخذ بكلمته، قالت له. كلّ ما في الأمر، أنَّ حينها لن يكون من داعٍ إلى تقطيع الشطائر. الكل يأتي إليها، بطبيعة الحال، كونها امرأة، على مرِّ اليوم، حاملين إليها أثقالهم؛ أحدهم يريد هذا، وآخرُ يريد ذاك؛ الأطفال يكبرون؛ وأحياناً يساورها الشعور بأنها ليست بأكثر من اسفنجة منقوعة بالعواطف الإنسانية. من ثم زجرها، اللعنة عليك. قال إنها ستمطر لا محالة. ثم قال، إنها لن تمطر؛ وفوراً جنةٌ من الأمان شرَّعت لها أبوابها. لا أحد في الدنيا تكن له في قلبها توقيراً أعظم. هي حتى ليست جيدة كفاية كي تحظى بشرف ربط خيوط حذائه.

الخجل كان يعتريه أصلاً جراء وقاحته، جراء إيماءة يديه لدى شنه الهجوم على رأس قواته، لذا آثر السيد رامزي مرتبكاً أن ينخس ساقيْ ابنه العاريتين مرةً أخرى، من ثم، وكأنما تلقَّى منها الإذن، بحركة لطالما ذكرت زوجته على نحوٍ غريب بأسد البحر العظيم في حديقة الحيوان يتقلَّب للوراء ما أن يبتلع السمكة ويصفق مبتعداً فيموج الماء في الخزان من جهةٍ إلى جهة، تراجع وغاص في نسيم المساء، المائل أصلاً إلى العتمة، نسيمٌ يسلب من الأوراق والوشيع جوهرها، عدا أنَّ في المقابل، يبعث في الورد والقرنفل رونقاً لا يحظيان به في ضياء النهار.

«أحدهم قد تخبّط، اقترف خطأً جسيما»، قالها مرةً أخرى، بخطىً واسعة يقطع المصطبة، جيئةً وذهاب.

لكن عجباً! كيف لنبرته أن تغيرت! حاله باتت أشبه بالوقواق؛ «والوقواق ينشّز في حزيران»؛ وكأنما ما انفكّ يحاول، المرة تلو المرة، يجرب باحثاً، عن عبارة أخرى لمزاجٍ جديد، فما وجد في يديه سوى هذه، فاستخدمها، على حالها المشروخة. عدا أنها بدت سخيفة - «أحدهم قد تخبط، اقترف خطأً جسيما» - هكذا قالها، وكأنما يطرح سؤالاً، بلا اقتناع، في صوتٍ رخيم. وما كان بيد السيدة رامزي أن تمنع نفسها عن الابتسام، وعاجلاً، بلا ريب، فيما يمشي جيئةً وذهاب، دندنها، تخلى عنها، ولاذ بالصمت.

لقد بات في أمان، خصوصيته استعادها. توقف كي يشعل غليونه، ألقى نظرة واحدة على زوجته وابنه عبر النافذة، استرقها كمن يرفع عينيه عن صفحةٍ يقرؤها في قطارٍ سريع فيبصر مزرعة، شجرة، أكواخ متراصّة تتبدّى كما الصورة، فتعزّز شيئاً قرأه للتو على الصفحة التي رفع عينيه عنها وها قد عاد إليها، مُحصَّناً، مشبعاً، إذ حتى إن لم يميز زوجته عن ابنه، فإن رؤيته إياهما

قد حصّنته وأشبعته وكرَّست جهده في الوصول إلى إدراكٍ جليّ للمشكلة التي تشغل الآن طاقات عقله المذهل.

وصدقاً لهو عقلٌ مذهل. فإن كان الفكر لوحة مفاتيح بيانو، مقسّمة إلى نغمات عديدة، أو أبجديّة مرتبة على متوالية من ستة وعشرين حرفاً، على هذا فعقله المذهل ما كان ليواجه أيّة صعوبة في قطعها حرفاً حرفاً، بدقّة ويقين، إلى أن يصل، فلنقل، الحرف «Q». هو بلغ حرف «Q». وقلة قليلة من الناس في سائر إنجلترا قد بلغت في حياتها حرف «Q». هنا، يتريث للحظة عند جرّة الرماد الحجرية التي تحتضن زهور الخبّيزة، ورأى، لكن من بعيد، بعيدٍ جداً، كما الأطفال لدى التقاطهم الأصداف، براءتهم إلهية، مأخوذون بالتوافه عند أقدامهم فيما هم عزَّل غافلون عن هلاكٍ هو يراه، زوجتَه وابنَه، معاً عند النافذة. هما في حاجة إلى حمايته؛ وهو منحهما إياها. لكن بعد «Q»؟ ما التالي؟ من بعد «Q» هنالك عدة أحرف آخرها حرفٌ نادراً ما يتبدّى للعين الفانية، غير أنّه يُومض أحمرَ في الأفق. «Z» لا يبلغه سوى رجل واحد في كلّ جيل. ومع ذلك، إن بلغ «R» سيكون إنجازاً عظيماً. على الأقل هو ههنا عند «Q». ضرب بحافره الأرض عند «Q». «Q» مضمون. وبيده أن يبرهن عن «Q». فإن «Q» فليكن «Q» - «R» -. هنا أفرغ غليونه، بنقرتين أو ثلاث تردّد صداها من على مسكة الجرة، وواصل. «من ثم «R» ...» استجمع رباطة جأشه. استمسك بنفسه.

الصفات التي من شأنها أن تنقذ طاقم سفينة معرضة للخطر في بحرٍ هائج مضطرب لا شيء لديهم سوى ست قطع بسكويت وقنينة ماء - الجَلَد والعدل، البصيرة، التفاني، المهارة، ها قد استحضرها كلها وهبَّت إلى نجدته. «R» إذن - وما عساه يكون «R»؟

مصراعٌ، أشبه بجفن عظاءة، خفق أمام نظرته الثاقبة وحجب عن عينيه حرف «R». وفي تلك اللمحة من الظلمة سمع الناس يقولون - كم هو فاشل - أنَّ «R» خارج نطاق قدرته. أبداً لن يبلغ «R». هلمَّ إلى «R»، مرةً أخرى. «R» -

الصفات التي من شأنها في بعثة استكشافية يكتنفها البؤس والهجران، على مدّ القفر الجليدي القطبي، أن تصيّره القائد، الدليل، المستشار، مَنْ مزاجه، لا متفائل ولا قانط، بل يقيّم في اتزان ورباطة جأش ما الذي ينتظره ويواجهه، ها هي هبَّت إلى نجدته مرةً أخرى. «R» -

عين العظاءة خفقت مرةً أخرى. العروق على جبينه نتأت. زهور الخبّيزة في جرة الرماد سطعت على نحوٍ مروع، وكان له أن يرى، بارزاً بين أوراقها، رغم تمنّيه أن لا يرى، ذاك التمييز

العتيق، الجليّ، بين طبقتين من الرجال؛ من جهة، هناك المواظبون أصحاب القوى الخارقة، الكادحون المثابرون، من يسمعّون الأبجدية بأسرها مرتبة، بأحرفها الستّة والعشرين، من البداية حتى النهاية؛ وفي الجهة الأخرى هناك الموهوبون، المُلهَمون، من بأعجوبة، يكوّمون الأحرف كلها في لمحة - ديدن العباقرة. هو ليس بعبقري؛ ولا يوماً ادّعى ذلك: عدا أنه امتلك، أو لربّما امتلك، القدرة على تسميع كلّ حرفٍ من حروف الأبجدية من «A» إلى «Z» بترتيبها الصحيح. أما الآن، فهو عالقٌ عند «Q». هلمَّ، إذن، إلى «R».

المشاعر التي ما كانت لتجلب الخزي على قائدٍ بات يدرك، فيما الثلج ينهمر وقمم الجبال يغمرها الضباب، أنْ لا بُدّ له أن يستلقي ويموت قبل بزوغ الصباح، انسلَّت إليه، سلبت اللون من عينيه، أضفت على ملامحه، في ظرف الدقيقتين التي قطعهما يستدير عائداً على المصطبة، الابيضاض الشاحب للشيخوخة الذاوية. ومع ذلك، لن يموت مستلقياً؛ سيجد حافة صخرة، وهناك، عيناه في وجه العاصفة، ساعياً حتى النهاية إلى اختراق الظلمة، سيموت واقفاً. أبداً لن يبلغ «R».

جامداً وقف هناك، عند جرّة الرماد، زهور الخبّيزة تتدلى أعلاها. كم من رجلٍ من ألف مليون رجل، سأل نفسه، قد بلغ «Z»؟ يقيناً قائد السَريّة الفدائية قد يسأل نفسه ذلك، ويجيب نفسه، دون أن يخون ثقة البعثة خلفه، «على الأرجح واحد». رجلٌ في كلّ جيل. أفَيقع اللوم عليه إن لم يكن ذاك الرجل؟ علماً أنه قد بذل قصارى جهده يكدح بإخلاص، أعطى أفضل ما لديه، حتى ما عاد لديه من شيءٍ يعطيه؟ وحتّام سيبقى صيته ذائعاً؟ إذ يحق حتى للبطل لحظة موته أن يفكر قبل تسليمه الروح كيف سيروي الرجال سيرته من بعده. لربما سيظل صيتُه ذائعاً لألفي عام. وما قيمة الألفي عام؟ (سأل السيد رامزي متهكماً، يحدق في الوشيع.) حقاً، ما قيمته، إن كنت واقفاً على قمّة جبل، وتنظر أسفلك، ينبسط تحت ناظريك هذا القفر المديد من ركام العصور؟ الحجر عينه الذي يركله امرؤ بجزمته سيعيش عمراً يفوق شهرة شكسبير. أما هو فنوره الصغير سيضيء، لعام أو عامين، ولن يكون مشعّاً جداً، من ثم سيدمج نوره في نورٍ أكبر، وذاك النور في نورٍ أكبر وأكبر. (نظر إلى الوشيع، يتأمل غصيناته المتحابكة.) فمن عساه إذن يلوم قائد السريّة الفدائية الذي رغم كلّ شيء تسلّق عالياً بما يكفي لرؤية القفر المديد من الأعوام وهلاك النجوم، إنْ، قبل أن يأتيه الموت ويجمد أطرافه فتتيبّس عاجزة عن أي حركة، رفع واعياً أصابعه الخدرة إلى حاجبه، عرَّض منكبيه، حتى إذا ما عثرت عليه فرقة البحث وجدته ميتاً يؤدي خدمته، الهيئة المثالية للجندي؟ السيد رامزي عرَّض منكبيه ووقف مستقيم الظهر عند جرة الرماد.

من عساه يلومه، إنْ للحظة، وقف يستغرق في تأمّلاته عن الشهرة، فرق البحث، ركام الحجارة التي سينصبها مريدوه معلماً على عظامه؟ وأخيراً، من عساه يلوم قائد الحملة المحتومة بالهلاك، إن، بعد أن انطلق في تلك المغامرة نحو المنتهى، مستنفداً كلّ قواه حتى آخر ذرة، استغرق نائماً غير مبالٍ إن استيقظ أم لا، فإذ يدرك إثر الوخز في أصابع قدميه أنه سيعيش، ولا يمانع تماماً أن يعيش، غير أنَّ كلَّ ما بات يطلبه الآن هو العطف، الويسكي، وشخصاً يروي عليه اللحظة قصة معاناته؟ من عساه يلومه؟ من عساه لن يبتهج سراً برؤية البطل عائداً، ينزع عنه درعه، ويتوقف عند النافذة يتأمل زوجته وابنه، من في الوهلة الأولى، كانا بعيدَين جداً، والآن باتا أقرب وأقرب، إلى أن غدا بمقدوره تمييز الشفة عن الكتاب عن الرأس، لكن لمّا يزل مرآهما فاتناً غير مألوف إثر حدة عزلته وقفر العصور وهلاك النجوم، وأخيراً، يدس غليونه في جيبه، يحني رأسه العظيم أمامها - من عساه يلومه إن انحنى توقيراً إلى جمال العالم؟

الفصل السابع

غير أنَّ ابنه يكرهه. كرهه على قدومه هكذا إليهما، على توقّفه والنظر إليهما من علٍ؛ كرهه على مقاطعته إياهما؛ كرهه على سموّ إيماءاته وغلوّها؛ على عظمة رأسه؛ على دقّته وأنانيته (إذ ها هو واقفٌ هناك، آمراً إياهم بالاهتمام به) لكن فوق كلّ هذا وذاك هو كره الغصين وسقسقة عواطف أبيه التي ما انفكّت تهتزّ من حولهما، تعكّر صفو البساطة المثالية والحسّ السليم لعلاقته مع أمه. بتحديقه في الصفحة، أمل أن يمضي أبوه قُدماً؛ بتأشيره على كلمة بإصبعه أمل أن يستعيد انتباه أمه، والذي، أدرك حانقاً، قد اضطرب لحظة توقف أبيه. لكن، لا. لا شيء سيدفع السيد رامزي إلى المضي قُدماً. هنالك وقف، مطالباً بالعطف.

السيدة رامزي، جالسة مرتخية، تطوّق ابنها بين ذراعيها، استجمعت نفسها، وفي نصف استدارة، بدت وكأنما تبذل جهداً في نهوضها، وفي ذات الآن كأنما مطرٌ من الطاقة ينصب منها، ينهمر رذاذاً، فتبدَّت نابضة بالحياة مفعمة بالحيوية، وكأنما كلّ طاقاتها قد انصهرت إلى قوّة واحدة، مشتعلة ومضيئة (رغم جلوسها في هدوء، تتناول من جديد جوربها) وفي هذه الأرض الخصبة الشهية، في هذا النبع المتدفق من رذاذ الحياة، العقم الذكوري المحتوم يغمد نفسه، مثل منقارٍ من نحاس، أجرد مجدباً. جلّ ما يريد هو العطف. إنه فاشل، قال لها. السيدة رامزي رفعت صنّارتيها. والسيد رامزي كرّر من جديد، ما رفع عينيه عن وجهها للحظة، أنه فاشل. وردت إليه كلماته. «تشارلز تانسلي ...» قالت له. لكن لا بُدَّ أن يحصل منها على أكثر من هذا. جلّ ما يريد هو العطف، أن تطمئنه، أولاً، إلى حقيقة عبقريته، من ثم تعود به إلى دائرة الحياة، دافئ السريرة راضياً، حواسه تُبعث فيه من جديد، عقمه يستحيل خصوبة، وكل الحجرات في البيت تعود ملأى بالحياة - حجرة الاستقبال؛ ومن خلف حجرة الاستقبال المطبخ؛ ومن أعلى المطبخ حجر النوم؛ ومن ورائها حجر الأطفال؛ لا بُدّ أن تؤثّث، لا بُدّ أن تفيض كلها بالحياة.

تشارلز تانسلي يرى فيه أعظم ميتافيزيقيّي عصره، كذا قالت. لكن لا بُدَّ أن يحصل منها على أكثر من هذا. لا بُدَّ أن يحصل منها على العطف. لا بُدّ أن تطمئنه إلى أنه هو الآخر يعيش في قلب الحياة؛ أن ثمة من يحتاج إليه؛ ليس هنا وحسب، بل العالم بأسره. ترفع صنارتيها، واثقة، مستقيمة الظهر، هي من خلقت حجرة الاستقبال والمطبخ، هي من أضفت عليهما هذا البريق؛ حثّته على الاسترخاء، التجوّل في الأنحاء، وقضاء وقتٍ ممتع. ضحكت. حبكت. واقفاً بين ركبتيها، جسئاً متيبّساً، استشعر جيمس كلَّ قواها تندلع متفجرة كيما تسقي وتروي ظمأ منقار النحاس، سيف الذكر العقيم المعقوف، والذي ما انفكّ يسدد الضربة تلو الأخرى، بلا رحمة، مطالباً بالعطف.

هو فاشل، كرّر عليها. حسنٌ إذن، تأمّل حواليك، استشعر ما تراه. ترفع صنارتيها، تنظر حواليها، خارج النافذة، على مدّ الحجرة، إلى جيمس ذاته، هي طمأنته، بلا أيّة ذرة شك، بضحكتها، برباطة جأشها، بكفاءتها (مثلما تحمل حاضنة سراجاً عبر الغرفة المظلمة فيطمئن قلب الطفل الشَّكِسْ) إلى أن ما يراه حقيقي؛ البيت عامر، الحديقة غنّاء. إنْ وضَع إيمانه المطلق فيها، فلا شيء سيؤذيه؛ مهما طمر نفسه عميقاً ومهما تسلق أعالي الجبال، ولا للحظة سيجد نفسه بدونها. لذا متباهية بقدرتها على الإحاطة والحماية، بالكاد تبقت قشرةٌ منها تتعرف بها على نفسها؛ كلها تبددت؛ وجيمس، فيما يقف متيبساً بين ركبتيها، شعر بها تُبعَث شجرة فاكهة رفيفة وردية الأزهار غصونها راقصة حيث ما انفكّ منقار النحاس، سيف أبيه المعقوف، الرجل المغرور، يغمد ويضرب، مطالباً بالعطف.

مُفعماً بفيض كلماتها، مثل طفلٍ نعس ونام راضياً، قال لها، أخيراً، ينظر إليها، في تواضع، ممتناً، متجدداً، الروح بعثت فيه، بأنه سيأخذ جولة أخرى؛ سيرقب الأطفال يلعبون الكريكت. وهمَّ خارجاً.

فوراً، بدت السيدة رامزي وكأنما تنطوي على نفسها، بتلة تنغلق على بتلة، كينونتها بأكملها انهارت على نفسها في إعياءٍ شديد، ما تبقى لها من قوة إلا ما يكفي لتحريك إصبعها، في تسليمٍ مرهف إلى الإرهاق، على صفحة من حكايات غريم الخيالية، فيما يخفق فيها، مثل نبض ينبوعٍ اتسع ملء عرضه وها هو برقَّة يكفُّ عن الخفقان، نشوة الخلق الناجح.

كل خفقة نبضٍ، فيما أخذ يسير مبتعداً، بدت تطوّقها هي وزوجها، تمنح لكل منهما السلوان، مثل نغمتين مختلفتين، نغمة عالية، نغمة منخفضة، ما أن تدقّا معاً، تبدوا وكأنما إحداهما تواسي

الأخرى. ومع ذلك، ما أن يموت الصدى، وتعود إلى الحكاية الخيالية، لا تشعر السيدة رامزي وحسب بالإعياء الجسدي (فيما بعد، ليس اللحظة، فهي دوماً ما تشعر بالإرهاق) بل كذلك بإحساسٍ كريه يشوب إعياءها الجسدي ينبعث عن مصدرٍ آخر. ليس أنها، تقرأ بصوتٍ عال حكاية زوجة السمَّاك، أدركت بدقَّة ماهية الإحساس ومن أين انبعث؛ أو حتى سمحت لنفسها بأن تعبّر بالكلمات عن استيائها ما أن أدركت، لدى قلبها الصفحة وتوقفها عن الكلام وسماعها الصوت الكئيب، المشؤوم، لسقوط موجة، كيف أن إحساسها قد انبعث عن هذا: أنه لم يرق لها، ولا للحظة، رؤية نفسها في حالٍ أفضل من زوجها؛ والأنكى، أنها لم تُطِق عدم تأكّدها، لدى حديثها معه، من حقيقة ما تقول. احتياج الجامعات والناس له، المحاضرات والكتب وما تحمله من أهمية قصوى - أمورٌ لا تملك ذرة شك في أيّ منها؛ عدا أنَّ الخطب يكمن في علاقتهما، في مجيئه هكذا إليها، علناً، حيث لأيّ عينٍ قد تراه، هذا ما أقلقها؛ إذ وقتئذ سيقول الناس أنه يعتمد عليها، بينما عليهم أن يدركوا أن من بين الاثنين هو الأهم بكثير بكثير، وما تمنحه هي إلى العالم، متى ما قورن بما يمنحه هو، تافه ليس بذي أهمية. لكن أيضاً، هناك الخطب الآخر - عدم قدرتها على الإفصاح له عن الحقيقة، مثلاً، عن كونها خائفة، بشأن سقف الدفيئة، والخمسين جنيهاً كلفة تصليحه؛ بشأن كتبه، عن خشيتها أن يخمن، ما خمنته هي، أن كتابه الأخير ليس بأفضل كتبه (هذا ما استنبطته من ويليام بانكس)؛ عدا إخفاءها الأمور اليومية الصغيرة، وإدراك الأطفال لما يجري، مما يلقي حملاً ثقيلاً على عاتقهم - كلّ هذا أنقص من البهجة العارمة، البهجة الصافية، المتأتّية عن رنة النغمتين تدقّان معاً، فهمدت تفهة موحشة على أذنها.

ظلٌّ اعتلى الصفحة؛ رفعت عينيها. كان أغسطس كارمايكل يدلف خارجاً، الآن، في ذات اللحظة التي ينتابها فيها الألم على استذكارها النقصان في العلاقات الإنسانية، أن حتى العلاقة المثالية لا بُدّ وأن تشوبها شائبة، ألمها على عدم احتمالها تمحيصها علاقتهما، بين حبها لزوجها، وميلها الفطري للحقيقة؛ الألم من شعورها بأنها محكومٌ عليها بانعدام القيمة، بتلك الأكاذيب تعوقها وتحبسها في وظيفتها الملائمة، بتلك المبالغات، - في تلك اللحظة بالذات من الاهتياج حدَّ شعورها بالخسة في نشوة يقظتها، آنئذ دلف السيد كارمايكل مارّاً بها، في خفيه الأصفرين، وإذ شيطانٌ يتملكها يوسوس إليها أن من الضروري أن تنادي عليه، ما أن مرَّ بها:

«ألا تتفضّل داخلاً سيد كارمايكل؟»

الفصل الثامن

ما نطق بكلمة. فقد تعاطى الأفيون. الأطفال ذكروا بأنه قد لطّخ لحيته ببقعة صفراء منه. على الأرجح. ما يبدو جلياً لها أن ذاك الرجل المسكين رجلٌ تعس، كل عامٍ يزورهم لأنهم ملاذه؛ ومع ذلك فكل عام يساورها ذات الإحساس بشأنه؛ أنه لا يثق بها. سألَته، «أنا ذاهبة إلى البلدة. أتود مني إحضار طوابع، أوراق، تبغ؟» وشعرت به يجفل على صوتها. هو لا يثق بها. صنيعة زوجته. تذكرت ظلم زوجته الجائر عليه، كيف جمدت هناك في مكانها كما الحجر الصلب، في تلك الحجرة الصغيرة التعسة في سانت جونزوود، حين رأت بأمّ عينها تلك المرأة البغيضة تطرده خارج منزله. كان رثّاً أشعث؛ ما انفكّ يوقع الأشياء على معطفه؛ أظهر تعباً وضجراً لا يتبدى إلا عن شيخٍ مسن لا شيء له في هذه الدنيا يفعله؛ وهي طردته خارج الحجرة. قالت له، في أسلوبها البغيض، «الآن، السيدة رامزي وأنا نودّ الحديث معاً في موضوعٍ صغير»، وكان للسيدة رامزي أن ترى، يتجلى واضحاً أمام عينيها، بؤس حياته اللانهائي. أتراه كان يملك مالاً كافياً لشراء تبغ؟ هل كان عليه أن يطلب منها؟ خمسة شلنات؟ ثمانية عشر بنساً؟ آه، لم تُطق التفكير بالمعاناة المذلة التي عرضته لها. ودائماً حتى في هذه اللحظة (لماذا، ما كان بيدها أن تخمن، سوى أن الأمر ولا بُدّ صنيعة زوجته) ما انفكّ ينكمش منها. ما تكلم معها قطّ بأي شيء. لكن ما عساها أن تفعل أكثر؟ الحجرة المشمسة ومنحته إياها. الأطفال مهذبون وطيبون معه. ما أظهرت يوماً تبرّمها من وجوده. وصدقاً بذلت كلّ ما بوسعها كي تكون ودودة. هل تريد طوابع، هل تريد تبغاً؟ هاك كتاباً قد يروق لك وهكذا. وفوق كل هذا ـ كل هذا (وهنا بلا وعيٍ منها استجمعت نفسها، صورة جسدها، وإذا بجمالها الفاتن، الذي نادراً جداً ما تعيه، يتجلى لها) فوق كل هذا، هي في العادة لا تواجه أيّة صعوبة تُذكر في نيل إعجاب الناس؛ مثلاً، جورج مانِنغ؛ السيد والاس؛ على شهرتهما، فالواحد منهما يقبل عليها في المساء، بهدوء، ويحادثها على انفراد أمام نار موقدها. صابرةً احتملتها، وما كان بوسعها أن تتغافل عنها، شعلةُ جمالها؛ تحملها منتصبةً لدى دخولها أي حجرة؛ ومهما فعلت، مهما حجبتها، مهما تقلصت إثر رتابة فرض حملها إياها، فجمالها متجلٍ. لقيت الإعجاب. لقيت الحب. دخلت غرفاً حيث المعزّون

جالسون. أعينهم تفيض دمعاً في حضرتها. رجالٌ، وحتى نساء، تخلوا عن الطبيعة التعددية للأمور، ومعها سمحوا لأنفسهم اعتناق البساطة المريحة. انكماشه في حضرتها جرحها. آلمها. عدا أنه ليس بالألم النقي، ليس بالألم القويم. وهذا ما كرهته، أن يعتريها هذا الألم الآن وهي مستاءة من زوجها؛ أن يساورها الانطباع ما أن دلف السيد كارمايكل مارّاً بها، يومئ وحسب ردّاً على دعوتها، مع كتابٍ أسفل ذراعه، في خفيه الأصفرين، أن نيتها مشكوكٌ فيها؛ أن رغبتها العارمة في العطاء، في مدّ يد العون، ما هو إلا خيلاء. إذ أليس في تمنيها الفطري مدّ يد العون، مدّ يد العطاء، إشباعٌ لحاجةٍ في نفسها، كيما يقول الناس عنها، «آه السيدة رامزي! العزيزة السيدة رامزي ...بالطبع السيدة رامزي!» فيحتاجونها ويطلبون حضورها وتنال إعجابهم جميعاً؟ أليست هذه رغبتها السرية، وبذا متى ما انكمش السيد كارمايكل مبتعداً عنها، كما فعل اللحظة، ماضياً نحو زاوية ما ينظّم مُطرَّزات[5] لا حصر لها، فهي لا تشعر وحسب بغريزتها تُصدّ وتُزجر، بل تغدو واعية إلى البضعة فيها المثيرة للشفقة، إلى العلاقات الإنسانية، وإلى أيّ حدٍّ هي شائبة، حقيرة، وفي أفضل حالاتها، تنصب في حب الذات. رثةً مرهقة، ومرآها على الأرجح (وجنتاها غائرتان، شعرها أشيب) ما عاد يملأ عيني الرائي بهجة، خيرٌ لها أن تكرّس عقلها إلى قراءة حكاية السمّاك وزوجته وبذا تُهدئ من روع تلك الصرّة من المشاعر المرهفة (فلا أحد من أطفالها حساسٌ مثله)، ابنها جيمس.

«قلبُ الرجل بات مثقلاً بالهموم»، قرأت بصوتٍ عالٍ، وما كان ليذهب. إذ قال في نفسه، «سيكون من الخطأ الذهاب» ومع ذلك ذهب. وحين وصل إلى البحر رآه أرجوانياً وأزرقَ قاتماً، رمادياً وكثيفاً، ما عاد الأخضر الزاهي والأصفر، عدا أنه بقي على سكونه. وقف هناك وقال..»

لتمنت السيدة رامزي لو أن زوجها لم يختر هذه اللحظة كي يتوقف. لماذا لم يذهب كما قال إلى مشاهدة الأطفال يلعبون الكريكت؟ عدا أنه ما نطق بكلمة؛ تأمّل للحظة؛ أومأ موافقاً؛ ومن ثم مضى. انسل، يبصر أمامه ذاك الوشيع الذي مرةً تلو المرة يكمل دائرة الوقفة التأملية، يمنح معنىً لاستنتاج، مُبصراً زوجته وطفله، مبصراً مرةً أخرى جِرار الرماد الحاضنة لزهور الخبّيزة التي لطالما زينت بأثرها الأحمر مسارات أفكاره، تَحْمِلُها، مكتوبةً على أوراقها، وكأنما الأوراق قصاصات جريدة يخربش عليها أحدهم ملاحظاته في عجلة قراءته - مبصراً كلّ هذا، انسل، بانسيابية، إلى تساؤلٍ تأمّلي استلهمه من مقالٍ قرأه على صحيفة التايمز عن عدد الأميركيين الذين يزورون بيت شكسبير كل عام. لو ما كان من وجودٍ لشكسبير، سأل، أكان العالم سيختلف عما هو عليه اليوم؟ هل يا ترى تقدّم الحضارة الإنسانية يعتمد على الرجال العظماء؟ هل نصيب الإنسان

العادي من الحياة أفضل حالاً اليوم من نصيبه أيام فرعون؟ وعلى أيّة حال، هل نصيب الإنسان العادي، هو المعيار الذي نحكم به على تقدم ركب الحضارة؟ على الأرجح لا. إذ لربما أنّ الخير الأعظم يتطلب وجود طبقة العبيد. عامل المصعد في محطة الأنفاق ضرورةٌ أبدية. الفكرة لم يستسغها. رفع رأسه فجأة. كي يتفاداها، عليه أن يجد أولاً طريقةً ينتقص فيها من غلبة الفنون والآداب. سيقيم جدليته على أن العالم موجودٌ لأجل الإنسان العادي؛ وأن الفنون والآداب ما هي إلا زينة مفروضة على ظاهر الحياة الإنسانية؛ ولا تعبر حقيقةً عنها. ولا ضرورة حتى من وجود شكسبير. غافلاً إلى السبب وراء هذه الرغبة التي اعترته بالحط من قدر شكسبير بالذات ونجدة ذاك الرجل الواقف على مدّ الأبدية عند باب المصعد، انتزع ورقة من الوشيع. كلّ هذه الأفكار سيقدّمها في طبق إلى الشباب اليافعين في كارديف الشهر القادم؛ فهنا، على مصطبته هذه، فما من شيءٍ يفعله سوى العلف والتنزه (نَكِداً ألقى بالورقة التي قطفها) مثل رجلٍ ينحني من على صهوة حصانه كي يقطف ورداً، أو يملأ جيبيه بالجوز فيما الحصان يرهو به عبر مجازات وحقول وطنٍ يعرفه منذ صباه. كلها مألوفة؛ هذا المنعطف، المرقى، الطريق المختصر عبر الحقول. ساعاتٌ كان سيقضيها هكذا، حاملاً غليونه، في المساء، يتأمل في التفكير أعلى وأسفل داخلاً وخارجاً من تلك المجازات القديمة والمشاع المألوف، كلها زاخرة بالتاريخ، وقائع تلك الحملة هناك، حياة رجل الدولة هنا، القصائد والطرائف، والشخصيات كذلك، هذا المفكر، ذاك الجندي؛ كلها يراها حادة جلية؛ لكن مسيره الطويل على المجاز، الحقل، الأرض المشاع، شجرة الجوز المثمرة والوشيع المزهر سيفضي به أخيراً إلى ذاك المنعطف الأبعد من الطريق حيث طالما ترجل عن صهوة حصانه، ربط وثاقه إلى شجرة، وواصل المسير وحده مشياً على قدميه. وها قد بلغ حافّة المرجة يتأمل الجون أسفله.

هو ذا قَدَرُه، هي هذه فرادته، سواء تمناها أم لا، أن يأتي هنا إلى هذا اللسان من البر الذي يتآكله البحر شيئاً فشيئاً، فيقف عليه، وحيداً، مثل طائرٍ بحري يكتسيه الهجران. هي هذه قوته، موهبته، أن يطرح عنه فجأة كل ما هو زائد، فينكمش ويتقلص إلى أن يغدو أشد جدباً، أكثر سدىً، ينكمش جسدياً حتى، عدا أنه ما كان ليخسر ذرة من حدّة ذهنه، وبذا، فأن يقف على النزر المتبقي من صخور الشاطئ يواجه ظلمة الجهل الإنساني، كيف أننا لا نعرف شيئاً والبحر يلتهم شيئاً فشيئاً الأرض التي نقف عليها - هو قدره، موهبته. لكن حتى بعد رميه بعيداً، لدى ترجُّله عن حصانه، بكل الإيماءات المتكلفة والبهارج، بكل الجوائز التي نالها من جوزٍ وورد، وتقلص حدَّ لم ينس وحسب

صيته بل حتى اسمه، فقد ظلَّ، حتى في غمرة هذا الهجران، متيقّظاً إلى كل طيفٍ عابر، كابحاً نفسه عن الاسترسال في أيّة رؤيا، وهيئته هذه هي التي توحي في ويليام بانكس (على نحوٍ متقطع) وفي تشارلز تانسلي (على نحوٍ خنوع) والآن في زوجته - ما أن رفعت عينيها ورأته واقفاً عند حافة المرجة تنعم عليه بنظرةٍ عميقة - مشاعر التوقير، والرثاء، والامتنان أيضاً، مثلما يوحي وتدٌ مغروس في مهد قناة تربض عليه طيور النورس وتتلاطم عليه الأمواج شعوراً من الامتنان في قلوب ركاب القارب المبتهجين للواجب الذي أخذه الوتد على عاتقه بأن يقف معلماً، وحيداً، يُستدَلُّ عليه في قلب الفيضان.

«عدا أنَّ أب الأطفال الثمانية لا خيار له». غمغم بصوتٍ شبه عال، وبذا انقطع عن تأملاته، استدار، تنهد، رفع عينيه، التمس منظر زوجته تقرأ الحكايات على ابنه الصغير، وعبّأ غليونه. أدار ظهره لمشهد الجهل الإنساني والمصير الإنساني والبحر يلتهم الأرض الواقفين عليها، والذي، لو تسنى له أن يتفكّر فيه ملياً لربّما قاده التفكير إلى شيءٍ ما؛ ووجد عزاءه في توافه جدّ واهية مقارنةً بالفكرة المهيبة التي تجلّت أمام عينيه، فاعترم صدرُه عداءً لتلك الراحة، طاعناً فيها، مستنكراً إياها يحطّ منها، وكأنما أخس الجرائم وأوضعها أن يعيش رجلٌ شريف سعيداً في عالمٍ بائس. أجل، صحيح؛ في المجمل هو سعيد؛ لديه زوجته؛ لديه أطفاله؛ موعودٌ بإلقاء محاضرات «عن الهراء» على مدّ ستة أسابيع على الشباب اليافع في كارديف، عن لوك، هومه، بيركلي، وأسباب اندلاع الثورة الفرنسية. عدا أن محاضراته هذه واستمتاعه بها، فخره المتباهي بالعبارات التي يصوغها، بحماس الشباب في قلبه، بجمال زوجته، بتقدمات الثناء والإجلال التي يتلقاها من سوانسي، كارديف، إكستير، ساوثهامبتون، كدرمنستر، أوكسفورد، كامبريدج - كلها وجب عليه أن يستنكرها ويحط من قدرها ويحجبها في عبارته «عن الهراء»، لأن في واقع الأمر، هو لم يحقق الإنجاز الذي لربّما كان مقدراً له تحقيقه. ما هذا إلا قناع؛ ملاذ الرجل الخائف مِن إقرار مشاعره، العاجز عن القول، هذا ما أريد - هذا أنا؛ فيتبدّى أقرب إلى الرجل البغيض المثير للشفقة في عينيْ وليام بانكس وليلي بريسكو، يتساءلان عن الداعي وراء كل هذا الكتمان؛ احتياجه الدائم إلى استنطاق المديح؛ لمَ رجلٌ على هذا القدر من الشجاعة في الفكر يعيش حياته رجلاً رعديداً؛ كيف من الغريب تجلّيه رجلاً مهيباً ومضحكاً في ذات الآن.

التعليم والوعظ يفوقان قدرة البشر، قالت ليلي متشككة (تضع أغراضها جانباً). فمهما سموتَ وارتفعتَ فمقدّرٌ لك أن تخفق وتهوي على الأرض. السيدة رامزي منحته ما يريد بمنتهى

السهولة. وتغييرٌ مثل هذا لا بُدّ أنّه مزعج، قالت ليلي. يقبل عليهم من كتبه وإذا به يجد الجميع يلعب ويتبادل الحديث عن الهراء. لا يسعني تخيّل كم الفرق شاسع عن تأملاته.

سار مندفعاً نحوهما. الآن جمد في مكانه يتأمل البحر في صمت. الآن استدار عائداً أدراجه.

الفصل التاسع

بلى، قال السيد بانكس، يشاهده يبتعد عنهما. وألفُ شفقتاه عليه. (ليلي قد قالت شيئاً عن إخافته إياها - يتقلب فجأة من مزاجٍ إلى مزاج). بلى، قال السيد بانكس، ليثير في القلب ألف شفقة عجز السيد رامزي عن التصرف مثل بقية الناس. (فهو معجب بليلي بريسكو؛ وله أن يحادثها عن رامزي بمنتهى الصراحة). لهذا السبب، أردف قائلاً، ما عاد الشباب يقرؤون لكارلايل. رجلٌ مسنّ متذمر ونزق يفقد أعصابه إن وجد البودنغ بارداً، لمَ عساه يعظُنا؟ كذا ظن السيد بانكس ما يقوله الشباب هذه الأيام. ليثير في القلب ألف شفقة، لا سيما أن كارلايل، وفق اعتقاده، أحد أعظم المعلمين في تاريخ البشرية. ليلي خجلت من الاعتراف بأنها لم تقرأ لكارلايل مذ أيام المدرسة. لكن برأيها فالمرء يزداد إعجاباً بالسيد رامزي لاعتقاده بأنَّه إنْ توجَّع إصبعه الصغير فعلى العالم بأسره أن ينتهي. ليس أنها مانعت خصلته تلك. فمن ذا الذي سينخدع به؟ فهو يطلب منك صراحةً أن تكيل عليه الثناء والإطراء، التعبير عن إعجابك به، حيلُه الصغيرة لا تخدع أحداً. ما كرهته فيه هو ضيق أفقه، عماه، عيناها لا تزالان عليه فيما يسير مبتعداً.

«منافقٌ بعض الشيء؟» اقترح السيد بانكس، يحدّق في ظهر السيد رامزي، إذ ألم تبدأ تلك التأملات عن صداقته، عن رفض كام إهداءه زهرة، وكل هؤلاء الصبيّان والبنات، وبيته، بيته المفعم بالرخاء، تجوس في خلده منذ وفاة زوجته؟ بالطبع، بالطبع لديه عمله ... على كلٍّ، تمنى لو أن ليلي توافقه الرأي أن رامزي، كما قال، «منافقٌ بعض الشيء».

ليلي بريسكو مضت ترتّب فرشها وتضعها جانباً، ترفع ناظريها، تخفض ناظريها. ترفع ناظريها، وها هو هناك - السيد رامزي - يندفع نحوهما، يتطوّح، غير مبالٍ، غافلاً، ذاهلاً. منافقٌ بعض الشيء؟ كررت قائلة. أوه، لا - هو أصدق الرجال، أشدهم إخلاصاً (وها هو ذا)، هو خير الرجال؛ عدا أنه، أخفضت ناظريها، رجلٌ مستغرق كليةً في نفسه، هو طاغية، هو ظالم؛ وأبقت عينيها منخفضتين، عمداً، إذ بذا وحسب لها أن تحافظ على اتزانها، لدى إقامتها مع آل رامزي. فور

أن يرفع المرء رأسه ويبصرهما، سيراهما يفيضان بما تدعوه «الوقوع في الغرام». فقد باتا جزءاً من ذاك الكون الخيالي لكن الغامر والمثير، ذاك العالم الذي يبصره المرء بعين الحب. السماء التحمت بهما؛ الطيور تغرّد من ثغريهما. ولأكثر ما يثير في هذا الكون، شعرت أيضاً، برؤيتها السيد رامزي ينقض عليهما وينسحب، والسيدة رامزي جالسة برفقة ابنها جيمس عند النافذة والسحابة تعبر والشجرة تنحني، هو إدراكها كيف أن الحياة، المصنوعة من أحداث عرضية صغيرة يعيشها المرء حدثاً حدثاً، قد تغدو في لحظة ملتفّة متكاملة مثل موجةٍ تحمل المرء عالياً ومن ثم تلقي به، هناك، على الشاطئ.

السيد بانكس توقّع إجابةً منها. وكانت على وشك أن تقول شيئاً تنتقد فيه السيدة رامزي، كيف أنها هي الأخرى، قد تكون مخيفة أحياناً، بطريقتها، ومستبدة، أو أوصاف من هذا القبيل، حين استشفت من نشوة السيد بانكس أن لا داعي لها لأن تنطق بكلمة. أجل، نشوة، إن وضعت في الاعتبار سنّه، وقد بلغ الستين، نظافته وموضوعيته، المعطف العلمي الأبيض الذي بدا وكأنما يكسوه دوماً. فلرجلٍ مثله أن ينظر تلك النظرة العميقة التي رأته ليلي يتأمل بها السيدة رامزي لهي حقّاً نشوة، تعادل وَلَه اثني عشر شاباً يافعاً (ومن غير المرجح أن السيدة رامزي قد أشعلت الوله في قلوب اثني عشر شابّاً). هو ذا الحب، قالت في نفسها، تتظاهر بتحريك قماشة الرسم، تصفّي وترشّح؛ الحب الذي لا يسعى إلى نشب براثنه في المحبوب؛ بل مثلُه مثلُ الحبّ الذي يكنّه علماء الرياضيات للرموز، الشعراء لأبياتهم، حبٌّ معنيّ بأن ينتشر حول العالم وينصب في الإرث الإنساني. وصدقاً هكذا كان. العالم بأسره جديرٌ بأن يتشارك هذا الحب، لو كان بوسع السيد بانكس أن يفصح لمَ تلك المرأة تسعده إلى هذا الحد؛ لمَ مرآها تقرأ حكاية خيالية على ابنها يترك أثراً في نفسه يساوي أثر إيجاده حلّاً لمسألة علمية، كيف بتأمله إياها يطمئن قلبه، يغمره الشعور ذاته الذي كان سيغمره لو أنه أثبت حقيقة مطلقة عن الجهاز الهضمي لنبتة ما، بأنَّ الهمجية قد رُوِّضت، حكم الفوضى قد قُمِع.

ويا لها من نشوة - إذ بأي اسم آخر لها أن تشير إليه؟ - أنست ليلي بريسكو ما كانت تنوي قوله. لا شيء ذا أهمية؛ شيءٌ ما عن السيدة رامزي. كلّ الكلام يبهت أمام هذه «النشوة»، هذه النظرة الممعنة الصامتة، والتي شعرت بامتنانٍ عارمٍ تجاهها؛ إذ لا شيء أمدّها بالسلوان، أراحها من تعقيدات الحياة، وبأعجوبة حمل عن كاهليها نَيرها الثقيل، بمثل ما أمدّتها تلك النظرة، هذه القوّة

السامية، الهبة السماوية، التي ما كان لامرئ أن يشوشها فيما هي موجودة، مثلما ليس لامرئٍ أن يقطع شعاعاً من ضياء الشمس يندفق صافياً على الأرضية.

أن يحب الناس على هذا النحو، أن يحمل السيد بانكس هذه المشاعر تجاه السيدة رامزي (رمقته متأملة) قد نفعها، رفع من معنوياتها. أخذت تمسح فرشها الواحدة تلو الأخرى بخرقة قديمة، ذليلةً، عن عمد. فهي لاذت بنفسها عن هالة التوقير التي تكتسي كلّ النسوة؛ وأطْرت نفسها على موقفها هذا. دعه يتأملها، ستختلس هي نظرة إلى لوحتها.

وكادت تجهش في البكاء تلك اللحظة. كانت سيّئة، سيّئة، منتهى الفظاعة! بالطبع، كان بيدها أن ترسمها على نحوٍ آخر؛ كان للّون أن يبدو أرق وأبهت؛ والأشكال أثيرية؛ إذ هكذا كان سيراها السيد بونسفورت. عدا أنها لا تراها هكذا. هي أبصرت اللون يتوهج على هيكلٍ فولاذي؛ التماع جناح فراشة واقفة على قوس كاتدرائية. ومن كلّ هذا لا ترى سوى علامات عشوائية خربشتها على القماشة. وأبداً لن يراها أحد؛ وأبداً لن تعلق على حائط، وهناك السيد تانسلي يهمس في أذنها، «ليس بوسع المرأة أن ترسم، ليس بوسعها أن تكتب...».

والآن تذكرت ما كانت تنوي قوله عن السيدة رامزي. لا تدري بأيّة كلمات كانت ستعبر؛ عدا أنه انتقاد. إذ ذاقت في ليلة سابقة شيئاً من استبدادها. وخطر لها، فيما تنعم النظر على مدّ نظرة السيد بانكس المستغرقة في السيدة رامزي، ألّا امرأة ستعبد امرأة أخرى مثلما يعبدها هي؛ كلّ ما بيدها هي والسيدة رامزي فعله التماس الملاذ في ظل السيد بانكس الممدود عليهما معاً. وفيما تنعم النظر على مدّ شعاع نظرته، أضفت ليلي شعاعتها المختلفة، تقول في نفسها إنّ السيدة رامزي ولا ريب أجمل الناس (رأسها منحنٍ فوق كتاب)؛ ولربّما خير الناس، غير أنها مختلفة عن الصورة المثالية التي يرونها عليها الآن. لكن لمَ هي مختلفة؟ وعلى أي نحو هي مختلفة؟ سألت نفسها، تكشط عن مَلْوَنِها كلّ تلك الأكوام من الأزرق والأخضر والتي بدت لها الآن كتلاً عديمة الحياة، إلا أنها أقسمت على نفسها، أنها ستبعث فيها الوحي، ستجبرها على التحرك، الانسياب، وستبرُّ بقسمها هذا غداً. يا ترى كيف هي مختلفة؟ ما كُنه الروح فيها، جوهر طبيعتها، بحيث، إن عثرتَ على قفّاز متجعّد في زاوية أريكة، لكنتَ عرفت، من التواء إصبعه، أنه وبلا شك، يعود إليها. هي الطير في سرعته، السهم في دقة تصويبه. عنيدة؛ مسيطرة (بالطبع، ليلي ذكَّرت نفسها، أنا أراها من منظور علاقتها بالنساء، وأنا أصغر عمراً منها بكثير، شخصٌ وضيع، أعيش في نواحي برومبتون رود)

تفتح نوافذ حجر النوم. تغلق الأبواب. (في مخيلتها بدأت تستحضر نغم السيدة رامزي). تقبل عليها في وقتٍ متأخر من الليل، مع نقرٍ خفيف على باب حجرة النوم، متدثرة بمعطف فروٍ عتيق (إذ لطالما تجلى جمالها على هذه الوضعية ـ متعجلة، لكن ملائمة)، وتعود تسرد أيّاً كان ما جرى في النهار ـ فقدان تشارلز تانسلي مظلته؛ السيد كارمايكل يشهق ويتنشق؛ السيد بانكس يعقب، «الخضروات فقدت ملوحتها». كلّ هذا كانت ستتشكله ببراعة؛ بل حتى تحرفها بخبث؛ من ثم تخطو نحو النافذة، متظاهرة بأن عليها الذهاب الآن، ـ فالفجر قد أزِف، ولها أن ترى الشمس تشرق، ـ غير أنها تلتفت عائدة، أكثر حميمية، لكن على ذات ضحكتها، مصرّة أنَّ لزاماً عليها، على مِنْتا، عليهن جميعاً أن يتزوجن، إذ في العالم بأسره، مهما ألقوا عليها بأكاليل الغار (مع أنَّ السيدة رامزي ما اكترثت البتّة برسمها)، ومهما حقّقت من انتصارات (على الأرجح فالسيدة رامزي حقّقت عدداً منها) ـ وهنا يعتريها الحزن، تكتسيها الظلمة، وتعود إلى كرسيها ـ تظل الحقيقة التي لا تقبل جدلاً ولا نقاشاً هي هذه: المرأة غير المتزوجة (للحظة تناولت يدها برقة)، المرأة غير المتزوجة تُضيّع على نفسها أجمل ما تقدّمه الحياة. البيت بدا عامراً بالأطفال النائمين والسيدة رامزي جلست تصغي؛ أخيلة ضوء وأنفاسٌ مألوفة.

أوه، لكن، ليلي كانت ستقول، هناك أبي؛ بيتي؛ ولقالت لو كان لديها الجرأة، لوحتي. عدا أنَّ كلّ هذا بدا واهياً، عذريّاً، مقارنة بالأمر الآخر. ومع ذلك، مع انقضاء الليل، الأنوار البيضاء تتشعشع عبر الستائر، عصفورٌ يزقزق بين الفينة والأخرى في الحديقة، ناشدتها، وقد استجمعت في قلبها شجاعةً مستميتة، على إعفائها من هذا القانون الكوني؛ توسلتها لأجله؛ فهي تهوى وحدتها؛ تهوى طبيعتها؛ وطبيعتها ليست مهيأة لحياةٍ كهذه؛ وبذا وجدت نفسها تقابل النظرة المحدّقة الجدّية من عينين أعمق من البحر، تواجه يقين السيدة رامزي المطلق (تتبدّى عليها الآن براءة الأطفال) بأن عزيزتها ليلي، صغيرتها بريسك، فتاةٌ حمقاء. من ثم، تذكرت، ألقت برأسها في حجر السيدة رامزي تضحك وتضحك وتضحك، تضحك على نحوٍ هستيري على فكرة تولّي السيدة رامزي، برزانة راسخة، دقّة إدارة مصائر هي عاجزة كلياً عن استيعابها. هنالك جلست، بسيطة، جدية، وقد استعادت وعيها لذاتها ـ هو ذا التواء إصبع القفاز. لكن أي ملاذٍ هذا الذي ينفذ المرء إلى غوره؟ ليلي بريسكو رفعت عينيها، أخيراً، السيدة رامزي أعلاها، غافلة تماماً عمّا أثار ضحكها، ولمّا تزل ممسكة بالدفة، غير أن كلّ أثر لعنادها قد امّحى، وفي مكانه، حل شيءٌ ما، صافٍ كما الفضاء الذي تنقشع عنه السحب ـ ذاك الفضاء الصغير من السماء يرقد نائماً جوار القمر.

أتُراها الحكمة؟ المعرفة؟ أو أتُراها، كرّة أخرى، خديعة الجمال، حيث تعلق حواس المرء، في منتصف طريقه إلى الحقيقة، في خيوط شبكتها الذهبية؟ أو أتراها تحتفظ في دخيلتها بسرٍّ آمنت ليلي بريسكو بوجوده في دخائل كلّ الناس إذ من دونه يستحيل عليهم المضيّ قُدماً في هذا العالم؟ إذ ليس للجميع أن يعيشوا مثلها، شذر مذر، على حافة الكفاف. لكن إن كانوا على علمٍ بالسر، أبِيَدهم الإفصاح عنه؟ جالسة على الأرض، تطوق ركبتي السيدة رامزي بذراعيها، قريبة أقرب ما تكون إليها، تبتسم لظنها أن السيدة رامزي لن تعرف أبداً السبب وراء قوة عناقها، تخيلت كيف في حجرات عقل المرأة وقلبها، عقل وقلب المرأة التي تلمسها الآن، تنتصب، كما الكنوز في أضرحة الملوك، ألواحٌ تحمل نقوشاً مقدّسة، والتي إن تسنى للمرء أن ينطق بها، لتعلم منها كلّ شيء، غير أن تلك الألواح أبداً لا تُمنح، أبداً لا تُذاع. وأيّ فنٍّ هذا، سواء فن الحب أو المكر، يتسنى به للمرء أن يشق طريقه في هذه الحجرات السرية؟ ما الأداة التي تصيّر المرء ومحبوبه، مثل ماءٍ ينصب في جرة من كأسين مختلفين، كياناً واحداً لا ينحل؟ أتراه الجسد، أتراه العقل، أفي دهاليز الدماغ المتحابكة يمتزجان؟ أم في دهاليز القلب؟ هل للحب، كما يسميه الناس، أن يصيّرها والسيدة رامزي واحداً؟ إذ ليست المعرفة ما تبتغيه، بل الاتحاد، لا النقوش على الألواح، لا شيء مكتوب بلغةٍ معروفة للإنسان، بل الحميمية ذاتها، التي هي المعرفة؛ بذا حدّثت نفسها، رأسها منحنٍ على ركبة السيدة رامزي.

لا شيء حدث. لا شيء! لا شيء! مع أنها أحنت رأسها على ركبة السيدة رامزي. ومع ذلك، هي على يقين أنّ المعرفة والحكمة محفوظتان في قلب السيدة رامزي. كيف للمرء إذن، سألت نفسها، أن يعرف شيئاً أو آخر عن الآخرين، مع كلّ انغلاقهم على أنفسهم؟ فقط إن فعل مثلما النحلة، ما أن يُغريها أثرٌ حلو أو حاد في النسيم، أثرٌ غير ملموس ولا مُذاق، تنجذب إلى قفيرٍ شبيه بالقبة، تطوف قِفار الفضاء فوق بلدان العالم وحيدة كيما تلازم القفران بطنينها وضجيجها؛ والقفران، هي الناس. السيدة رامزي نهضت. ليلي نهضت. السيدة رامزي غادرت. ولأيام شيءٌ ما علق حوالي السيدة رامزي، شيءٌ أشبه باختلافٍ طفيف يستشعره المرء في الشخص الذي حلم به، شيءٌ يطغى على كلّ ما تقول، وذاك الشيء كان صوت الطنين، وفي جلوسها على المقعد المملَّد ذي الذراعين عند نافذة حجرة الاستقبال، فقد اكتستها، في عيني ليلي، هالةٌ مهيبة؛ هالةٌ على شكل قبة.

شعاعةُ نظرها هذه توازت مع شعاع نظرة السيد بانكس يتأمل السيدة رامزي تقرأ على جيمس الجالس على ركبتها. لكن فيما كانت بعد تتأملها، فالسيد بانكس اكتفى. وضع نظّارتيه.

وتراجع خطوة للوراء. رفع يده. خزَّر عينيه الزرقاوين الصافيتين قليلاً، وما أن استفاقت من تأملها، ورأت ما كان ينويه، حتّى جفلت كما الكلب ما أن يرى يداً مرفوعة عليه. لانتشلت اللحظة لوحتها من على المحمل، إلا أنها قالت في نفسها، ما من مفرّ. استجمعت نفسها كي تحتمل التجربة الفظيعة التي ستخوض في لجحها المتلاطمة برؤية أحدهم لوحتها. ما من مفرّ، ما من مفرّ. وإن كان محتوماً أن يراها أحد، فليكن السيد بانكس، فهو لا يخيفها بقدر الآخرين. لكن أن يتسنى لعينين غير عينيها أن تريا قُرارَة أعوامها الثلاثة والثلاثين، ترسّبات كلّ يومٍ عاشته ممزوج بشيءٍ أكثر سرية من أي كلمة نطقت بها وفعلٍ أقدمت عليه في كلّ أيامها، لهو ألمٌ مبرح. وفي ذات الآن هائلٌ مثير.

ما عاشت قطّ تجربة أكثر هدوءاً ورصانة. تناول مدية جيبه، وبمقبضها العاجي، نقر السيد بانكس القماشة. إلامَ تنوي الإشارة بالمثلث الأرجواني، «ذاك الشكل؟» سألها.

إلى السيدة رامزي تقرأ لجيمس، أجابته، متوقعةً اعتراضه - أنَّ لا أحد سيميز الشكل على أنه إنسانيّ. هي أصلاً لم تسعَ إلى الشبه، قالت له. فسألها ما الداعي إذن إلى تضمينهما في اللوحة؟ حقاً ما الداعي؟ - غير أنها ارتأت، إنْ كانت تلك الزاوية مشرقة، فهنا، في هذه الزاوية، شعرت بالحاجة إلى الظلمة. على بساطة التفسير، وضوحه، وابتذاله، فقد أثارت اهتمام السيد بانكس. فإذن صورة الأم وطفلها - محل التبجيل الإنساني، وفي هذه الحالة الأم مشهودٌ لها بجمالها - قد تُخْتزل، قال متأملاً، إلى ظلٍّ أرجواني دون أن يسلبها الاختزال التوقير.

عدا أنَّ اللوحة ليست عنهما، قالت له. أو، ليس كما يتصور. فهناك تصورات أخرى يمكن للمرء فيها أن يوقر الأم وطفلها. بظلٍ هنا وضوءٍ هناك، مثلاً. فإن كان لا بُدّ للوحة أن تكون إجلالاً، حاولت أن تشرح في نبرة مبهمة، فإجلالها لهما قد تشكّل على هذا النحو. أجل، للأمّ وطفلها أن يُخْتَزلا إلى ظلٍّ أرجواني دون سلبهما التوقير. الضوء هنا استلزم الظل هناك. تَفكَّر مليّاً. أثارت اهتمامه. أخذ يمحّص الأمر من المنظور العلمي وبكل نية طيبة. الحقيقة هي أن كلّ تصوراته وآرائه المسبقة تقع على الجانب الآخر، فسَّر لها. فأكبرُ لوحة معلقة في حجرة الاستقبال في بيته، والتي نالت مديح الرسامين، وقُدّرت قيمتها بسعر أعلى من السعر الذي اشتراها به، هي لأشجار كرزٍ مزهرة على ضفاف كينت. هو أمضى شهر العسل على ضفاف كينت. ولا بُدّ لليلي أن تزوره وتلقي نظرة على تلك اللوحة، قال لها. أما الآن - وقد استدار، رفع نظارتيه متأهباً لتمحيص لوحتها تمحيصاً علمياً. سألها عن ماهية العلاقة بين الكتل، الظل والضوء، السؤال الذي، صدقاً، ما خطر

إليه قطّ، ويودّ منها لو تفسّر له - ما مقصدها من تلك اللوحة؟ يشير إلى المنظر أمامهما. ونظرت هي حيث أشار. وما كان بيدها أن تريه مقصدها من اللوحة، أنها هي نفسها ليس بيدها أن تراه دون فرشاة في يدها. ومرة أخرى اتخذت وضعيتها القديمة كرسامة، مع النظرة الكليلة والعقل الذاهل، تقمع كلّ انطباعاتها كامرأة كيما تبصر بذهنٍ أوسع؛ تسلم نفسها إلى قوى تلك الرؤيا التي أبصرتها مرةً وما انفكّت تتلمس طريقها نحوها بين الوشائع والبيوت والأمهات والأطفال - لوحتها. وتذكرت، أنَّ تساؤلها كان، كيف لها أن تربط بين هذه الكتلة إلى يمناها بتلك التي إلى يسراها. لعل بيدها أن تصل خطاً بينهما، بغصن؛ أو تكسر حدة الفراغ في الواجهة بغرض (لربّما جيمس). لكن خشيتها أنها إنْ فعلت ذلك فستعرض وحدة اللوحة إلى خطر التصدع. وهنا توقفت؛ لم تُرد أن تضجره؛ وبرفق رفعت قماشتها عن المحمل.

عدا أنَّ رجلاً قد رآها؛ سلبها إياها. وهذا الرجل تشارك معها تجربة حميمية عميقة. واللحظة، فيما تشكر السيد رامزي عليها والسيدة رامزي عليها وتشكر الساعة والمكان، تنسب إلى العالم قوةً ما شكَّت يوماً بها - أنْ يسير المرء على مدّ ذاك المعرض الطويل، لا وحيداً، بل يداً بيد مع شخصٍ آخر، لأغربُ إحساسٍ في الكون، وأشده إبهاجاً - انتزعت سقاطة صندوق أدوات رسمها، بقوة أكثر مما ينبغي، وبدا كأنما السقاطة قد طوّقت بحلقتها، أبداً، صندوق الأدوات، المرجة، السيد بانكس، وتلك الشريرة الجامحة، كام، تجري مندفعةً نحوهما.

الفصل العاشر

في غمرة اندفاعتها كادت كام تصطدم بالمحمل؛ ما كانت لتتوقف لأجل السيد بانكس ولا ليلي بريسكو؛ رغم أن السيد بانكس، من ودَّ لو حظي بابنة، قد مدّ يده إليها؛ وما كانت لتقف لأجل أبيها، من كادت تصطدم به هو الآخر؛ ولا حتى لأجل أمها، من نادت عليها «كام! تعالي إليّ لدقيقة!» انطلقت كما الطير، كما الرصاصة، كما السهم، وأيّة رغبة هذه التي تدفعها، ومن ذا الذي أطلقها، وبأي اتجاه سددها، من عساه يعرف؟ ماذا، ماذا؟ تفكرت السيدة رامزي، جالسة ترقبها. لربّما رؤيا - عن رصاصة، عجلة يد، مملكة من الجنّيات السحريات على الجانب البعيد الآخر من الوشيع؛ أو لربّما المجد المتأتي عن السرعة؛ لا أحد يعرف. لكن ما أن نادت السيدة رامزي «كام!» مرة أخرى، القذيفة هوت في منتصف مسارها، وعادت كام تجر قدميها متلكئة، تقتلع ورقة في طريقها، لأجل أمها.

يا ترى بم تحلم، تساءلت السيدة رامزي، واقفة هناك، سارحة، مستغرقة في فكرةٍ تجول في خاطرها، بحيث وجب على السيدة رامزي أن تردد الرسالة مرتين - اسألي ملدريد إن كان آندرو، الآنسة دويل، والسيد رايلي قد عادوا من النزهة؟ - الكلمات بدت وكأنما تهوي في بئر، حيث، إن كانت المياه صافية، فهي أيضاً ستعكس الصورة محرفة، وسيرى المرء الكلمات تنفتل إلى أشكالٍ وحدها السماء تعلم ماهيتها وتحطّ على قعر عقل الطفلة. وما الرسالة التي ستنقلها كام إلى الطاهية؟ تساءلت السيدة رامزي. وفعلاً، في انتظارها بصبر، واستماعها إليها بأن هناك امرأة عجوزاً في المطبخ بوجنتين محمرتين جداً تشرب الحساء مباشرةً من الوعاء الخزفي، تسنّى للسيدة رامزي أخيراً أن تحث غريزة التكرار - كما الببغاء - لدى ابنتها التي بها التقطت كلمات ملدريد بكل دقة، ولها الآن أن تعيدها على مسامعها، إن انتظرت بصبر، في تغريدٍ رتيب. تتأرجح في مكانها، يمنة ويسرة، رددت كام الكلمات، «لا، لم يأتوا بعد، وقد أخبرتُ إلين بأن ترفع آنية الشاي عن المائدة».

إذن منتا دويل وبول رايلي لم يأتيا بعد. مما يعني شيئاً واحداً وحسب، قالت السيدة رامزي في نفسها. إما أنها ستقبل به، أو أنها سترفضه. إذ ما المغزى من ذهابهما، هكذا في نزهة بعد الغداء - حتى وأن كان آندرو برفقتهما؟ إلا أن قرارها صحيح، اعتقدت السيدة رامزي (فهي جدّ جدّ مولعة بمنتا،) بقبول هذا الشاب الطيب، حتى وأن لم يكن ذكياً، لكنها استدركت، واعية إلى جيمس يشدها بقوة، يحثها على مواصلة قراءة حكاية السمّاك وزوجته، أنها في القلب من قلبها تؤثر الحمقى على الرجال الأذكياء من يكتبون الأطروحات؛ تشارلز تانسلي، مثلاً. على أيّة حال، أيّاً يكن قرارها، هذا أو ذاك، فلا بُدّ أنها اتخذته الآن.

لكنها واصلت القراءة، «وفي صباح اليوم التالي استيقظت الزوجة أولاً، كان الصبح قد انفلق للتو، ومن على فراشها كان لها أن ترى الريف الجميل منبسطاً أمام ناظريها. أما زوجها فكان لا يزال يتمطط..».

لكن كيف لمنتا أن ترفضه الآن؟ وقد وافقت مرات عدة على قضاء الظهيرة تتسكّع معه وحدهما - فآندرو غالباً ما كان سيفترق عنهما كي يصيد السلطعون - لكن يحتمل أن نانسي ظلت برفقتهما. حاولت أن تستعيد في ذاكرتها مرآهما واقفين عند باب الردهة بعد الغداء. إذ هناك وقفا، يتأمّلان السماء، يتساءلان عن الطقس، لذا تدخلت قائلة، ظناً منها أنها بذا تستر حياءهما، ومن جهة أخرى تشجعهما على الخروج (إذ انصب تعاطفها نحو بول)، «إنَّ السماء صافية لا سحابة فيها على مدِّ أميال»، لتثير بقولها هذا هلسةً من التافه تشارلز تانسلي، من لحق بهما خارجاً. غير أنها فعلتها، عمداً. وسواء كانت نانسي برفقتهما أم لا، فهي غير متيقنة، وفي مخيلتها أخذت تحول ناظريها من أحدهما للآخر.

واصلت القراءة: «آه زوجتي»، قال الرجل، «لمَ علينا أن نكون ملوكاً؟ فأنا لا أريد أن أكون ملكاً». «حسنٌ»، قالت الزوجة، «إن لم ترد أن تكون ملكاً، فأنا سأكون؛ امض الآن إلى السمكة المفلطحة، فأنا سأكون ملكاً».

«إما أن تدخلي أو تخرجي، كام»، وبّختها، إذ أنها تعرف أن الشيء الوحيد الذي يجذبها إلى الحكاية هي «السمكة المفلطحة» وأنها في لحظة ستتململ وتدخل في عراك مع جيمس كما هي عادتهما. وكام انطلقت خارجاً. والسيدة رامزي واصلت سرد الحكاية، مرتاحة البال، فهي وجيمس يتشاركان ذات الذائقة ويرتاحان إلى رفقة بعضهما.

«وحين بلغ البحر، رآه رمادياً شديد القتامة، المياه تجيش من أعماقه، رائحة عفنة تنضح منه. فوقف هناك عند حافته يردد قائلاً:

مفلطحة، مفلطحة، في البحر العميق

أرجوكِ، أتوسلكِ، تعالي إليّ

فزوجتي، زوجتي الطيبة إيزابيل

تريد لنفسها عكس ما أريد

«حسنٌ، وما عساها تريد؟ قالت السمكة المفلطحة». وأين عساهما الآن؟ تساءلت السيدة رامزي، تقرأ وتتفكر، بمنتهى السهولة، في ذات الآن؛ فحكاية السمّاك وزوجته مثل صوتٍ جهير يرافق الموسيقى برقّة، وبين الفينة والأخرى، يعلو فجأة ويقحم نفسه في اللحن. ومتى ستعرف بالخبر؟ إذ إن لم يحدث شيء، فستجد السيدة رامزي نفسها مضطرة إلى الحديث بجدية مع منتا. إذ لا يليق بها التسكع في أنحاء الريف، حتى وأن كانت نانسي برفقتهما (وحاولت مرة أخرى، بلا جدوى، تخيلهم منحدرين أسفل الطريق، وعدِّهم). فهي مسؤولة عن منتا أمام أبويها - **البومة والمِسْعر**. اللقبان لمعا في ذهنها وهي تقرأ. **البومة والمِسْعر** - أجل، سينزعجان إن وصلهما خبر - وبالتأكيد سيصلهما خبر - بأن ابنتهما، المقيمة لدى آل رامزي، قد شوهدت تفعل كذا، وكذا، وكذا. «اعتمر شعراً مستعاراً في مجلس العموم وزوجته بكل براعة عاونته على رأس السلم»، رددت في ذهنها، تصطادهما من الذاكرة بطُعْمِ عبارةٍ ابتدعتها، لدى عودتها يوماً من حفلةٍ ما، كي تضحك زوجها. يا للعجب! يا للعجب! رددت السيدة رامزي في نفسها، كيف لهما أن أنجبا هذه الابنة المتنافرة؟ منتا الغلاميّة، ذات الجورب المثقوب؟ كيف لها أن وُجِدت في أجواء استثنائية رائعة حيث الخادمة دوماً ما تحمل اللقاطة تكنس الرمال التي يبعثرها الببغاء، حيث كلّ نقاشٍ يُختزل إلى مآثر هذا الطائر - التي وإن كانت مثيرة فتظلّ محدودة. بطبيعة الحال، كانت قد دعت منتا مرة لتناول الغداء، الشاي، العشاء، وانتهى الحال بدعوتها إلى الإقامة برفقتهم في فنلاي، ما أدى إلى احتكاكٍ مع البومة، أمها، وإلى توجيه دعوات أكثر، والدخول في نقاشات أكثر، والمزيد من الرمال، وحقاً مع نهاية الأمر برمته، كانت قد ألقت أكاذيب عن الببغاء ما يكفيها حياتها كلها (كذا قالت لزوجها ليلتها، لدى عودتها من الحفلة). ومع ذلك كله، منتا أتت.. أجل، هي أتت معهم، قالت السيدة رامزي في نفسها، تشك

بوجود شوكةٍ في كتلة الخيوط المتشابكة لخاطرها هذا؛ وما أن حلّت تشابك الخيوط وانتزعتها وجدتها على هذا النحو: ذات مرة امرأة اتهمتها بـ «سلبها محبة ابنتها»؛ وشيءٌ ما قالته السيدة دويل أعاد لها ذكرى هذه التهمة. رغبتها في بسط هيمنتها، فرض تدخلاتها، إجبار الناس على الخضوع لمشيئتها - تلك كانت التهمة الموجهة ضدها، ورأت فيها ظلماً جمّاً بحقها. إذ كيف لها أن تمنع نفسها عن «الظهور هكذا» في أعين الناس؟ وليس لأحد أن يجرؤ على اتهامها ببذلها العناء في سبيل الإبهار ونيل الإعجاب. فغالباً ما يعتريها الخزي من مظهرها الرثّ. لا هي بالمرأة المستبدة، ولا هي بالطاغية. لربّما التهمة تحتمل الحقيقة فيما يخص المستشفيات ومصارف المياه والحليب. أجل، هي لا تمانع إظهار شغفها تجاه تلك الأمور، ولو تسنّت لها الفرصة، لكانت جرَّت الناس من مؤخر أعناقهم وأجبرتهم على رؤية الخطب فيها. فلا مستشفى واحدة على مدّ الجزيرة. أي عارٍ هذا. الحليب يصل باب بيتك في لندن بنّياً عكراً يشوبه التراب. يتوجب اعتبارها جريمة ضد القانون. مستشفى وملبنة نموذجية هنا - هذان أمران ودّت لو بيدها تحقيقهما، بنفسها. لكن كيف؟ مع كلّ هؤلاء الأطفال؟ متى ما كبروا، لربّما حينها ستحظى بالوقت؛ لدى دخولهم جميعاً المدرسة.

أوه، لكنها لا تودّ أبداً لجيمس أن يكبر يوماً واحداً! ولا حتى كام. كانت ستسعد لو أن بيدها الاحتفاظ بهما هكذا طوال العمر، شيطانين خبيثين، ملاكين مبهجين، ولا يأتي اليوم الذي تراهما فيه وحشين بسيقان طويلة. ولا شيء كان سيعوض خسارتها إياهما. حين قرأت للتو على جيمس، «وإذ بجمعٍ من الجنود يحملون الطبول والأبواق»، واغمقّت عيناه، قالت في نفسها، لمَ عليهما أن يكبرا ويخسرا كلّ هذا؟ هو أكثر أطفالها موهبةً، أكثرهم رهافة. وإن كانوا جميعاً، كذا آمنت، موعودين بمستقبلٍ رائع. برو، ملاكٌ مثاليّ في تعاملها مع الآخرين، والآن، لا سيما في الليل، باتت تسلب الأنفاس بجمالها. وآندرو - حتى زوجها أقر بأن موهبته في الرياضيات استثنائية. نانسي وروجر، كلاهما مخلوقان جامحان، يعدوان لهواً في أرجاء الريف طوال اليوم. أما روز ففمها كبير، إلا أنَّ يديها موهوبتان رائعتان. إن كانوا سيعدون مشهداً تمثيليّاً، فهي من يتولى خياطة الأزياء؛ إعداد كلّ ما يلزم؛ وأكثر ما تهوى إعداد الموائد، الزهور، أي شيء. لكن لم يرُق لها قنص جاسبر الطيور؛ عدا أنها مرحلة وحسب؛ وجميعهم مرّوا في مراحل. فلماذا عليهم إذن، سألت نفسها، تسند ذقنها على رأس جيمس، أن يكبروا بهذه السرعة؟ لمَ عليهم الذهاب إلى المدرسة؟ سترغب دوماً بوجود طفلٍ لديها. فأقصى سعادتها تعيشها متى ما حملت طفلاً بين ذراعيها. وليدعُها الناس آنئذ بالطاغية، المستبدة، المسيطرة إن أرادوا؛ وهي لن تمانع. اللحظة، وهي تمس شعره بشفتيها، قالت في نفسها،

أبداً لن يكون سعيداً كما اللحظة، إلا أنها لجمت نفسها، وقد تذكرت غضب زوجها من قولها أموراً كهذه. لكن تظل هذي هي الحقيقة. الآن أسعد أوقات حياة أطفالها. طقم شاي بعشرة بنسات قد أسعد كام لأيام. تسمع صيحاتهم المبتهجة وخبط أقدامهم على الأرضية أعلاها ما أن يستيقظوا. تسمع صخب عدوهم عبر الرواق. من ثم الباب يُشرع وها هم يقبلون عليها، نضرِين كما الورد، نشطين متيقظين، وكأنما قدومهم إلى حجرة الطعام بعد الفطور، الحدث الذي يعيشونه كلّ يوم في حياتهم، حدثٌ إيجابي بالنسبة إليهم، وهكذا، يعيشون الحدث تلو الآخر، على مرّ النهار، إلى أن تصعد إليهم كي تتمنى لهم ليلةً سعيدة، فتجدهم متدثرين في أعشاشهم كما العصافير بين حبات الكرز والتوت، لا يزالون يختلقون القصص عن أمرٍ تافه - شيء التقطته آذانهم، أو شيء التقطوه من الحديقة. كلّ واحد منهم يحتفظ بكنز في جعبته... فهبطت الدرج وقالت لزوجها، لمَ لزامٌ عليهم أن يكبروا ويخسروا كلّ هذا؟ فأبداً لن يعيشوا سعادة كهذه. وثار غضبه. وعلام نظرتك المتشائمة للحياة؟ سألها. فلا منطق فيها. ومع غرابة اعتقادها هذا، فهي تؤمن بصحته؛ أن رغم كلّ قنوطه واكتئابه، فزوجها هو الأسعد بينهما، الأكثر أملاً في الحياة. ربّما لكونه الأقل تعرضاً منهما للمشاكل الإنسانية. فدائماً ما لديه عملٌ يعود إليه. ليس أنها هي نفسها «متشائمة» كما اتهمها. إلا أنها ظنت أن الحياة - وإذ بشريطٍ من الزمن يتجلّى أمام عينيها - سنواتها الخمسون. ها هي متجلية أمامها - الحياة. الحياة، عادت تقول في نفسها - إلا أنها لم تُنه خاطرها. ألقت نظرة على الحياة، إذ في تلك اللحظة كانت على أتم الوعي بكينونتها، شيءٌ حقيقي، شيءٌ شخصي، شيءٌ لا تتشاركه، لا مع أطفالها ولا مع زوجها. تتعامل معها وكأنما هناك صفقة تجارية بينهما، هي من جهة، والحياة في الجهة المقابلة، هي تحاول اقتناص أفضل الممكن منها، مثلما تحاول أيضاً الحياة؛ وقد تفاوضتا في أحيان كثيرة (متى ما جلست وحدها)؛ ما أدى، كما تستذكر، إلى مشاهد مصالحة عديدة؛ لكن في الغالب الأعم، وعلى نحوٍ غريب، فلا مفرّ من أن تقرّ بأن هذا الشيء الذي تدعوه الحياة شيءٌ فظيع، عدواني، ومتى ما منحته الفرصة سينقضّ عليك في لمحة. فهناك المشاكل الأبديّة: المعاناة؛ الموت؛ الفقر. ودائماً هناك امرأة تموت بالسرطان، حتى هنا. ومع ذلك، فهي قد قالت لكلّ هؤلاء الأطفال بأنهم سيكابدونها كلها. لثمانية أشخاص، ما انفكّت تقول هذا بصراحةٍ قاسية (فاتورة الدفيئة خمسون جنيهاً). ولهذا، لعلمها مسبقاً بما ينتظرهم - الحب والطموح والتعاسة والوحدة في أماكن موحشة - يساورها هذا الإحساس، لمَ لزامٌ عليهم أن يكبروا ويخسروا سعادتهم الآن؟ من ثم قالت لنفسها، تلوح بسيفها في وجه الحياة، هراء. جميعهم سيعيشون في سعادةٍ تامة. وها هي الآن، تتفكّر، تستشعر

خبث الحياة مرةً أخرى، تخطط لتزويج منتا من بول رايلي؛ لأن أياً كان شعورها تجاه الصفقة التي تحصَّلتها من الحياة، إذ عاشت تجارب لا تتمنى لأحدٍ أن يعيشها (تجارب لم تسمها حتى لنفسها)؛ فقد وجدت نفسها مدفوعة، وفي عجلةٍ هي واعية لها، كأنما تجد فيه ملاذاً تفر إليه، إلى تكرارها على الناس قولها إنّ لزاماً عليهم أن يتزوجوا؛ لزاماً عليهم أن ينجبوا أطفالاً.

أتراها مخطئة في هذا، سألت نفسها، تراجع تصرفاتها في خضم الأسبوع والأسبوعين الماضيين، تتساءل إن كانت حقاً قد ضغطت على منتا، من تبلغ الرابعة والعشرين من عمرها وحسب، إلى أن تعقد أمرها الآن. إذ لم تكن مستقرّة في رأيها. وألم تضحك مرةً على فكرة الزواج؟ أتُراها نسيت الآن مرّةً أخرى قوة تأثيرها على الناس؟ لا بُدّ من الزواج - أوه، بكل مزاياه (فاتورة الدفيئة خمسون جنيهاً)؛ ومنها مزيّة - لا داعيَ لها أن تسميها - ضرورةٌ لا بُدّ منها؛ ذاك الشيء الذي تحظى به مع زوجها. ألهم أن يحظوا بها دون زواج؟

«من ثم ارتدى بنطاله وهرع راكضاً كما المجنون»، قرأت على ابنها. «غير أنَّ عاصفةً شديدة اهتاجت والرياح عصفت ثائرة وكادت تطير به؛ عاصفةً اقتلعت البيوت والأشجار، ارتجّت لها الجبال، الصخور تدحرجت نحو البحر، السماء حالكة سوداء، أرعدت وأبرقت، والبحر هاج، أمواجه السود عالية علوّ أبراج الكنائس والجبال، قممها البيض مزبدّة».

قلبت الصفحة؛ بضعة أسطر وحسب قبل أن تنهي الحكاية، مع أنَّ الساعة تجاوزت وقت النوم. الوقت بات متأخراً. الضوء في الحديقة أعلمها بذلك؛ ابيضاض الأزهار والهالة الرمادية التي اكتست الأوراق تآمرا معاً، كيما يُثيرا في نفسها إحساساً من القلق. لوهلة لم تعرف علام قلقها. من ثم تذكرت؛ بول ومنتا وآندرو لم يعودوا بعد. استحضرت في ذهنها مرةً أخرى صورة المجموعة الصغيرة، واقفين عند باب الردهة يتأملون السماء. آندرو كان يحمل شبكته وسلّته. ما يعني نيّته الذهاب واصطياد السلطعون وما شابه. ما يعني أنه سيتسلق إحدى تلك الصخور؛ ما يعني أنه سينفصل عنهم. أو لربّما في طريق عودتهم كما الرتل عبر إحدى المجازات الضيّقة أعلى الجرف أحدهم انزلق. تدحرج وهوى. السماء تعتم أكثر وأكثر.

لكن ما كانت لتسمح لصوتها أن يشوبه أوهى تغيير مع إنهائها الحكاية، وأردفت، فيما تغلق دفتي الكتاب، تنطق بالكلمات الأخيرة وكأنما هي من ابتدعتها، تنظر في عينيْ جيمس: «وما زالا هناك حيَّيْن حتى يومنا هذا».

«النهاية»، ختمت قائلة، ورأت في عينيه، ما أن خبا فيهما الاهتمام بالحكاية، شيئاً آخر يحل محله؛ حيرة، شحوب، أشبه بانعكاس ضوء، دفعه إلى التأمل والانشداه. حولت عينيها تجاه نظرته، عبر الجون، وهناك، بكل تأكيد، يصل بريقه إليهما عبر الأمواج، نبضتان سريعتان تتبعها نبضةٌ طويلة ثابتة، ضوء المنارة. قد أضاؤوا الفنار.

وفي لحظة سيسألها، «هل نحن ذاهبون إلى المنارة؟» ولكان لزاماً عليها أن تجيب، «لا، ليس غداً؛ أبوك يقول لا». لكن لسعادتها، اقتحمت عليهم ملدريد الحجرة كي تصطحب الطفلين، والضجة شتّتت انتباههما. عدا أنه ما انفكّ يتلفت خلف كتفه فيما ملدريد تحمله بين ذراعيها، وأيقنت أنه اللحظة يقول في نفسه، لن نذهب غداً إلى المنارة؛ وأيقنت، في نفسها، أنه سيحمل هذه الذكرى طيلة حياته.

الفصل الحادي عشر

لا، قالت في نفسها، تجمع الصور التي قصَّها - برّاد، جزازة عشب، سيدٌ في بدلة سهرة رسمية - الأطفال أبداً لا ينسون. لهذا السبب، فمن المهم جداً أن يحذر المرء في ما يقول، في ما يفعل، ويا له من ارتياحٍ بالغ يعتريها متى ما مضوا إلى النوم. إذ بذهابهم، فلا حاجة بها للتفكّر بأي أحد. لها أن تتصرف بطبيعتها، وحدها. وما انفكّ يساورها هذا الشعور مؤخراً، احتياجها إلى التفكير؛ في الواقع، لا، ليس إلى التفكير. بل إلى الصمت؛ الوحدة. حيث الكينونة والشخصية، الأقوال والأفعال، رحابة الصدر، التألق، الصراحة، كلها تتبخر في الهواء؛ ويتقلص المرء، في حسٍّ وقور، إلى ذاته، قلب الظلمة إسفينيّ الشكل، الخفيّ عن أعين الآخرين. ورغم أنها واصلت الحبك، تجلس منتصبة، فهي قد استشعرت ذاتها؛ وهذه الذات بعد أن طرحت عنها كلّ الخيوط العالقة بها فقد باتت حرة للانطلاق في أعجب المغامرات. إذ ما أن تنحسر الحياة لدقيقة، فالاحتمالات تنفتح على مدىً لا نهائي. وحدسها أنبأها بأن الجميع ينتابه هذا الإدراك، على الدوام، بأن لديه معيناً لا ينضب من الموارد؛ الكل، هي، ليلي، أغسطس كارمايكل، كلهم مدركون، أن هذه الأطياف التي ترانا عليها، الأمور التي تعرفنا بها، ما هي إلا تجلّيات طفولية. فلا شيء أسفل كلّ هذا سوى الظلمة، عارمة متفشية، هاوية لا قرارة لها؛ عدا أننا بين الوقت والآخر نطفو إلى السطح وهذا ما ترانا عليه. أُفقها تبدَّى لانهائيّاً. كل تلك الأماكن التي لم ترها من قبل؛ السهول الهندية؛ تزيح جانباً الستارة الجلدية السميكة في كنيسة من كنائس روما. شعرت حقاً بها. فلهذا القلب من الظلمة أن يذهب إلى حيثما يشاء، إذ لا أحد يراه، ولا أحد بيده أن يقف في وجهه؛ جال في خلدها، جذلة. هنالك الحرية، هنالك راحة البال، وهنالك، أكثر ما ترحب به، استحضارٌ للجميع، إلى التقاط الأنفاس على منصة الاستقرار. فمن خِبرتها، لا أحد يجد الراحة أبداً في كينونته (قد أنجزت للتو حركةً حاذقة بصنّارتيها) بل يجدها في كونه إسفين الظلمة. فبِتَخلُّص المرء من شخصيته، يتخلّص من القلق يتآكله، الاضطراب يعكّر صفوه، العجلة ترهقه؛ وإذّاك يرتفع إلى شفتيها هتاف الانتصار على الحياة ما أن تتجمع الأشياء في هذه الأجواء من راحة البال، الارتياح، الأبدية؛ وفي تريثها نظرت خارجاً

كي تلتقي عيناها بنبضة المنارة، النبضة الثابتة الطويلة، الأخيرة من بين الثلاث، نبضتها هي، إذ بتأمّل المرء المنارة في هذا المزاج من هذه الساعة فليس بيده أن يمنع نفسه عن ربط ذاته بشيءٍ ما، لا سيما الشيء الذي يراه؛ وهذا الشيء، هذه النبضة الثابتة الطويلة، هي نبضتها. وغالباً ما وجدت نفسها جالسة تتأمل، جالسة تتأمل، عملها بين يديها، حتى تغدو الشيء الذي تراه - ذاك الضوء، على سبيل المثال. وكانت ستحمّل ذاك الشيء عبارةً صغيرة أو خاطراً يجوس في عقلها مثلما تفعل الآن - «الأطفال لا ينسون، الأطفال لا ينسون» - تكررها وتضيف إليها، مآله أن ينتهي، مآله أن ينتهي، تردد في نفسها. سيأتي، سيأتي، وإذا بها فجأة تردف قائلة، **وكلنا بين يدي الربّ**.

لكنها فوراً انزعجت من قولها هذا. من عساه نطق بهذا؟ ليست هي؛ أحدهم خدعها إلى أن تقول شيئاً لا تعنيه. رفعت عينيها عن حبكها وأبصرت تلك النبضة الثالثة وتبدّى لها وكأنما عيناها التقتا بعينيها، تبحث فيهما إذ هي وحدها من لها أن تبحث في عقلها وقلبها، تطهّر وجودها من تلك الكذبة، من أيّة كذبة. بمدحها الضوء إنما تمدح نفسها، بلا ذرة خيلاء، فهي صارمة، باحثة، جميلة، مثلها مثل ذاك الضوء. كم هو غريب، خطر لها، كيف للمرء متى ما اختلى بنفسه، أن تميل عاطفته نحو الجماد؛ الأشجار؛ الجداول؛ الأزهار؛ يشعر بها تعبر عنه؛ يشعر بها تتجسده؛ تعرفه، وكأنهما كيانٌ واحد؛ فيغمره حنانٌ غير منطقي (تمعن النظر في ذاك الشعاع الطويل من الضوء) تجاه نفسه. وإذ ينبعث، فيما تمعن وتمعن النظر مع صنارتيها جامدتين في يديها، متمعجاً من قاع عقلها، من بحيرة كينونتها، سديمٌ رقيق، عروسٌ تنتظر الالتقاء بعشيقها.

ما الذي دفعها إلى القول: «كلنا في يد الربّ»؟ تساءلت في حيرة. زلّة النفاق المنسلة بين الحقائق تستفزها، تزعجها. عاودت حبكها. سألت نفسها، كيف لربٍ أن يخلق عالماً كهذا؟ إذ في عقلها، دوماً ما تشبثت بحقيقة أنّ لا منطق هناك، لا نظام، ولا عدالة: فقط المعاناة، الموت، الفقراء. فلا جريمة خيانة مهما بلغت خستها يستعصي على العالم ارتكابها؛ هي على دراية بذلك. ولا سعادة تدوم؛ هي على دراية بذلك. تحبك في رباطة جأش واتزان، تزم شفتيها بعض الشيء، وإذ دون وعيٍ منها، خطوط وجهها تشكلت وتصلبت في هيئةٍ صارمة حدَّ ما أن مرَّ بها زوجها، ورغم زقزقته على تصوره الفيلسوف هومه، وقد بلغ حداً مريعاً من السمنة، عالقاً في المرحاض، فما كان بيده إلا أن يلاحظ لدى مروره بها، الصرامة القاتمة في قلب جمالها. أحزنه مرآها، نأيها بنفسها آلمه، وراوده الشعور، ما أن مرَّ بها، بعجزه عن حمايتها، ومع وصوله الوشيع، بات حزيناً. لا شيء بيده فعله لمساعدتها. لا خيار أمامه سوى الوقوف جانباً ومراقبتها. إذ صدقاً، الحقيقة الجهنمية هي، أنه

يزيد الأمور سوءاً عليها. فهو نزق، سريع الانفعال. وقد فقد أعصابه بشأن المنارة. تأمل الوشيع، تأمل تحابكَ غصونها، قلبَ ظلمتها.

لطالما شعرت السيدة رامزي، أن السبيل لإخراج المرء نفسه من عزلته مكرهاً يكون بالقبض على غرضٍ ما، صوتٍ ما، مشهدٍ ما. أصغت، كلّ ما حولها في سكون؛ مباراة الكريكت انتهت؛ الأطفال يستحمون؛ لا صوت هنالك سوى صوت البحر. توقفت عن الحبك؛ أمسكت بالجورب البني المحمر يتدلى من يدها. ورأت الضوء مرةً أخرى. وفي استنطاقها الضوء، بشيءٍ من السخرية، إذ متى ما تيقّظ المرء تبدّلت علاقته بالأشياء، نظرت نحو شعاع الضوء، المتحجّر، القاسي، الشبيه بها إلى حدٍّ بعيد، قليل الشبه بها إلى حدٍّ بعيد، والذي أخضعها إلى رهن إشارته (مرة استيقظت ليلاً ورأته ينحني فوق فراشهما، يربّت الأرضية)، ورغم كلّ هذا خطر لها، فيما تشاهده مندهشة، مفتونة، وكأنما يربت بأنامله الفضية وعاءً مختوماً في عقلها والذي إن فاض فسيفيض عليها بهجةً، أنَّها قد عرفت السعادة، السعادة المذهلة، السعادة القصوى، وها الضوء يسبغ فضيّةُ على قمم الأمواج، فيما النهار يتلاشى، والأزرق ينحسر عن البحر ويموج في أمواجٍ ليمونية صافية تتقوس وتهتاج وتتكسر على الشاطئ والنشوة في عينيها انبجست وأمواجٌ من البهجة الصافية جرفت قعر عقلها وغمرتها، **تكفيني! تكفيني!**

استدار ونظر إليها. آه، كم هي جميلة، أجمل من أجمل مرة رآها عليها قط. لكن ما كان بيده قول شيءٍ لها. ما كان ليقاطعها. اعترته رغبة عارمة بالحديث معها الآن وقد غادر جيمس وباتت أخيراً وحدها. غير أنه عقد عزمه، لا؛ ما كان ليقاطعها. فهي بمعزل الآن عنه، في جمالها، في حزنها. سيدعها إلى ما هي فيه، ومرَّ بها دون أن ينبس بكلمة، رغم الألم الذي اعتراه على رؤيته إياها نائية، لا يسعه الوصول إليها، ولا يسعه فعل شيءٍ لمساعدتها. وكان سيمرّ بها مرةً أخرى دون أن ينبس بكلمة لولا أنها، في تلك اللحظة، منحته عن طيب خاطر وبكامل حريتها ما تدري أنه أبداً لن يسألها إياه، نادت عليه وتناولت الشال الأخضر من على إطار اللوحة، وذهبت إليه. فقد أراد، وهي أدرى بما يريد، أن يحميها.

الفصل الثاني عشر

طوت الشال الأخضر حول كتفيها. تناولت ذراعه. جماله طاغٍ، قالت، في استهلالها الحديث عن كينيدي البستاني، فهي تجده وسيماً جداً، حدَّ أنّه لا يهون على قلبها تسريحه من العمل. هناك سلم متكئٌ على الدفيئة، وكتلٌ صغيرة من المعجون عالقة به، فقد بدؤوا العمل على تصليح الدفيئة. أجل، لكن فيما أخذت تتنزه مع زوجها، شعرت بأن الوقت مناسب للتعبير عن مصدر قلقها هذا بالذات. أوشكت أن تقول، على طرف لسانها، أثناء نزهتهما، «ستكلف خمسين جنيهاً»، لكن عوضاً عن ذلك، ولأن قلبها يخذلها متى ما تعلق الحديث عن المال، تكلمت عن جاسبر وقنصه الطيور، فأجابها، على الفور، حالاً يهدئ من روعها، أن من الطبيعي أن يتصرف ولدٌ هكذا، وهو واثق من أنَّه لن يمر وقتٌ طويل قبل أن يجد لنفسه هوايات أخرى يتسلى بها. زوجها رجلٌ واعٍ، عاقل، رجلٌ عادل. لذا قالت، «معك حق؛ كلّ الأطفال يمرون في مراحل»، وأخذت تتفكر في زهور الأضاليا في المسكبة الكبيرة، تتساءل وماذا عن زهور العام القادم، وهل سمع باللقب الذي أطلقه الأطفال على تشارلز تانسلي. الملحد، كذا لقبوه، الملحد الضئيل. «هو ليس بالعينة المصقولة»، قال السيد رامزي. «أبعَد ما يكون عنها»، قالت السيدة رامزي.

أظن من الأفضل تركه وشأنه يتدبّر أموره، قالت السيدة رامزي، متسائلة ما النفع من إرسالها بذور البصل هنا؛ أتراهم زرعوه؟ «أوه، لديه أطروحة يكتبها،» قال السيد رامزي. هي على تمام العلم **بهذا**، قالت السيدة رامزي. فهو لا يتحدث عن موضوع آخر سواه. عن تأثير شخصٍ ما على شيءٍ ما. «عدا أطروحته، لا يملك شيئاً آخر يستند عليه،» قال السيد رامزي. «أدعو السماء ألا يقع في غرام برو،» قالت السيدة رامزي. سيحرمها من الميراث إن فعلت، قال السيد رامزي. عيناه ما كانتا على الزهور التي تتفكر زوجته بشأنها، بل على موضعٍ أعلاها بقدمٍ ونيّف. لا يشكو من شيء، أردف قائلاً، وكان على وشك أن يقول إنَّه على أيّة حال فهو الشاب اليافع الوحيد في إنجلترا بأسرها من أعجب بـ - إلّا أنه ابتلع كلامه. ما كان ليزعجها مرة أخرى بشأن كتبه. هذه الأزهار جديرة بالثناء، قال السيد رامزي ما أن أخفض عينيه وتنبّه إلى شيءٍ أحمر، شيءٍ بني. معه حق، إلا

أن تلك الأزهار هي من غرستها بيديها، قالت السيدة رامزي. السؤال الذي يطرح نفسه الآن، ما الذي حدث لزهور البصل التي أرسلتها هنا؛ هل غرسها كينيدي؟ العلة في كسله العضال؛ أردفت قائلة، تخطو قدماً. حتى إن وقفت على رأسه طيلة النهار مع رفشٍ في يدها، فبالكاد ينجز شيئاً. وهكذا مضيا في النزهة، نحو زهور سوسن الشعلة. «أنت تعلّمين بناتك على المبالغة»، قال لها السيد رامزي، يؤنبها. خالتها كاميلّا كانت أسوأ منها بكثير، عقبت السيدة رامزي. «لا أذكر أنَّ أحداً نصّب خالتك مثالاً للفضيلة»، قال السيد رامزي. «كانت أجمل امرأة عرفتها في حياتي»، قالت السيدة رامزي. «أعرف امرأة أخرى أجمل منها»، قال السيد رامزي. برو ستغدو أجمل منها بكثير، قالت السيدة رامزي. ما رأى أثراً لهذا الجمال الفائق، قال السيد رامزي. «حسنٌ إذن، تأملها الليلة»، قالت السيدة رامزي. توقفا برهة. تمنى لو بيده أن يحث آندرو على بذل جهدٍ أكبر. وإلا سيخسر كلّ فرصة لنيل منحة دراسية. «آه، المنح!» قالت السيدة رامزي. ورأى السيد رامزي شيئاً من الحماقة في ردة فعلها هذه، على موضوعٍ جدّي مثل المنح. سيكون فخوراً جداً بآندرو إن نال منحة. وأجابته بأنها ستكون فخورة به حتى وإن لن ينالها. لطالما اختلفا حول هذا الأمر، لكن ما همّها. فهي أحبّت فيه إيمانه بالمنح الدراسية، وهو أحب فيها فخرها بآندرو بكل أحواله. وفجأة تذكرت كلّ تلك المجازات الضيقة على الجرف.

أليس الوقت متأخراً؟ سألته. لم يعودوا إلى البيت بعد. بنقرة سريعة فتح ساعته، لا مبالياً. لكن الساعة لمّا تتجاوز السابعة. ظلّ ممسكاً بالساعة في يده لدقيقة، عاقداً عزمه على أن يشاركها المشاعر التي راودته أثناء مشيه على المصطبة. أولاً طمأنها، أن من غير المنطقي أن ينتابها القلق إلى هذا الحد. فآندرو قادرٌ على الاعتناء بنفسه. من ثم، أراد أن يسر إليها بأنه لدى مشيه على المصطبة للتو - لكن انتابه عدم الارتياح، وكأنما سيقتحم عليها عزلتها، نأيها، بعدها عنه. لكنها ألحت عليه. ما الذي يريد أن يُسرّ به إليها، سألته، ظناً منها أنه لا بُدّ سيتحدث عن رحلة المنارة؛ إلى أيّ حدٍّ هو آسف على قوله، «اللعنة عليك». لكن لا. لا يطيق رؤيتها حزينة هكذا، قال لها. كانت سارحة في خيالها وحسب، قالت معترضة، وجنتاها تتوردان. كلاهما شعر بعدم الارتياح، وكأنما لم يعرفا إن كان عليهما المضيّ قُدماً، أو العودة أدراجهما. كانت تقرأ حكاية خيالية على جيمس، قالت له. لا، ليس بوسعهما مشاركته؛ ليس بوسعهما قوله.

كانا قد بلغا الفجوة بين أجمتَي زهور سوسن الشعلة، وهناك تجلت المنارة مرة أخرى، لكن ما كانت لتدع نفسها تنظر إليها. ولو أنها عرفت بتأمله إياها، دار في خلدها، لما سمحت لنفسها

بالجلوس هكذا، والتفكر. وقد كرهت أي شيءٍ يذكّرها بأن أحدهم قد رآها لدى جلوسها تتفكر. لذا استدارت ونظرت خلف كتفيها، صوب البلدة. رأت الأضواء مترقرقة منسابة مثل قطرات فضّية من الماء محمولة بثبات على أكفّ الريح. وكل هذا الفقر، كلّ هذه المعاناة، استحالت إلى تلك القطرات. أضواء البلدة والمرفأ والقوارب بدت خيوطاً في طيف شبكة تعوم هناك كي تدل على الشيء الذي غرق. حسنٌ، إن لم تود مشاركته أفكارها، قال السيد رامزي في نفسه، سيسرح هو الآخر، في أفكاره. أراد أن يواصل تأملاته، يردّد على نفسه قصة هومه وكيف علق في المرحاض؛ أراد أن يضحك. لكن بادئ ذي بدء، من السخافة القلق على آندرو. فحين كان في عمر آندرو اعتاد على التجوال في أرجاء الريف طوال اليوم، لا شيء في جيبه سوى قطعة بسكويت ولا أحد قطّ اكترث له، ولا قلق من سقوطه من على حافة جرف. جهراً قال إنه يفكر بقضاء الغد كاملاً يتنزه إن كان الطقس ملائماً، فقد فاض به الكيل من بانكس وكارمايكل. سيود الاختلاء إلى نفسه في عزلة. أجل، قالت له. وكم أزعجه عدم اعتراضها. فهي أدرى بأنه أبداً لن يفعلها. فقد تقدم به العمر الآن وما عاد قادراً على التجوال طوال اليوم مع قطعة بسكويت وحسب في جيبه. قلقها ينصبّ على الأولاد وحسب، لا عليه. قبل أعوام، قبل زواجه، خطر له، يتأمل الجون أمامهما، واقفَين بين أجمتَي زهور سوسن الشعلة، اعتاد على التجوال طوال اليوم. يقتات على خبزٍ وجبن في بيتٍ عمومي. يعمل كادحاً عشر ساعات دون راحة؛ امرأة عجوز تطلّ عليه بين الفينة والأخرى ترقب النار. تلك كانت البلدة التي أحبّ، هناك؛ تلك التلال الرملية تتضاءل في الظلمة. كان للمرء أن يمشي طوال اليوم ولا يلتقي بروحٍ أخرى. ونادراً ما لمح على مدِّ النظر، لأميالٍ وأميال، بيتاً أو قرية. وكان للمرء أن يعالج قلقه وحده، وهناك شطآنٌ رملية صغيرة ما سبق لأحدٍ أن وطئها منذ بدء الخليقة. الفقمات تنتصب وتحدّق بك. وأحياناً بدا له أن في بيتٍ صغيرٍ هناك، وحده، سيتسنّى له - وقطع دابر الفكرة، متنهّداً. ليس من حقّه. هو أب الأطفال الثمانية - عاد وذكّر نفسه. كانت وحشيّةً منه وخِسّة أنه تمنّى لشيءٍ واحد أن يتبدل. وآندرو سيكبر ويغدو رجلاً خيراً منه. وبرو ستغدو آية في الجمال، كما قالت أمها. وكلاهما سيساعد قليلاً ويرقّآن هذا الفيضان. وهو لإنجازٌ رائع في مجمله - أطفاله الثمانية. فقد أثبتوا له أن هذا الكون الضئيل البائس ليس بأسره ملعوناً، إذ في أمسيةٍ كهذه، يتأمّل البر ينكمش وينكمش، فالجزيرة الصغيرة بدت ضئيلة مثيرة للشفقة، نصف مبلوعة في بطن البحر.

«يا له من مكانٍ ضئيلٍ بائس».

سمعته. وهي لعادته التلفظ بأشد العبارات كآبةً، غير أنها قد لاحظت عليه أنه ما أن ينطق بها يبتهج على الفور. فابتداع عبارات كهذه هي لعبة يلهو بها، إذ لو أنها كانت تقول نصف ما يقول، لأطلقت النار على رأسها.

كم أزعجها، ابتداعه عبارات كهذه، فقالت له، إنّ في واقع الأمر، الأمسية جميلة على نحوٍ مثالي. وعلامَ تذمره هذا، سألته، شبه ضاحكة، شبه شاكية، إذ خمنت ما يدور في خلده - أنه كان سيكتب كتباً أفضل لو لم يكن رجلاً متزوجاً.

لم يكن يتذمر، قال لها. هي تعرف أنه لا يتذمر. لأنها تعرف أن لا شيء هناك يتذمر منه. قبض على يدها، رفعها إلى شفتيه ولثمها بقبلةٍ حميمية أدمعت عينيها، وبسرعة أفلتها.

أدارا ظهريهما للمنظر وهَمّا بأن يسيرا معاً أعلى المجاز حيث تنمو النباتات الخضر الفضية الشبيهة بالرماح، ذراعه بذراعها. ما أشبه ذراعه بذراع شابٍ يافع، دار في خلدها، نحيفة وصلبة، وخطر لها مبتهجة كيف أنه لا يزال قوياً، رغم تجاوزه الستين، كيف لا يزال جامحاً ومتفائلاً، وكيف من الغريب، رغم اقتناعه بكل أهوال الدنيا، فاقتناعه هذا لا يحبطه، بل يبهجه. وأليس من الغريب؟ حقاً لطالما بدا لها معجوناً من طينةٍ أخرى غير بقية الناس، وُلد أعمىً، أصمّاً، غافلاً عن كلّ ما هو طبيعي في الحياة، أما كلّ ما هو استثنائي، فعيناه تبصرانه كما الصقر. فهمه لتلك الأمور دوماً ما يذهلها. لكن هل تراه لاحظ الأزهار؟ كلا. لاحظ المنظر؟ كلا. هل لاحظ حتى أمارات الجمال على ابنته، أو إذا ما كان بودنغ أم لحماً مشويّاً الموجود على صحنه؟ كلا. يجلس معهم إلى المائدة وكأنه مستغرقٌ في حلم. أما حديثه بصوتٍ عالٍ، إلقاؤه القصائد بصوتٍ جهور، فقد باتت عادة متأصلة لديه، وقد خافت عليه؛ إذ أحياناً كان من المحرج -

يا خير الأيّام وأشرقها، أقبلي عليّ

المسكينة الآنسة غيدنغز، حين صاح في وجهها بهذا البيت، روحها كادت تقفز فزعاً من جلدها. غير أنَّ السيدة رامزي، وإن كانت دوماً ستقف في صفه بلا تردد ضد كلّ الغيدنغز السخيفات في العالم، فقد دار في خلدها، حينئذ، تُلمّح بتربيت رقيق على ذراعه إلى أنه يسير أعلى التل في سرعةٍ تفوق سرعتها، وأن عليها التوقف للحظة كي ترى إن كانت تلك الأكوام الترابية على الضفة تلالاً خلدية حديثة، حينئذ، دار في خلدها، تُطأطئ رأسها كي تنظر ملياً، أنَّ عقلاً عظيماً مثل عقله لا

بُدّ مختلفٌ بكلّيته عن عقولنا. فكل الرجال العظماء الذين تعرفهم، قالت في نفسها، جازمة بأن أرنباً لا بُدّ قد دخل إحداها، هم كذلك، ولكم استفاد الشباب اليافع (رغم أن أجواء قاعة المحاضرة المكتظة والخانقة تحبطها إلى حدٍّ يتجاوز قدرتها على التحمل) من مجرد الاستماع إليه، النظر إليه. لكن إن لم تطلق النار على الأرانب، فكيف عساها تتخلص منها؟ لعله أرنب؛ لعله خلد. أيّاً كان، فمخلوقٌ دمَّر زهور أمسيات الربيع. وما أن رفعت عينيها، هنالك، في الأعالي، عبر غصون الأشجار النحيلة، حتّى رأت الومضة الأولى لنجمٍ متلألئ، واعترتها الرغبة بدفع زوجها إلى أن يراها؛ فالمنظر أدخل على قلبها بهجةً عارمة. إلا أنها لجمت نفسها. هو أبداً لن ينظر إلى أشياء كهذه. وإن فعل، فكل ما سيقوله حينها، يا له من عالمٍ بائس، ويرفق تعليقه بتنهيدة من تنهيداته.

في تلك اللحظة قال، «جميلةٌ جداً»، فقط كي يرضيها، مدعيّاً إعجابه بالأزهار. غير أنها أدرى بأنه لم يعجب بالأزهار، ولا حتى أصلاً مدركٌ لوجودها. قالها فقط كي يرضيها. آه، لكن أليست هذه ليلي بريسكو تتنزه برفقة ويليام بانكس؟ ركزت بصرها الحسير على الظهرين العائدين أدراجهما. أجل، هذان هما. ألا يعني هذا أنهما سيتزوجان؟ أجل، لا بُدّ لهما! يا لها من فكرة رائعة! لا بُدّ أن يتزوجا!

الفصل الثالث عشر

قد سافر إلى أمستردام، قال السيد بانكس فيما كان يتنزه عبر المرجة برفقة ليلي بريسكو. وقد شاهد لوحات رامبرانت. هو سافر أيضاً إلى مدريد. لكن للأسف صودف وجوده مع حلول يوم الجمعة الحزينة ومتحف البرادو كان مغلقاً. وقد سافر إلى روما. هل سبق للآنسة بريسكو أن سافرت إلى روما؟ أوه، لا بُدّ أن تذهب - ستكون تجربةً مذهلة لها - كنيسة سيستين؛ مايكل آنجلو؛ ومدينة بادوا وجداريات جيوتو. فزوجته عاشت أعواماً عديدة موهنة الصحة، لهذا فأنّ تجوالهما السياحي انحصر في هذا النطاق المتواضع.

قد سافرت إلى بروكسل؛ وكذلك إلى باريس لكن في زيارة خاطفة كي تزور عمةً مريضة. وقد سافرت أيضاً إلى دريسدن؛ وهناك عددٌ مهول من اللوحات لم ترها؛ عدا أنها، تفكرت ليلي متأملة، لربّما خيرٌ لها ألّا تراها: فرؤيتها لن تبعث في نفسها سوى اليأس وعدم الرضا عن أعمالها. السيد بانكس رأى أن من التطرف اعتناق وجهة النظر هذه. إذ ليس مقدرٌ لنا جميعاً أن نكون جبابرة، أن نكون جميعنا داروين؛ ولعلمك، فالجبابرة وأمثال داروين ما كان ليكون لهم وجودٌ في حياتك لولا وجود الأناس المتواضعين من أمثالنا. واللحظة ساورت ليلي الرغبة بإطرائه؛ أنت لست بالمتواضع، سيد بانكس، لرغبت بقول هذا. غير أنه لا يطلب المديح (وإن كان معظم الرجال يسعون إليه)، واعتراها الخجل من تلك الاندفاعة فما قالت شيئاً وأصغت إليه يبدي ملاحظته أنَّ لربّما ما قاله للتو لا ينطبق على اللوحات. على أيّة حال، قالت ليلي، تومئ بثقة كاذبة، هي دوماً سترسم، لأن الرسم يثير اهتمامها. هو واثقٌ من ذلك، قال السيد بانكس، ولدى بلوغهما نهاية المرجة وسؤاله إياها إن كانت تواجه صعوبة في إيجاد مواضيع ترسم عنها في لندن، استدارا وإذ بهما يلمحان السيد والسيدة رامزي. إذن هذا هو الزواج، قالت ليلي في نفسها، رجلٌ وامرأة يتأملان معاً طفلة ترمي بالكرة. هذا ما حاولت السيدة رامزي قوله إليّ تلك الليلة. إذ ها هي في شالها الأخضر، تقف وزوجها متقاربَين، يشاهدان برو وجاسبر يتبادلان رمي الكرة. فجأةً وإذا بالمعنى، الذي بلا أيّ مسبب على الإطلاق قد يهبط على امرئٍ يغادر محطة الأنفاق أو يقف على عتبة بيت يرنّ جرس الباب، فيصيّره رمزاً،

أنموذجاً، كذلك هبط عليهما المعنى، فصيّرهما، واقفَين في ساعة الغسق هذه، رمز الزواج، الرجل وزوجته. من ثم، بعد لحظة، الهالة الرمزية التي اكتستهما، تسمو بهما عن الوجود المادي، انحسرت عنهما، وعادا، ما أن التقيا بهما، إلى السيد والسيدة رامزي يشاهدان طفليهما يتبادلان رمي الكرة. ومع ذلك، للحظة، رغم أن السيدة رامزي حيّتهما بابتسامتها المعتادة (أوه، لا بُدّ أنها تظن أننا سنتزوج لا محالة، قالت ليلي في نفسها) قائلة، «قد انتصرت الليلة»، بمعنى أنَّ السيد بانكس قد وافق أخيراً على تناول العشاء برفقتهم عوضاً عن المغادرة سريعاً إلى محل إقامته حيث يطهو خادمه الشخصي الخضار على نحوٍ ملائم؛ فمع ذلك، للحظة، ساد الأجواء شعورٌ بالتشظي، رحابة الفضاء، اللامسؤولية، مع تحليق الكرة عالياً في السماء، والكلّ يلحقها بعينيه ويضيّعها ما أن تقع عيناه على النجم المتلألئ يومض عبر الأغصان المنسدلة. في عتمة الضوء هذه الكل بدا أثيرياً حادّ الزوايا، مسافاتٌ عظيمة تفصل بينهم. من ثم، مندفعة للوراء كما السهم على الأرض الرحبة (إذ بدا وكأنما أجواء التضامن قد تلاشت)، جرت برو بكامل سرعتها تجاه أبويها وبمنتهى البراعة التقطت الكرة الطائرة في الهواء بيدها اليسرى، فسألتها أمها، «ألم يأتوا بعد؟» وعلى وقع سؤالها انكسر السحر. بات بيد السيد رامزي الآن أن ينفجر ضاحكاً على تصوره هومه يعلق في المرحاض وامرأة عجوز تنقذه شريطة أن يردّد صلوات الربّ، وراح يدلف عائداً إلى مكتبه، يزقزق في نفسه. السيدة رامزي، وقد استدعت برو كي تواصل لعبة رمي الكرة، بعد أن كادت تهرب منها، سألتها،

«هل ذهبت نانسي برفقتهم؟»

الفصل الرابع عشر

(طبعاً، نانسي قد رافقتهم، فمنتا دويل قد رجتها المجيء بنظرتها البلهاء، تمدّ لها يدها، فيما لاذت نانسي بالفرار، فوراً بعد الغداء، إلى علّيتها، كي تنجو بنفسها من أهوال الحياة العائلية. فافترضت أنها لا بُدّ أن ترافقهم. هي لم تُرد الذهاب. هي لم تُرد البتّة التورط في الأمر. إذ طوال سيرهما على الطريق نحو الجرف ما انفكّت منتا تُمسك بيدها. من ثم تفلتها. من ثم تعود وتُمسك بها مرّة أخرى. وما الذي تريده؟ نانسي سألت نفسها. يقيناً، هنالك شيءٌ ما، شيءٌ يريده الناس؛ إذ كلما أمسكت منتا بيدها وضمتها، فنانسي، وإن كارهة، أبصرت العالم بأسره ينبسط عند قدميها، وكأنما القسطنطينية قد تجلت أمامها مغمورةً في سديمٍ ضبابيّ، ومهما خزَّرت عينيها، فعليها أن تتساءل، «أتُراها سانتا صوفيا؟»، «أتُراه القرن الذهبي؟» لذا نانسي سألت، ما أن أمسكت منتا بيدها. «ما الذي تريده، أهذا ما تريد؟» لكن ما عساه يكون هذا؟ وإذ من هنا وهناك، ينبثق من غمامة الضباب (نانسي تنظر للأسفل نحو الحياة تنبسط عند قدميها) برجٌ مستدق، قبةٌ عالية؛ أشياء بارزة، لا تحمل أسماءً. لكن ما أن أفلتت منتا يدها، لدى جريهما على جانب التلّ، فكل هذا، القبة، البرج، وكل ما برز من الضباب، عاد انغمر فيه واختفى. منتا، كما لاحظها آندرو، تجيد المشي في النُزه. فهي ترتدي ملابس أكثر ملاءمةً مما ترتديه معظم النساء. تتنزّه في تنانير قصيرة جداً وشراويل سوداء. تقفز مباشرةً إلى الجدول وتتخبّط في مائه. أُعجب بطيشها، عدا أنه رأى أن طيشها لن ينفعها - فيوماً ما ستلقى حتفها بطريقةٍ غبية أو أخرى. بدا عليها أنها لا تهاب شيئاً - عدا الثيران. ما أن تلمح ثوراً في حقل تهرع صارخةً تؤرجح ذراعيها في الهواء، التصرف الذي من المؤكد سيهيّج الثور. لكنها على الأقل تعترف بخوفها هذا ولا تخفيه؛ وعلى المرء أن يقرّ لها بهذا. هي تعرف بأنها جدّ جبانة فيما يخص الثيران، كذا قالت. في ظنها أن ثوراً لا بُدّ قد نطح عربة الأطفال وأطاح بها حين كانت رضيعة. لم يبدُ عليها أنها تمانع ما يصدر عنها من أفعال وأقوال. وها هي فجأة ترمي بنفسها على حافة الجرف تصدح بالغناء

ألا اللعنة على عينيك، ألا اللعنة على عينيك

والكل وجد نفسه ينضم إليها في غناء المذهب، يصيحون معاً:

ألا اللعنة على عينيك، ألا اللعنة على عينيك،

لكن يا لها من كارثة إن تركوا المدَّ يغمر كلّ بقع الصيد الجيدة قبل وصولهم الشاطئ.

«كارثة»، وافقه بول، يثِبُ كما الزنبرك، وفيما مضوا يسيرون أسفل المجازات المتعرجة، ما برح بول يقتبس من الدليل السياحي عن «تلك الجزر الشهيرة بمناظرها الطبيعية الشبيهة بالمنتزهات وسواحلها الممتدة الزاخرة بعجائب الطبيعة البحرية المتنوعة». لا لن يجدي الحال هكذا، مع كلّ هذا الصراخ ولعن الأعين، جال في خلد آندرو، يتلمس طريقه أسفل الجرف، هذا التربيت على ظهره، مناداته «يا صاح» وكل هذا؛ لا، لن يجدي الحال هكذا. هذا أسوأ ما في اصطحاب النساء إلى نُزه المشي. ما أن بلغوا الشاطئ حتّى تفرقوا، هو مضى في طريقه إلى بوبس نوز، خلع فردتي حذائه، دسَّ فيهما جوربيه تاركاً الزوجين يعتنيان بنفسيهما؛ نانسي خوّضت في الصخور تبحث في بركها تاركةً الزوجين يعتنيان بنفسيهما. ربضت بين الصخور تتلمس شقائق البحر، ملمسها مطاطيٌّ ناعم، ملتصقة كما كتل الحلوى الهلامية على جانب الصخرة. مستغرقة في تأملات كئيبة، صيّرت البركة بحراً، صيّرت أسماك المنوة أسماك قرشٍ وحيتان، برفعها يديها مقابل الشمس ظللت غمامة سوداء على هذا العالم الصغير، تستجلب الظلمة والهجران، وكأنها الربّ نفسه، على ملايين المخلوقات الصغيرة الجاهلة، ومن ثم، بغتة، سحبت يديها ودعت ضياء الشمس يندفق. وهناك، على الرمال المتصالبة الشاحبة، رأته يتبختر في خيلاء، مُهدَّباً، مُدرَّعاً، لوياثانٌ هائل (لا تزال تضخّم البركة)، ينسل إلى الصدوع الضخمة على جانب الجبل. ومن ثم، عيناها تنسابان على سطح البركة بلا وعيٍ منها وتستقرّان على ذاك الخطّ المتذبذب بين البحر والسماء، على جذوع الأشجار المرتعشة في الأفق إثر الأبخرة المتصاعدة عن السفن البخارية، مع إحساسها بكل هذه القوّة، تنجرف فيها بضراوة وتنحسر عنها، وعيها بالاتساع والتقلص يزهران في قلب هذه القوّة (فالبركة عادت وتقلّصت من جديد) تسمَّرت في مكانها، مقيّدة من قدميها ويديها، عاجزة عن الحراك تحت وطأة المشاعر الجارفة التي اجتاحتها وقلَّصت جسدها، قلَّصت حياتها، وحياة كلّ البشر، في العالم بأسره، وللأبد، إلى لا شيء. لذا، جالسة تربض في البركة، تُصغي إلى الأمواج، استغرقت في تأملات كئيبة.

وآندرو صاح إنَّ البحر قادم، فوثبت ترشرش في طريقها الأمواج الضحلة على الساحل تركض أعلى الشاطئ مدفوعةً بطيشها ورغبتها العارمة في البقاء نشطة إلى خلف صخرة - يا للسماء! بول ومنتا في ذراعي بعض، على الأرجح يتبادلان القبل. غاضبة، ساخطة. هي وآندرو ارتديا جواربيهما وحذائيهما في صمتٍ رهيب وما نبسا بكلمة عما جرى. في الواقع باتا نزِقين تجاه بعضيهما. أما كان بإمكانها أن تنادي عليه حين وجدت جراد البحر أو ما شابه، تذمّر آندرو. غير أنَّ كليهما ساوره الشعور بأن ما حدث ليس بخطئهما. لا أحد منهما رغب بوقوع هذا الإزعاج البغيض. ومع ذلك كله فقد استثار غضب آندرو كون نانسي امرأة، واستثار غضب نانسي كون آندرو رجلاً، ومعاً ربطا خيوط حذائيهما بأناقة وشدّا العقدة بكل إحكام.

وقبل أن يتسلق الجميع قمّة الجرف مرة أخرى صاحت منتا إنها أضاعت مشبك جدتها - مشبك جدتها، الحلية الوحيدة التي تمتلكها - على هيئة شجرة صفصاف، (لا بُدّ أنهم يتذكرونه) ومرصعٌ باللؤلؤ. لا بُدّ قد رؤوه، قالت منتحبة، دموعها تنساب على وجنتيها، المشبك الذي اعتادت جدتها تثبيت قلنسوتها به حتى آخر يومٍ من حياتها. والآن قد أضاعته. ولآثرت فقدان أي شيء آخر عداه! ستعود أدراجها وتبحث عنه. وجميعهم عادوا أدراجهم معها. نخسوا الرمل وحدقوا. أبقوا رؤوسهم منكسة، يتبادلون عبارات قصيرة في نبرةٍ فظة. وكما المجنون بحث بول رايلي حوالي الصخرة حيث جلسا. كلّ هذا الاهتياج حول المشبك ما كان سيجدي، دار في خلد آندرو، ما أن قال له بول أن «يفتش المكان تفتيشاً دقيق بين هذه النقطة وتلك». فالمد قادمٌ لا محالة، وعاجلاً. وفي ظرف دقيقة، سيغمر البحر البقعة حيث جلسا معاً. لا شذرة أمل أصلاً لديهم في العثور عليه. «سننقطع هنا!» زعقت منتا، وقد انتابها فزعٌ مفاجئ. وكأنما هناك خطرٌ أصلاً في وقوع شيءٍ كهذا! هو ذات الفزع الذي يصيبها مع الثيران - وخطر إلى آندرو كيف أنها لا تملك أيّة سيطرة على مشاعرها. النساء أصلاً لا يملكنها. كان على بول المسكين أن يهدّئ من روعها. الرجلان (إذ حالاً آندرو وبول تقمصا دورهما الرجولي، يتصرفان على غير عادتهما) تشاورا للحظات وقررا أنهما سيغرسان عصا رايلي في البقعة حيث جلس ومنتا وسيعودان متى ما انحسر البحر. ما من شيءٍ آخر بيدهما فعله. وإن كان المشبك هناك، فسيظل هناك في الصباح، قالا يطمئنانها، إلا أنَّ منتا ما كفّت عن النحيب، طوال الطريق نحو أعلى الجرف. فقد كان مشبك جدتها؛ وقد آثرت فقدان أي شيء آخر عداه، إلا أنَّ نانسي استشعرت، أنها حتى وإن كانت صدقاً تبكي فقدان مشبك جدتها، فبكاء

منتا لم يكن عليه وحسب. هي تبكي على شيءٍ آخر. ولعل الأجدر بنا جميعاً أن نجلس ونبكي. لكن ما كانت نانسي لتعرف علام سيبكون.

في طريق العودة تقاربا، بول ومنتا، وطمأنها، قائلاً إنه معروفٌ عنه قدرته على إيجاد الأشياء. مرةً حين كان صبيّاً صغيراً عثر على ساعةٍ ذهبية. سينهض ما أن ينفلق الصبح، وكله يقين أنه سيعثر عليه. وطرأ على باله أنَّ الأجواء حينها ستكون شبه مظلمة، وسيكون وحده على الشاطئ، ونوعاً ما الوضع سيكون خطراً. بيد أنه قال لها، إنه بلا شكٍّ سيعثر عليه، وأجابته بأنها لن تقبل بنهوضه ساعة الفجر: فقد ضاع: هي موقنة: فقد أنبأها إحساسٌ داخلي بفقده ما أن ارتدته هذه الظهيرة. إلا أنه عقد العزم، بينه وبين نفسه، أن ينسل خارج البيت ساعة الفجر والجميع نيام وإن لم يعثر عليه فسيذهب إلى أدنبرة ويقتني لها مشبكاً آخر، شبيهاً به ويفوقه جمالاً. سيثبت لها أن بيده التصرف. وما أن صعدوا التل ولمحوا أضواء البلدة أسفلهم، رأى في بزوغ الأضواء أمامه ضوءاً تلو ضوء كلّ الأمور المقدّر لها أن تحدث في حياته - زواجه، أطفاله، بيته؛ ومرة أخرى، دار في خلده، ما أن بلغوا الطريق الرئيسي، المظلل بشجيرات عالية، كيف أنهما معاً سيلوذان إلى عزلتهما، ويمضيان قُدماً وقُدماً في مسيرهما، هو يقودها دوماً، وهي تلحق به بخطوة (كما تفعل الآن). ما أن انعطفوا عند مفترق الطرق تَفكّر في التجربة المروعة التي خاضها للتو، أنَّ لا بُدّ له أن يفصح عن مكنون صدره لأحد - السيدة رامزي بالطبع، إذ يسلب أنفاسه مجرد التفكير بمن كان وما صنع. فهي أسوأ لحظة في حياته، أسوأ من أيّ شيءٍ عاشه، لحظة طلبه الزواج من منتا. سيتوجه فوراً إلى السيدة رامزي، لأن شعوراً ساوره بأنها هي الشخص الذي أجبره على فعل ذلك. جعلته يظن أن بيده فعل أي شيء. فلا أحد آخر يأخذه على محمل الجدية. إلا أنها جعلته يؤمن بأن بيده فعل أي شيءٍ يريد. ما انفكّ يشعر بها تلاحقه بعينيها طوال اليوم، (مع أنها ما نطقت بكلمة) وكأنما تقول له، «أجل، بيدك. كلّي ثقة بك. أتوقّعه منك». هي أثارت فيه كلّ هذه المشاعر، وفوراً ما أن يعودوا (ظل يبحث عن أضواء البيت من أعلى الجون) سيتوجه مباشرةً إليها ويقول، «قد فعلتها، سيدة رامزي؛ والفضل يعود إليك». وبذا ما أن انعطفوا على الدرب المؤدي إلى البيت، حتّى انجلت له أضواء متحركة من خلف النوافذ العلوية. لقد وصلوا متأخرين جداً. الجميع يستعد لتناول العشاء. البيت بأكمله مضاء، والأضواء من بعد العتمة أبهرت عينيه، فأخذ يردّد في نفسه، كما الطفل، في طريقه أعلى الدرب، **أضواء، أضواء، أضواء**، يكرّرها مشدوهاً، **أضواء، أضواء، أضواء**، وما أن وصلوا

البيت حتى الكل أخذ يحدّق به وبوجهه المتصلب. لكن يا للسماء، قال في نفسه، وهو يضع يده على ربطة عنقه، فلأحرص على ألّا أحرج نفسي).

الفصل الخامس عشر

«أجل»، قالت برو، تجيب سؤال أمها، كما هي عادتها، في حسّها المراعي للآخرين، «أظن نانسي قد ذهبت برفقتهم».

الفصل السادس عشر

حسنٌ إذن، نانسي قد ذهبت برفقتهم، وتفكّرت السيدة رامزي، محتارة، فيما تضع الفرشاة جانباً، تتناول المشط، وتقول، «تفضل»، على طرقٍ في الباب (جاسبر وروز دخلا)، إن كان واقع ذهاب نانسي برفقتهم يقلّل من احتمال أو يزيد من احتمال حدوث شيء ما؛ أقلّ احتمال، شعرت السيدة رامزي، وشعورها غير عقلاني على الإطلاق، إذ لا يُعقل أن يبادوا جميعاً. محالٌ أن يغرقوا جميعاً. ومرةً أخرى وجدت نفسها وحيدة في حضرة عدوتها اللدودة، الحياة.

جاسبر وروز أخبراها أنَّ ملدريد تسألها إن كان عليها أن تؤخر العشاء.

«ولا حتى لأجل ملكة إنجلترا»، أجابت السيدة رامزي في حزمٍ قاطع.

«ولا حتى لأجل إمبراطورة المكسيك»، أردفت ضاحكة، تومئ لجاسبر، فهو قد ورث عن أمه خطيئتها: المبالغة.

وإن روز رغبت، قالت لها، فيما جاسبر ينقل الرسالة، فلها أن تختار لأمها الحليّ التي سترتديها. فمتى ما اجتمع خمسة عشر شخصاً على مائدة العشاء، فليس بيد المرء أن يبقيهم منتظرين إلى الأبد. وفوق خوفها عليهم، أخذ الغيظ يفور في صدرها على تأخرهم؛ تصرفٌ أنانيٌّ منهم، لا سيّما أنهم اختاروا هذه الليلة بالذات كي يتأخروا خارجاً، فيما، في واقع الأمر، هي أرادت لهذا العشاء بالذات أن يكون لطيفاً، الآن وقد وافق السيد بانكس أخيراً على الانضمام إليهم؛ وسيتناولون أروع أطباق ملدريد - البوفاندو[6]. نجاح العشاء اعتمد على تقديم كلّ شيء لحظة جهوزه. اللحم، ورق الغار، والنبيذ - كلّ شيء يجب أن يُطهى في وقته باللحظة. التأخر في تقديمه ليس أبداً بخيار. عدا أنهم الليلة، من بين كلّ الليالي، خارجاً ذهبوا، وسيعودون متأخرين، وأطباقٌ لا بُدّ أن تقدم، وأطباقٌ لا بُدّ أن تحفظ دافئة؛ ويخنة البوفاندو حتماً ستفسد.

جاسبر عرض عليها عقداً مرصّعاً بالأوبال؛ روز اختارت لها عقداً ذهبيّاً. أيهما بدا أجمل على فستانها الأسود؟ أيهما حقاً، قالت السيدة رامزي، سارحة، تتأمل عنقها وكتفيها (متفادية وجهها) على صفحة المرآة. ومن ثم، فيما طفلاها ينقّبان في أغراضها، رنت خارج النافذة إلى منظرٍ دائماً ما يمتعها - الغدفان تحاول عقد عزمها على أي شجرةٍ تستقر الليلة. كلّ مرة، ما أن تستقرّ، بدا وكأنها قد بدّلت رأيها، فتعود وتحلّق في السماء، وذلك لأنَّ، كما تصورت في مخيلتها، الغداف المسن، الغداف الأب، الشيخ جوزف الاسم الذي أطلقته عليه، طائرٌ صعب المراس ومزاجيّ. طائرٌ مسنّ بالٍ وزريّ، نصف ريش جناحيه مفقود. أشبه برجلٍ مسنٍ ورثّ دوماً ما تراه يعزف البوق أمام البيت العمومي، معتمراً قبعة رسمية.

«انظرا!» هتفت ضاحكة. يتشاجران. جوزف وماري يتشاجران. على أيّة حال الغدفان عادت وحلّقت في السماء، مندفعة بأجنحتها السود تشقّ الهواء إلى أشكال معقوفة مذهلة. حركة الأجنحة تصفق عالياً، عالياً، عالياً - لاستحال عليها وصفها بدقة تفي بإرضائها - لهو من أجمل المناظر في عينيها. انظري، قالت لروز، آملة أن روز ستبصر بشكلٍ أوضح منها. فالطفل دائماً ما يضفي عمقاً على منظور أبويه.

لكن أيّهما؟ فقد شرَّعا كلّ أدراج صندوق مجوهراتها. العقد الذهبي الإيطالي، أم عقد الأوبال الذي أحضره لها عمها جيمس من الهند؛ أو لربّما يجدر بها ارتداء عقدها المرصع بالجشمت؟

«اختارا، صغيريّ، اختارا»، قالت لهما، آملة بأن يتعجّلا.

غير أنها تركتهما يأخذان وقتهما: هي تركت روز، بالذات، تأخذ وقتها، تتناول هذا وتتناول ذاك، تمسك بالحلية مقابل الفستان الأسود، لأن طقس اختيار الحليّ هذا، على بساطته، والذي تؤديه كلّ ليلة، هو أكثر ما يستهوي روز، وهي تعرف ذلك. فهي لديها سببٌ خفي يخصها وراء تعليقها أهميةً كبرى على اختيارها ما سترتديه أمها. وما عساه يكون هذا السبب، تساءلت السيدة رامزي، تقف بلا حراك كي تدعها تشبك العقد الذي اختارته، تستكشف في ماضيها، ذاك الشعور العميق، الشعور الدفين، المشاعر الصامتة التي تكنّها فتاة في عمر روز لأمها. ومثلما تحزنها المشاعر التي يحملها الآخرون لها، فشعور ابنتها أحزنها. إذ كيف لها أن تفيه حقه، ما الذي بيدها أن تمنحها إياه في المقابل؛ والتصوّر الذي تحمله روز عنها مثاليٌ لا يتلاءم مع حقيقة واقعها. وروز ستكبر؛ وروز ستعاني، مع تلك المشاعر الدفينة، وها هي تخبرهما بأنها جاهزة، في طريقهم للأسفل، وجاسبر،

كونه السيد المهذب، سيمد لها ذراعه، وروز، كونها سيدة، فستحمل منديلها (وقد أعطتها منديلها)، وماذا بعد؟ أوه، أجل، قد يغدو الجو بارداً: شال. اختاري لي شالاً، قالت لروز، من ستسعد بتلبية طلبها هذا، ومقدَّرٌ عليها أن تعاني. «هناك»، قالت لدى وقوفها عند النافذة على مبسط السلم، «ها قد عادوا». جوزف قد استقر على قمّة شجرةٍ أخرى. «ألا تظنهم سيكرهون»، سألت موجهةً حديثها إلى جاسبر، «أن يقصم أحدهم أجنحتها؟» ولم عساه سيرغب بقنص المسكينين الشيخ جوزف وماري؟ راح يدلف متثاقلاً على درجات السلم، إذ شعر بها توبخه، لكن ليس على نحوٍ جديّ، إذ ما أدراها هي بمتعة قنص الطيور؛ والطيور لا تشعر؛ وكونها أمه فهي تعيش بعيداً في بقعة أخرى من العالم، لكن مع هذا كله، هو يهوى الاستماع إلى قصصها عن ماري وجوزف. تثير فيه الضحك. لكن كيف لها أن تتيقن أن هذين الطائرين هما ماري وجوزف؟ أتعتقد حقّاً أن ذات الطيور تحط على ذات الأشجار كلّ ليلة؟ سألها. عدا أن اللحظة، بغتةً، كما هي الحال مع كلّ البالغين، اهتمامها به انقطع. إذ أخذت تنصت إلى أصوات ثرثرة في الردهة.

«قد عادوا!» هتفت، وفوراً خالجها انزعاجٌ فاق ارتياحها. من ثم تساءلت، هل تراه حدث؟ ستنزل للأسفل وسيعلمونها بالخبر - لكن لا. لن يكون بوسعهما إخبارها بأي شيء مع وجود كلّ هؤلاء الناس. لذا عليها الآن أن تنزل للأسفل وتقيم مأدبة العشاء وتنتظر. ومثلها مثل ملكة، ما أن تجد رعاياها واقفين في الردهة في انتظارها، تنظر إليهم من علٍ، تهبط من عليائها إليهم، تقبل بصمت تقدماتهم إليها، خنوعهم وإخلاصهم في حضرتها (بول ما حرّك عضلة في وجهه بل أبقى على نظره مستقيماً لدى مرورها) نزلت إلى الأسفل، قطعت الردهة وأحنت رأسها انحناءة جدّ خفيفة، كأنما تعلن قبولها بما يستحيل عليهم التصريح به: تحية إجلالهم لجمالها.

لكنها توقفت في مكانها. ثمة رائحة شيءٍ يحترق. أتراهم بالغوا في غلي البوفاندو، تساءلت في نفسها، راجيةً السماء ألّا يكون ما تظنه صحيحاً! والجرس العظيم أخذ يقرع، يعلن في وقار، في سلطة، أنَّ على كلّ أولئك المتفرقين في الأنحاء، في العلاليّ، في حجر النوم، الجاثمين في مقاعدهم، يقرؤون، يكتبون، يملسون شعورهم، يزررن أثوابهن، أن يطرحوا بما بين أيديهم الآن، ويتركوها على طاولات الزينة وطاولات الغسيل، يتركوا الروايات على المناضد، والمذكرات الشخصية جداً، ويجتمعوا اللحظة في حجرة الطعام على مائدة العشاء.

الفصل السابع عشر

لكن ما الذي حققتُه في حياتي؟ خطر إلى السيدة رامزي، وهي تأخذ محلها على رأس المائدة، الأطباق دوائر بيض عليها. «ويليام، اجلس جانبي»، دعته قائلة. «ليلي»، في نبرة سئمة، «هناك». هما يحظيان به - بول رايلي ومنتا دويل - أما هي، فهذا وحسب - طاولة ممتدة إلى ما لا نهاية وأطباقٌ وسكاكين. وهنالك في الطرف البعيد زوجها، يجلس، رابضاً كما الركام، مقطّب الحاجبين. وعلام عبوسه؟ لا فكرة لديها. هي حتّى ما مانعت عبوسه. ولا حتّى فهمت كيف لها أن كنَّت له يوماً أية عاطفة أو حب. إحساسٌ غمرها بتجاوزها كلّ شيء، سأمها من كلّ شيء، خروجها من كلّ شيء، فيما وقفت تساعد في تقديم الحساء، وكأنما هنالك دوّامة - هناك - وللمرء أن يكون فيها، أو خارجها، واللحظة هي خارجها. كلّ شيء انتهى، خطر لها، فيما المدعوون يدخلون الواحد تلو الآخر، تشارلز تانسلي - «اجلس هناك، من فضلك»، قالت له - أغسطس كارمايكل - وهنالك جلس. في غضون ذلك انتظرت، في خنوع، أحداً يجيب عن سؤالها، شيئاً يحدث. عدا أنَّ، تغرف الحساء لضيوفها، جال في خلدها، الإجابة التي تنتظرها ليست بالإجابة التي قد ينطق بها أحد.

في استهجان تأملت التناقضات أمامها - هذا ما تتفكر فيه، هذا ما تفعله - تغرف الحساء - إحساسها بات أقوى وأقوى، بأنها اللحظة خارج تلك الدوّامة؛ أو لكأنما عتمةٌ غمرت المكان، سلبت الألوان، فباتت ترى الأمور على حقيقتها. الحجرة (تأملت حواليها) رثة إلى حدٍّ بعيد، ولا أثر البتة لأي جمال. أحجمت عن النظر تجاه تشارلز تانسلي. لا شيء بدا مندمجاً مع ما حوله. كلهم جلسوا منفصلين. وكل المجهود الكبير في خلق أجواء الاندماج والانسيابية وقع على عاتقها. ومرةً أخرى استشعرت، واقعاً من وقائع الحياة، وبلا أية عدائية تضمرها، استشعرت عقم الرجال، إذ إن لم تبذل هي المجهود فلا أحد منهم سيقوم بالمهمة، لذا، تهزّ نفسها هزة صغيرة، الهزة التي يعيد فيها المرء ساعته المعطلة إلى العمل، عاد النبض القديم المألوف يخفق، والساعة عادت تتكّ - واحد، اثنان، ثلاث، واحد، اثنان، ثلاث. وهكذا دواليك، وهكذا دواليك، كررت على نفسها، تنصت إلى خفقه، تحمي النبض الواهن وترعاه مثلما يحمي أحدهم بجريدة شعلةً واهنة من الانطفاء. وبذا، تحادث في

نفسها السيد بانكس، انحنت بصمت تجاهه ـ الرجل المسكين! من لا زوجة له ولا أطفال ويتناول عشاءه وحيداً في مقر إقامته، ما عدا الليلة ـ وإذ تشفق عليه، وفي شفقتها عليه، دبَّ فيها ما يكفي من الحياة، كي تعيد الكرة من جديد، مثل بحَّار، ليس بلا سئمٍ في قلبه، يرقب الريح وقد ملأت شراعه ومع ذلك بالكاد تعتريه الرغبة على معاودة الإبحار، وكل ما يراود خلده، كيف أنَّ، إن غرقت السفينة، فستبتلعه الأمواج وتجرفه في دوامتها، يدور ويدور ويدور، إلى أن تصل به أخيراً إلى مرقد راحته على قاع البحر.

«هل وجدت رسائلك؟ قد أوصيتهم بأن يضعوها لك في الردهة». قالت للسيد بانكس.

ليلي بريسكو راقبتها تنجرف إلى تلك الأرض الغريبة المجهولة حيث يستحيل ملاحقة أي شخصٍ يطؤها بقدمه ومع ذلك فانجرافهم إليها يصيب من يشاهدهم بالقشعريرة حدّ يدفعهم دوماً إلى إبقاء أعينهم عليهم قدر المستطاع مثلما يلاحق امرؤ بعينيه سفينةً تتلاشى إلى أن تغرق أشرعتها في الأفق.

كم بدت مسنّة، كم بدت مرهقة، وكم بدت نائية. من ثم، ما إن التفتت نحو ويليام بانكس، مبتسمة، حتّى بدا وكأنما السفينة عادت أدراجها والشمس نصبت أشرعتها من جديد، وخطر إلى ليلي خاطرٌ مضحك، الآن وقد تنفست الصعداء، ما بالها تشفق عليه؟ ذا الانطباع الذي تركته، ما إن أخبرته بأن رسائله في الردهة. أوه المسكين ويليام بانكس، بدت وكأنما تقول، كأنما من ضمن مهامها الكادحة إبداء الشفقة على الناس، وإشفاقها عليهم هو ما يبعث فيها الحياة، يجدد عزمها على أن تعيش. إلا أن شفقتها ليست في محلها الصحيح، تفكرت ليلي؛ فشفقتها ما هي إلا تجلّياً آخر لسوء حكمها الغريزي والمنبعث من حاجةٍ فيها هي لا من احتياج الناس. إذ لا ذرة فيه تثير الشفقة. لديه عمله، قالت ليلي في نفسها. وإذ تذكرت، مثل من وقع فجأةً على كنز، بأنها هي الأخرى لديها عملها. وفي لمحة أبصرت لوحتها، وقالت في نفسها، أجل، سأضع الشجرة أبعد نحو الوسط؛ وهكذا سأتفادى التعامل مع تلك الفسحة المربكة. هذا ما سأفعل. هو ذا الشيء الذي أربكني طوال تلك المدة. تناولت المملحة ووضعتها فوق نقش زهرة على مفرش الطاولة، كي تذكر نفسها بتحريك الشجرة.

«من الغريب كيف يندر للمرء أن يحصل على شيءٍ يستحق الذكر من البريد، ومع ذلك يتطلع دوماً إلى استلام رسائله»، قال السيد بانكس.

حديثهم اللعين هراءٌ في هراء، قال تانسلي في نفسه، وهو يضع ملعقته تماماً وسط صحنه، الذي بات نظيفاً بعد تناوله الحساء حتّى آخر قطرة، وكأنما، تفكرت ليلي (إذ جلس مقابلها ومن خلفه النافذة، يحجب بظهره قلب المنظر)، مصممٌ على التيقن من تناول كامل وجباته. كلّ ما يتعلق به تشوبه مسحةٌ من الوضاعة، بغيضة وكريهة. لكن مع ذلك كله، ففي واقع الأمر، يصعب على المرء كره أحدٍ فيما ينظر إليه. وهي أعجبت بعينيه؛ زرقاوين، عميقتين، ومخيفتين.

«وماذا عنك سيد تانسلي، هل تكتب رسائل كثيرة؟» سألته السيدة رامزي، مشفقةً عليه هو الآخر، تكهّنت ليلي؛ إذ من صميم طبيعة السيدة رامزي إشفاقها الدائم على الرجال وكأنهم يفتقرون إلى شيء؛ أما النساء فأبداً، وكأنهن يمتلكن كلّ شيء. يراسل أمه؛ عدا ذلك فلا يظن أنه حتّى يكتب رسالةً في الشهر، أجابها السيد تانسلي، في اقتضاب.

إذ ليست في نيته الانحطاط إلى الحديث في هراءٍ كهذا مع تلكم النسوة السخيفات. إذ كان يقرأ مستغرقاً في حجرته، والآن بعد أن نزل وجد كلّ شيء سخيفاً، سطحياً، رديئاً. وعلام الجميع متأنقون؟ هو حضر في ملابسه العادية. فهو لا يملك بدلة سهرة. «يندر على المرء أن يحصل على أي شيء يستحق الذكر من البريد» - عينة من الهراء الذي يتفوهون به دوماً. وهنَّ من يجبرن الرجال على التفوه به. أجل، ما قاله صحيح. إذ لا يحصلون مطلقاً على شيءٍ يستحقّ الذكر من أول العام إلى آخره. ولا يفعلون شيئاً سوى الكلام، الكلام، الكلام، الأكل، الأكل، الأكل. والخطأ كله يقع على المرأة. فالمرأة من صيَّرت قيام الحضارة أمراً مستحيلاً مع كلّ «فتنتها»، كلّ سخافتها.

«لا رحلة غداً إلى المنارة، سيدة رامزي»، قال لها، يثبت وجوده. فهو يهواها؛ معجبٌ بها؛ وصورة الرجل في مصرف المياه يرفع عينيه إليها لمّا تزل عالقة في خاطره؛ إلا أنه شعر أنّ من الضروري أن يُثبت وجوده.

صدقاً هو، تفكّرت ليلي بريسكو، رغم عينيه، لكن ماذا عن أنفه، يديه، أكثر رجل مقيت التقت به في حياتها. إذن لم عساها تكترث لما يقول؟ ليس بوسع المرأة أن تكتب، ليس بوسعها أن ترسم - علام اهتمامها بما يصدر عنه، إذ من الواضح أنه لا يصدق ما يقول لكن لسببٍ ما فالتفوّه به يساعده، ولهذا ما انفكّ يقوله؟ ولم كينونتها بأكملها تنحني، كما سنبلة القمح في وجه الريح، ولا تعود تنتصب من هذا الإذلال إلا بمشقّةٍ أليمة؟ عليها أن تعاود الكرّة. ها هو الغُصين على المفرش؛ وها هي لوحتي؛ عليّ أن أحرّك الشجرة إلى الوسط؛ هذا ما يهم - ولا شيء غيره. أبِيدِها التشبّث بفكرتها

هذه، أبِيدها ألّا تفقد أعصابها، ولا تنجرف إلى النقاش؛ وإن كانت تسعى إلى الانتقام منه ألا يكفيها أن تضحك عليه؟

«أوه سيد تانسلي»، قالت له، «اصطحبني معك إلى المنارة. سأكون سعيدة جداً برفقتك».

كان جليّاً له أنها تكذب عليه. تقول ما لا تعنيه كي تزعجه. لسببٍ ما، تستهزئ به. كان يرتدي بنطاله القطني القديم. فهو لا يملك بنطالاً غيره. وجد نفسه وحيداً، معزولاً، عرضة لقسوة الجميع. كان يدري بأنها لسببٍ ما تحاول إغاظته؛ فلا رغبة لديها بالذهاب معه إلى المنارة؛ فهي تحتقره: وكذلك برو رامزي؛ وكذلك الجميع. لكن ما كان ليسمح لامرأة أن تجعل منه أضحوكة، لذا استدار متعمداً في كرسيه ونظر خارج النافذة قائلاً، مستهزئاً، بوقاحة جمة، أنه سيشق عليها الذهاب غداً. ستمرض لا محالة.

أزعجه اضطراره إلى الحديث في نبرةٍ كهذه في حضور السيدة رامزي. ليتهم تركوه وشأنه يعمل وحده في غرفته، بين كتبه. فهناك يشعر بالارتياح مع نفسه. وما استدان يوماً بنساً من أحد؛ وما كلف أباه بنساً واحداً مذ سن الخامسة عشر؛ ساعد في مصروفات البيت من مدخراته؛ هو من ينفق على تعليم أخته. ومع ذلك، تمنى لو عرف كيف يجيب الآنسة بريسكو بشكلٍ لبق؛ تمنى لو أن إجابته لم تصدر عنه هزواً. «ستمرضين لا محالة». تمنى لو بيده أن يفكر في شيءٍ يقوله للسيدة رامزي، شيء يثبت لها أنه ليس برجلٍ فظّ وحسب. فتلك هي الصورة التي يراه عليها الجميع. استدار نحوها. إلا أن السيدة رامزي كانت مستغرقة في الحديث مع ويليام بانكس عن أشخاصٍ لم يسبق له أن سمع بهم.

«أجل، ارفعيه»، قالت في إيجاز، مقاطعةً حديثها مع ويليام بانكس كي تحادث الخادمة. «لا بُدّ أنه قد مضت خمسة عشر عاماً ـ لا، بل عشرون عاماً مذ التقيت بها آخر مرة»، كذا كانت تقول، تعيد انتباهها إليه بسرعة وكأنما لا تُطيق إضاعة لحظة من كلامهما، إذ كانت مستغرقة تماماً في موضوع الحديث. إذن فقد سمع خبراً عنها هذا المساء! وهل لا تزال كاري تعيش في مارلو، وهل كلّ شيء لا يزال على حاله؟ أوه، لا تزال تتذكر النزهة وكأنها حدثت البارحة ـ على النهر، تشعر به وكأنما وقع البارحة ـ الإبحار على النهر، إحساسها بالبرد القارس. لكن متى ما خططت عائلة ماننغ لرحلة، التزمت بخطتها. أبداً لن تنسى منظر هربرت يقتل دبوراً بملعقة شاي على الضفة! والنزهة لا تزال قائمة، تتأملها السيدة رامزي، تنسل فيها كما الطيف، بين الكراسي والطاولات في

حجرة الاستقبال المطلة على ضفة التايمز حيث شعرت ببردٍ قارس، قارس، قبل عشرين عاماً؛ لكنها الآن تجول فيها طيفاً؛ وقد أذهلها، كيف وإن تغيرت هي ذاك اليوم، فاليوم ذاته ثبت على جماله، وبقي هناك، ساكناً، كلّ تلك الأعوام. وهل كاري من كتبت له الرسالة بنفسها؟ سألَته.

«أجل. وأخبرتني أنهم سيبنون حجرة بلياردو جديدة»، لا! لا! لا يعقل! سيبنون حجرة بلياردو جديدة! فالأمر بدا لها مستحيلاً.

لم يرَ السيد بانكس أية غرابة في قرارهم. فأحوالهم المادية الآن ممتازة. أتودّ منه أن يبعث بسلامها إلى كاري؟

«أوه»، قالت السيدة رامزي، جفِلة، من ثم أردفت، «كلا»، إذ خطر لها أنها لا تعرف كاري تلك التي ستبني حجرة بلياردو جديدة. لكن أليس من الغريب، كررت على السيد بانكس، الذي جلس يستمتع بحديثها، أن عائلةماننغ لا تزال تعيش حتّى الآن. إذ تراه مذهلاً تصوُّرهم يواصلون حياتهم كلّ تلك الأعوام مع أنها طوال تلك المدة ما فكرت بهم إلا مرةً واحدة. هي أيضاً حياتها زخرت بالأحداث على مرّ ذات الأعوام. لكن على الأرجح فكاري ماننغ هي الأخرى لم تفكر بها. الفكرة ذاتها وجدتها غريبة وكريهة.

«سرعان ما ينجرف الناس إلى حيواتهم ويلتهون فيها»، عقّب السيد بانكس، شعورٌ بالرضا يعتريه، كونه لا يزال على صلة وثيقة بكلتا العائلتين، ماننغ ورامزي. لكنه ما انجرف، خطر له، ما إن وضع ملعقته جانباً ومسح شاربيه الحليقين وفق أدقّ قواعد المائدة. لكن لربّما هو الاستثناء؛ فهو لم يسمح لنفسه أن ينجرف ويعلق في رتابة الحياة اليومية. له أصدقاء في كلّ الدوائر ...وهنا كان على السيدة رامزي أن تقاطعه كي تقول شيئاً للخادمة عن إبقاء الطعام حاراً. لهذا فهو يفضل تناول العشاء وحده. فكل تلك المقاطعات تزعجه. حسنٌ إذن، تفكَّر ويليام بانكس، محافظاً على كياسته الرفيعة فيما يبسط أصابع يده اليسرى على المفرش مثل ميكانيكيّ يتفحص في وقت راحته أداةً مصقولة على نحوٍ جميل وجاهزة للاستخدام، هي هذي التضحيات التي يقدمها المرء كرمى لأصدقائه. لكان جرحها رفضه الانضمام إليهم على العشاء. غير أنَّ الأمر لا يستحق العناء. متأملاً يده، خطر له، أنّه لو كان يتناول العشاء وحده لفرغ منه الآن؛ ولبات متفرغاً لمواصلة عمله. أجل، يا له من هدرٍ فظيعٍ للوقت. والأطفال ما زالوا يطلّون برؤوسهم. «أتمنى على أحدكم أن يذهب سريعاً إلى حجرة روجر»، قالت السيدة رامزي. يا للتفاهة، يا للملل، مقارنةً بالشيء الآخر - العمل.

ها هو جالسٌ هنا ينقر مفرش الطاولة بأصابعه فيما كان بإمكانه - وحلّق في مخيلته يلمح عمله من علٍ كما الطائر. يقيناً هدرٌ فظيعٌ للوقت! ومع ذلك، قال في نفسه، هي من أقدم أصدقائي. وفي وجداني أنا مخلصٌ لها. ومع ذلك، فاللحظة وجودها ما عنى شيئاً له على الإطلاق: جمالها ما عنى شيئاً؛ جلوسها برفقة ابنها الصغير جانب النافذة - لا شيء، لا شيء. كلّ ما تمناه أن يترك وحيداً ويتناول ذاك الكتاب. ساوره إحساسٌ بعدم الارتياح؛ كأنما يغدر بها، يجلس جانبها ولا يستشعر أي إحساسٍ تجاهها. الحقيقة هي أنَّ الحياة العائلية لا تستهويه. في مواقف كهذه يجد المرء نفسه يتساءل، لأجل ماذا يعيش؟ لماذا عليه أن يتكبّد كلّ هذه الآلام فقط كي يستمر العرق البشري؟ أهو حتّى عرقٌ مرغوبٌ فيه؟ هل نحن البشر جنسٌ جذاب؟ ليس كثيراً، قال في نفسه، وهو يرمق أولئك الأولاد الفوضويين. المفضلة لديه، كام، على الأرجح هي في فراشها الآن. أسئلة حمقاء، أسئلة عقيمة، أسئلة لا يطرحها المرء على نفسه لو أنَّ لديه ما يشغله. هل هي هذي حياة الإنسان؟ هل تلك حياة الإنسان؟ لا وقت يملكه المرء كي يتفكر في تساؤلات كهذه. لكن ها هو يطرحها الآن على نفسه، لأن السيدة رامزي انشغلت عنه تعطي تعليماتها للخدم، وكذلك، لأنه قد أثَّر في نفسه، كيف فوجئت السيدة رامزي بمواصلة كاريماننغ حياتها، ما يعني أن الصداقات، مهما قويت عراها، هي أشياء هشّة. الكل ينجرف. عاد وأنَّب نفسه. ها هو جالسٌ جانب السيدة رامزي ولا شيء لديه يقوله لها البتة.

«أنا جدّ آسفة»، قالت السيدة رامزي، وقد التفتت أخيراً إليه. انتابه شعورٌ بالتصلب وتبلّد الذهن، مثل فردتي جزمة انتقعتا بالماء وجفّتا وبالكاد لك أن تقحم قدميك فيهما. ومع ذلك لا بُدّ أن يقحم قدميه فيهما. لا بُدّ أن يجبر نفسه على الكلام. وإن لم يلزم الحذر الشديد، فقد تكتشف غدره بها؛ أنه لا يكترث البتة بها، ولن يكون من اللطيف أبداً إدراكها هذا. لذا مال برأسه تجاهها بمنتهى الكياسة.

«لا بُدّ أنك تمقت تناولك العشاء في حديقة الدببة هذه»، قالت له، تتكئ كما هي عادتها، كلما تشتت انتباهها، على لغة آداب السلوك الاجتماعي. وإذ يخطر له، أنَّ متى ما وقع تلاسن، في اجتماعٍ ما، فإن رئيس الجلسة، كيما يبقي على وحدة الشمل، يقترح على ضيوفه تبادل الحديث بالفرنسية. قد تكون الفرنسية لدى البعض ضعيفة؛ ولربّما لا تتضمن الكلمات التي تعبر عن أفكار المتحدث؛ لكن مع ذلك كله فالحديث بالفرنسية يفرض النظام، التماثل بين الجميع. لذا مجيباً إياها بذات لغتها، قال السيد بانكس، «كلا، كلا على الإطلاق»، والسيد تانسلي، من لا معرفة له البتة بهذه اللغة، من يجهل حتّى أبسط مفرداتها ذات المقطع اللفظي الواحد، فوراً شكَّ في مصداقيتها. صدقاً حديثهم هراءٌ في

هراء، قال في نفسه، يتفكر في آل رامزي؛ وانقضّ على المشهد الجاري أمامه ببهجة، يدون ملاحظة في عقله، أنه في يومٍ من الأيام، سيقرأه عالياً، على صديقٍ أو اثنين. وقتذاك، في مجتمعٍ يتسنى فيه للمرء أن يعبّر صراحةً عما يجول في صدره، سيصف ساخراً «أيام إقامته لدى آل رامزي» والهراء الذي خاضوا فيه. سيقول إن الأمر استحق عناء إقامته لديهم مرةً، لكن ليس لمرةٍ أخرى. فالنسوة يضجِرن الرجل، كذا سيقول. بالطبع رامزي قد صاغ لنفسه حياةً رائعة بزواجه من امرأة جميلة وإنجابه ثمانية أطفال. وسيصيغ لنفسه حياةً أشبه بها، لكن الآن، هذه اللحظة، يجلس عالقاً بينهم مع كرسي شاغر إلى جانبه، فلا شيء تشكل بعد. لا تزال قصاصات وفتات. ضيقٌ عارم، عاطفي وجسدي، تبدّى فيه. تاق إلى شخصٍ يمنحه فرصة إثبات وجوده. تاق إليها حدَّ تململه على كرسيه، يرمق هذا، ويرمق ذاك، محاولاً اقتحام أحاديثهم، لكن ما إن يفتح فمه حتّى يغلقه. كانوا يتبادلون الحديث عن صناعة صيد السمك. ولماذا لا أحد منهم طلب رأيه؟ ما أدراهم هم بصيد السمك؟

ليلي بريسكو فطنت لما يجري. يجلس مقابلها، كيف لها ألّا ترى فيه، مثلما تتأمل صورة أشعة، أضلاع وعظامَ رغبة الشاب في ترك انطباعٍ قوي عن نفسه تتربص في سديم جسده المعتم - هذا السديم الرقيق الذي فرضته الأعراف على رغبته المتقدة في اقتحام النقاش؟ لكن، قالت في نفسها، تخزر عينيها الصينيتين، تستذكر استهزاءه بالمرأة، «ليس بوسعها أن ترسم، ليس بوسعها أن تكتب»، لمَ يتوجب عليَّ أنا مساعدته والتخفيف عليه؟

هناك قواعد سلوك، هي تعرف بها، والبند السابع منها (قد يكون السابع) يقول بأن في حالات كهذه يتوجب على المرأة، أياً يكن موقعها، أن تهبّ لمساعدة الشاب الجالس مقابلها على الظهور، على إرخاء عظام فخذيه وأضلع خيلائه، على تنفيس رغبته الملحة على إثبات وجوده؛ مثلما يتوجب على الرجال في المقابل، قالت في نفسها متأملة، في مزاجها العذراوي، أن يهبوا لمساعدتنا، إذا ما، فرضاً، اندلعت النيران في محطة الأنفاق. وقتئذ، من المؤكد سأتوقع من السيد تانسلي أن يهب ويخرجني من النيران. لكن ما الذي سيقع، تفكّرت ليلي، إن لم يفعل أحدنا ما يفترض به فعله وفق قواعد السلوك؟ لذا جلسَت هناك تبتسم.

«لا أظنك تخططين للذهاب إلى المنارة، أليس كذلك، ليلي؟» قالت السيدة رامزي. «أتذكر السيد لانغلي؛ قد جال العالم عشرات المرات، إلا أنه أخبرني أنه ما عانى في رحلةٍ منها قدر معاناته

لدى اصطحاب زوجي إياه إلى هناك. هل أنت بحارٌ ماهر، سيد تانسلي؟»

السيد تانسلي رفع مطرقةً في الهواء: أرجحها عالياً؛ غير أنه أدرك، وهو يهوي بها، أن ليس بيده أن يسحق تلك الفراشة بأداة كهذه، لذا اكتفى بالقول إنه ما سبق له أن مرض في حياته. لكن في قلب هذه الجملة الواحدة كَمَن مضغوطاً، كما البارود، أن جدّه صياد سمك؛ أباه صيدلي؛ أنه شق طريقه في الحياة معتمداً كلياً على نفسه؛ وهو فخورٌ بهذا؛ فخورٌ بأنه تشارلز تانسلي - حقيقة على ما يبدو لا أحد منهم يدركها؛ لكن في يومٍ ما كلّ واحدٍ منهم سيدركها. عبس في وجوههم. حتّى أن الشفقة كادت تأخذه على تلك المخلوقات العقلانية المهذبة، من ستنفجر رؤوسهم يوماً كما رُزم البالات وبراميل التفاح، شظاياها تتطاير في أعالي السماء، بالبارود المكبوت في قلبه.

«هل لك أن تصطحبني، سيد تانسلي؟» قالت ليلي، متعجلة، بلطف، إذ بالطبع، السيدة رامزي قد حثتها على ذلك، وكأنما تقول لها، «عزيزتي، ألا ترين أني أغرق ههنا، في بحور النار. فإن لم تطيّبي ألم قضاء هذه الساعة، هذا الألم المبرح، ببلسم كلمات لطيفة تقولينها لذاك الشاب اليافع، فإن الحياة سترتطم على الصخور - صدقاً، أسمع صريرها وعواءها اللحظة. أعصابي مشدودة كما أوتار كمان، لمسةٌ أخرى وستنقطع» - حين قالت لها السيدة رامزي كلّ هذا، في نظرة عينيها التي رمقتها بها، فبالطبع، وللمرة المائة والخمسين، ستضطر ليلي بريسكو إلى التخلي عن تجربتها - ما الذي سيقع إن لم تتبع القواعد تجاه ذاك الشاب اليافع أمامها - والتصرف بلطف.

حكمه الصحيح على التحول في مزاجها - أنها باتت ودودة معه الآن - نفَّس عن غروره، فأخبرها كيف أن الأمواج قذفت به مرة عن القارب وهو لا يزال طفلاً صغيراً؛ كيف أنَّ أباه اعتاد أن ينتشله من البحر بالعقّافة؛ وأنه هكذا تعلم السباحة. أنَّ أحد أعمامه تولى إنارة الفنار على صخرةٍ ما أو أخرى خارج الساحل الأسكتلندي. ومرةً تواجد معه لدى هبوب عاصفة. الجملة الأخيرة قالها بصوتٍ عالٍ ثم توقف. فقد جذب انتباه الجميع ما إن أخبرهم بوجوده مع عمه في منارة لدى هبوب عاصفة. أوه، جال في خلد ليلي بريسكو، وهي تسمع النقاش ينعطف إلى نتائج مبشرة، وتستشعر امتنان السيدة رامزي (إذ باتت السيدة رامزي حرة الآن لتتولى الحديث بنفسها) يا ترى ما الثمن الذي دفعته كي أحقّق رجاءك؟ فمشاعرها ما كانت صادقة.

هي نفّذت ذات الخدعة وحسب - تصرّفت بلطف. هي أبداً لن تعرفه. وهو أبداً لن يعرفها. العلاقات الإنسانية بمجملها على هذه الشاكلة، تفكرت متأملة، وأسوأ ما في الأمر (ولكان حقيقة لولا

السيد بانكس) هي أنها على هذه الشاكلة بين الرجال والنساء. النفاقُ محتومٌ فيها. من ثم وقعت عيناها على المملحة، والتي وضعتها هناك كي تُذكّرها، وهي تذكرت، أن عليها صباح اليوم التالي تحريك الشجرة أبعد إلى الوسط، وإذا بمعنوياتها ترتفع عالياً على تصورها ترسم غداً وراحت تقهقه على ما قاله السيد تانسلي. دعه يثرثر الليل بطوله، ما همّني.

«لكن ما المدة التي يقضيها الرجال في المنارة؟» سألته. وهو أجابها. فهو يملك، وعلى نحوٍ مذهل، معرفة واسعة عن الموضوع. وما إن رأت الامتنان في عينيه، إعجابه بها، كيف بات يستمتع أخيراً بوقته، فالآن، خطر إلى السيدة رامزي، لها أن تعود إلى أرض الأحلام، ذاك المكان العجيب الخيالي، حجرة الاستقبال في بيت عائلةماننغ في مارلو قبل عشرين عاماً؛ حيث تسنى للمرء أن يحوم بلا عجلةٍ أو قلق، إذ ما كان من مستقبلٍ يقلق حوله. وهي تعرف بما جرى لهم، وما جرى لها. أشبه بقراءة كتابٍ جيد مرةً أخرى، عدا أنها هذه المرة هي تعرف النهاية، بما أنها قد وقعت قبل عشرين عاماً، والحياة، التي ما انفكّت تتدفق شلّالات غامرة حتّى من مائدة الطعام هذه والسماء وحدها تعرف من أين مصبّها، فهناك هي موصدة، مثل بحيرة، ترقد هادئة وسط الضفاف. أخبرها بأنهم قد بنوا حجرة بلياردو جديدة - هل يُعقل؟ هل سيتابع ويليام حديثه عن عائلة ماننغ؟ تود لو يتابع. لكن، لا - لسببٍ ما، ما عاد في مزاجٍ ملائم. هي حاولت. بيد أنه لم يستجب لها. ليس بيدها إجباره. أملها خاب.

«يا له من تصرفٍ شائن»، قالت متنهدة. وأجابها هو بتعليقٍ حول الالتزام بالمواعيد وكيف أنها فضيلة من الفضائل الصغرى التي لا يكتسبها المرء إلّا لاحقاً في حياته.

«إن اكتسبها يوماً»، قالت السيدة رامزي كيما تملأ الفراغ وحسب، فيما تقول في نفسها أيّة عانسٍ عجوز تحول إليها ويليام. واعياً لخيانته، واعياً لرغبتها في الحديث عن مواضيع أكثر حميمية، عدا أنه اللحظة ليس في مزاجٍ ملائم، اعتراه بغضٌ جارف تجاه الطبيعة الكريهة للحياة، جالساً هناك، ينتظر. لربّما البقية يتبادلون الحديث في موضوعٍ مثيرٍ للاهتمام؟ يا ترى ما الذي يتكلمون عنه الآن؟

إن موسم صيد السمك كان سيّئاً؛ والرجال بدؤوا ينزحون. سمعهم يتحدثون عن الأجور والبطالة. الشاب اليافع انهال شتماً على الحكومة. ويليام بانكس، يساوره الارتياح بالتقاطه طرف خيطٍ لموضوع كهذا بدل الاستغراق في الحياة الشخصية الكريهة، سمعه يقول شيئاً عن «واحدة من

أسوأ التصرفات المخزية التي أقدمت عليها هذه الحكومة». ليلي جلست تصغي؛ السيدة رامزي جلست تصغي؛ الكل جلس يصغي. غير أنَّ الملل سرعان ما أصابهم، ليلي أحسّت بافتقار الحديث إلى شيءٍ ما؛ السيد بانكس أحسّ بافتقار الحديث إلى شيءٍ ما. تتدثر بشالها، السيدة رامزي أحسّت بافتقار الحديث إلى شيءٍ ما. وفيما الثلاثة منحنون في وضعية الاستماع، كلّ أخذ يقول في نفسه، «أرجو السماء ألّا ينفضح المكنون في عقلي»، إذ أنّ كلّ واحدٍ منهم تصوَّر، «أن البقية منفعلون. ها هم غاضبون وساخطون على الحكومة لما ارتكبته بحق صيادي السمك. بينما أنا لا أشعر بشيءٍ على الإطلاق». لكن لربّما، قال السيد بانكس في نفسه، ينظر نحو السيد تانسلي، لربّما هو ذا الرجل. فالكل دائماً في انتظار الرجل. دوماً هنالك أمل. في أيّة لحظة قد يُبعث القائد؛ الرجل العبقري، في السياسة كما في أي مجالٍ آخر. ولعلنا سنبغضه جميعاً، نحن الرجعيّون القدامى، تفكر السيد بانكس، يبذل أقصى استطاعته في مراعاة ذاك الشاب، إذ أنبأه إحساسٌ جسدي غريب، وكأنما الأعصاب انتصبت في نخاعه الشوكي، أن الغيرة تنتابه، لأجل نفسه إلى حد ما، وإلى حدّ أكبر لأجل عمله، وجهة نظره، لأجل علمه؛ لهذا ما كان بيده أن يصغي بعقلٍ منفتح مطلق، إذ بدا له وكأن السيد تانسلي يقول لهم، قد هدرتم حيواتكم. كلكم على بعضكم مخطئون. ثلةٌ مسكينة من الرجعيين، عاجزون عن مسايرة زمننا. بدا له مفرط الثقة في نفسه، ذاك الشاب اليافع؛ وسلوكياته بغيضة. لكن السيد بانكس ما كان لينكر ما لاحظه فيه، اتصافه بالشجاعة؛ امتلاكه القدرة؛ وإحاطته المذهلة بحقائق الأمور. لربّما، قال السيد بانكس في نفسه، يصغي إلى تانسلي يشتم الحكومة، هنالك صحة فيما يقول.

«أخبرني إذن...» قال بانكس. وهكذا خاضا في حديث السياسة، وليلي أخذت تتأمل ورقة الشجر على مفرش الطاولة؛ السيدة رامزي، وقد انسحبت تماماً عن النقاش تاركةً إياه في عهدة الرجلين، أخذت تتساءل لم الملل انتابها من هذا الحديث، وتمنت، تنظر نحو زوجها الجالس على الطرف المقابل من الطاولة، لو أنه ينطق بكلمة. كلمة واحدة، قالت في نفسها. إذ سيصنع فرقاً شاسعاً إن نطق بشيء. فحديثه ينصب في قلب الموضوع. فهو يكترث لأمر الصيادين وأجورهم. النوم يجافيه إثر تفكيره بهم. شتّان بين ما تسمعه الآن وما كانت ستسمعه لو دخل هو النقاش؛ وما كان ليساورها هذا الخاطر، بحق السماء ألا ترى لا مبالاتي بما تقول، لأنها صدقاً كانت ستكترث. من ثم، مدركة أن انتظارها إياه يشارك في الحديث إنما نابعٌ عن إعجابها الشديد به، شعرت وكأنما أحدهم أخذ يكيل على مسامعها عبارات المديح والإطراء، على زوجها وحياتهما الزوجية، فإذا بها

تتوهج زهواً لما تسمع فقط كي تدرك أنها هي نفسها من تكيل المديح. جلست تنعم النظر فيه باحثة في وجهه عن ذاك الشيء؛ كم سيبدو مهيباً ...لكن ما وجدته فيه بالمرة! جلس عابس الوجه، متجهماً مكفهراً، يفور غضباً. علام بحق السماء؟ تساءلت. يا ترى ما خطبه؟ لا شيء، سوى أن المسكين أغسطس طلب طبقاً آخر من الحساء - هذا كلّ ما في الأمر. يا له من تصرف لا يصدق، تصرف مقيت (كذا فهمت من إشارته لها عبر الطاولة) أن يعاود أغسطس تناول الحساء. فهو يتقزز من تناول الناس طعامهم بعد انتهائه. رأت غضبه يجتاحه مثل قطيعٍ متوحش من كلاب الصيد، ينقض على عينيه، جبينه، وأيقنت أن أيّة لحظة سيتفجر العنف، من ثم - حمداً للسماء! رأته يشكم لجام نفسه، يكبح العجلة المندفعة، وإذ بسائر جسده يقدح شرراً، لكن لا كلمات. جلس هناك عابساً. ما نطق بكلمة، عدا أنه لفت انتباهها. دعها تعزو الفضل إليه! لكن ما الخطأ في طلب أغسطس طبقاً آخر من الحساء؟ بالكاد مسَّ ذراع إيلين قائلاً:

«إيلين، رجاءً، طبقٌ آخر من الحساء»، وإذ بالسيد رامزي يعبس.

ولم عساه يمانع؟ حاججته السيدة رامزي. فحتماً يسمح لأغسطس بتناول طبقٍ آخر من الحساء إن أراد. هو يكره تمرغ الناس في الطعام، قطب السيد رامزي في وجهها. يمقت كلّ شيءٍ ينجرّ لساعاتٍ وساعات مثل هذا العشاء. غير أنه سيطر على نفسه، وتدين إليه بالفضل، رغم المشهد المقرف الذي يراه بعينيه. لكن لم عساه يظهره بهذا الوضوح، حاججته السيدة رامزي (جلسا يتبادلان النظرات عبر الطاولة الممتدة يبعثان فيها بالأسئلة والأجوبة، كلّ يعرف بالضبط ما يشعر به الآخر). والأمر واضح في عيون الجميع، تصورت السيدة رامزي. ها هي روز تحدق في أبيها، وروجر يحدق في أبيه؛ وفي أيّة لحظة سينفجران في نوبة ضحك، هي موقنة من ذلك، ولذا قالت فوراً (وكان الوقت قد حان أصلاً لذلك):

«أضيئوا الشموع»، وإذا بهما يهبّان من مكانيهما ويمضيان نحو البوفيه يبحثان فيه مرتبكين.

لم لا يتعنى ولو لمرة إخفاء مشاعره؟ تساءلت السيدة رامزي، وتساءلت إن كان أغسطس كارمايكل قد انتبه. لربّما انتبه؛ ولربّما لا. ما كان بيدها إلا إبداء احترامها لرباطة الجأش التي أظهرها جالساً هناك، يتناول الحساء. إن أراد تناول الحساء، سيطلب طبقاً من الحساء. سواءٌ لديه ضحك عليه الناس أم غضبوا. هي لم ترق له، هي تعرف ذلك؛ لكن لهذا السبب بالذات هي تحترمه، وفيما جلست تتأمله، يتناول الحساء، تراه ضخماً جداً كما النُّصُب، ناسكاً في خفوت الضوء، تساءلت

عما يعتريه اللحظة من مشاعر، ولماذا هو دوماً راضٍ وجليل؛ وخطر لها إلى أي حدٍّ هو متفانٍ لآندرو، كيف أنه دوماً ما يستدعيه إلى حجرته، وما إن تسأل آندرو يجيبها، «يريني أشياء». وكيف يقضي نهاره بأكمله مستلقياً على المرجة مستغرقاً في تأملاته حول شعره، فيذكّر من يراه بقطٍّ يترصّد العصافير، يصفق براثنه فجأة ما إن يعثر على الكلمة، فيقول زوجها، «المسكين أغسطس - شاعرٌ حقيقي،» وهو مديحٌ رفيع يصدر عن زوجها.

وها ثمان شمعاتٍ تقف منتصبة على الطاولة، ما إن استقام لهبها المطأطئ حتّى أنارت للعيان المائدة الطويلة الممتدة، في القلب منها طبق فاكهة أصفرُ أرجوانيّ. يا ترى ما الذي صنعته بالطبق، تساءلت السيدة رامزي، فتنسيق روز للعنب والإجاص، للموز، هذه الصدفة القرنية الزهرية الوافرة، قد أثار في مخيلتها صورة إكليل انتشله أحدهم من قاع البحر، من على وليمة نبتون، صورة عذق العنب المتعرّش بأوراقه من على كتف باخوس (في بعض اللوحات)، بين جلود النمور والمشاعل تثب ذهبية حمراء ... وبذا ما إن تجلى الطبق للنور فجأة حتّى بدا ضخماً عميقاً، بدا مثل عالمٍ يتناول فيه المرء عصاه ويتسلق التلال، ينحدر إلى الوديان، ولسعادتها (إذ أضفى للحظة أجواء من التناغم والتعاطف) لمحت أغسطس هو الآخر يمتّع عينيه بذات طبق الفاكهة، يغطس فيه، يقطف زهرةً منه، ينتزع شرابةً منه، من ثم يعود، ما إن شبع، إلى قفيره. تلك كانت طريقته في النظر، مختلفة عنها. مع ذلك فإنّ تأملهما الطبق سوياً وحّدهما.

كل الشموع باتت مضاءة، الوجوه على جانبي المائدة دنت أقرب على ضوء الشموع، يعتريها الهدوء، وعلى خلاف ما بدوا عليه في ضوء الشفق الأحمر، باتوا الآن حفلاً مجتمعاً حول مائدة، فالنوافذ أقفلت على الليل خارجاً؛ وعلى سطوحها الزجاجية، أبعد ما يكون عن واقع العالم الخارجي، ترقرق الليل، بحيث بدا وكأنما في داخل الحجرة، النظام يسود على أرضٍ ثابتة؛ بينما هنالك، خارجاً، انعكاسٌ تتموج فيه الأشياء حتّى التلاشي، عالمٌ مائيّ.

تغييرٌ اعترى الجميع فجأة، كأنما هذا ما وقع فعلاً، والكل بات الآن واعياً أهمية التضامن معاً في جمعٍ واحد على هذه الجزيرة النائية؛ توحدهم قضيتهم المشتركة ضد السيولة المحيطة بهم. السيدة رامزي، من ظل القلق يعتريها حتّى اللحظة، في انتظارها دخول بول ومنتا، من شعرت بعجزها عن تصحيح مسار الأمور، ها هي تستشعر قلقها يتحول آمالاً عالية. فلا بُدّ أنهما سيأتيان أيّة لحظة، وليلي بريسكو، تتفكّر فيها محاولةً تحليل السبب وراء ابتهاجها المفاجئ، قارنت اللحظة بتلك

التي عاشتها على مرجة التنس، حين اختفى التضامن بينهم فجأة، ومسافات عظيمة باعدت بينهم؛ والآن التأثير نفسه يتحقق مع كلّ تلك الشموع العديدة في الحجرة شحيحة الأثاث، مع النوافذ عديمة الستائر، مع الأقنعة على الوجوه تسطع سيماها على ضوء الشموع. شعورٌ انتابها بأنَّ ثقلاً قد انزاح عن كاهلهم؛ والاحتمالات انفتحت على المدى. لا بُدّ سيأتيان الآن، قالت السيدة رامزي في نفسها، تتطلع نحو الباب، وفي تلك اللحظة، منتا دويل، بول رايلي، وخادمة تحمل طبقاً ضخماً بين يديها، دخلوا معاً. لقد تأخروا جداً؛ إلى حدٍّ رهيب، قالت منتا، في طريقها وبول إلى مقعدين متباعدين على جانبي المائدة.

«لقد أضعت مشبكي - مشبك جدتي»، قالت منتا في صوتٍ يشوبه النواح، عيناها البنيتان الواسعتان غائرتان، تخفض عينيها، ترفع عينيها، لدى جلوسها جانب السيد رامزي، ما استثار فيه الشهامة كي يمازحها.

وأية حماقةٍ هذه، سألها قائلاً، تعترش الصخور مرتديةً حليّها؟

كانت في حال ذعرٍ منه - فهو بالغ الذكاء إلى حدٍّ مخيف، وأول ليلة قضتها هنا وجلست فيها إلى جانبه، وتحدث عن جورج إليوت، انتابها الذعر، إذ كانت قد نسيت الجزء الثالث من روايتها مدل مارش في القطار ولم تعرف قطّ بما حدث في النهاية؛ لكن لاحقاً توافقت معه على نحوٍ رائع، بل حتّى ادّعت جهلاً أبلغ بالرواية، لأنه استمتع بإخبارها إلى أي حدٍّ هي حمقاء. لذا الليلة، حين ضحك عليها فوراً، لم تكن مذعورة. عدا ذلك، فهي أدركت، لحظة ما دخلت، أن المعجزة قد تحققت؛ السديم الذهبي يكتسيها. أحياناً يكتسيها، وأحياناً لا. ما عرفت يوماً لماذا يكتسيها ولماذا يُنتزع عنها، أو إن كان يكتسيها قبل دخولها أي حجرة ولا تعي وجوده فعلاً إلا بنظرةٍ يرمقها بها رجل. أجل، الليلة حظيت به، يشع متوهجاً؛ وهي أدركت ذلك من نبرة السيد رامزي يقول لها ألّا تتصرف بحماقة. فجلست إلى جانبه، مبتسمة.

لا بُدّ وقد حدث، قالت السيدة رامزي في نفسها؛ هما مخطوبان. وللحظة، انتابها شعورٌ ما ظنّت أنّه سينتابها مرةً أخرى - الغيرة. فزوجها، هو الآخر، قد استشعره، وهجُ منتا؛ هو يهوى تلكم الفتيات، الذهبيّات المتوردات، من إلى حدٍّ ما، طائشات، جامحات، من لا «يحتتن» شعورهن، من لسن، كما يقول في وصف المسكينة ليلي بريسكو، «ضامرات». هي تتمتع بسيما هي نفسها لا تتمتع بها، بريقٌ ما، غنىً ما، تجذبه، تسرُّ قلبه، تجعله يؤثر الفتيات من مثل منتا. لهن أن يقصصن شعره،

يضفرن لأجله سلسلة ساعته، أو يقاطعنه في عمله، ينادين عليه (وقد سمعتهن)، «انضم إلينا سيد رامزي؛ قد حان الدور علينا لهزيمتهم»، وسيهرع خارجاً في لحظة ويلعب التنس.

لكن صدقاً هي ليست غيرى، عدا عن تلك اللحظات، بين الفينة والأخرى، متى ما أجبرت نفسها على تأمل وجهها في المرآة، يساورها شيءٌ من الامتعاض على تقدّمها في السنّ، والذي لربّما هو خطؤها. (فاتورة الدفيئة وكل ما سواه). كانت ممتنة لهن لضحكهن عليه. (كم غليوناً دخنت اليوم، سيد رامزي؟ وهكذا دواليك)، إلى أن يبدو وكأنما استعاد شبابه؛ رجلٌ يافع جذابٌ في عين النساء، قلبه خالٍ من الهموم، لا يحمل على عاتقه نير عظمة عمله ومآسي الدنيا وذيوع صيته وفشله، بل يعود إلى ما عهدته يوماً عليه، حين عرفته لأول مرة، شابٌ كئيب لكن شهم؛ وخطرت لها الذكرى، يمدّ يده نحوها يساعدها على مغادرة قارب؛ يتصرف على نحوٍ مبهج، كما تراه الآن (تأملته، مذهولة إلى أيّ حدٍّ بدا يافعاً، يضايق منتا مازحاً). أما هي - «ضعيه هنا»، قالت للفتاة السويسرية، تساعدها على وضع قدر البوفاندو البُنّي الضخم أمامها برقّة - أما هي، فتهوى رجالها المغفلين. بول لا بُدّ أن يجلس جانبها. فقد أبقت على كرسيّ شاغر له. هي صدقاً تهواهم، وأحياناً تفضلهم على الجميع. فهم لا يزعجون المرء بأطروحاتهم. إذ كم يفوتهم من الحياة، أولائك الرجال بالغو الذكاء؟ إلى أي حدٍّ ينالهم الجدب والجفاف. هناك سيما، خطر لها ما إن جلس إلى جانبها، فاتنة جداً فيما يتعلق ببول. سلوكه يدخل البهجة عليها، وكذا أنفه الدقيق القاطع وعيناه الزرقاوان البرّاقتان. مراعٍ جداً في تصرفاته معها. أتُراه سيخبرها الآن - بما أن الآخرين قد عادوا لتبادل الأحاديث - بما جرى؟

«نحن عدنا أدراجنا للبحث عن مشبك منتا»، قال لها ما إن جلس إلى جانبها. «نحن» - فيها وجدت الإجابة الوافية. هي عرفت من الجهد، من علو النبرة كيما يتجاوز عائق التلفّظ بالكلمة الصعبة، بأنها المرة الأولى التي يقولها، «نحن». «نحن فعلنا هذا، نحن فعلنا ذاك». سينطقان بها ما تبقى من حياتيهما، جال في خلدها، وإذ بعبقٍ مذهل من روائح الزيتون والزيت والعصائر تنبعث عن القدر البُنّي الضخم ما إن رفعت مارثا، مع مسحةٍ من التباهي، الغطاء عنه. الطاهية قد قضت ثلاثة أيام تعدّ الطبق. وعلى السيدة رامزي أن تحرص أشدّ الحرص، فيما تخوض في كتل اليخنة الناعمة، على اختيار أطرى قطعة لحم للسيد ويليام بانكس. تمعن النظر في القدر، في جدرانه اللامعة وفي الامتزاج الشهي بين كتل اللحم البنّية والصفر وورق الغار والنبيذ، قالت في نفسها، هذا طبقٌ جديرٌ بالاحتفاء بهذه المناسبة - وإذ يفور فيها إحساسٌ غريب، نزويٌّ ورقيق في ذات الآن،

بأنها تحتفل بعيد، كأنما اللحظة عاطفتان سيطرتا عليها، إحداهما صادقة عميقة - إذ لا شيء يفوق جديةً حب الرجل لامرأة، ولا شيء يفوق استحقاقاً للشرف، ولا إثارةً للإعجاب، حبّاً يحمل في رحمه بذور الموت؛ وفي ذات الوقت، فالعاشقان، ذانك الشخصان اللذان يدخلان الوهم بأعين براقة، لا بُدّ أن يُكلَّلا بالغار، ويرقص الجميع حولهما ساخرين.

«يا له من انتصارٍ شهي»، قال السيد بانكس، يضع سكّينه جانباً للحظة. قد تناول طبقه متنبهاً لكل التفاصيل. الطبق ثري؛ اللحم طريّ. مطهوٌّ على نحوٍ مثالي. كيف تدبرت طهو طبقٍ كهذا في أعماق الريف؟ سألها منذهلاً. يا لها من امرأة رائعة. كلّ حبه لها، كلّ إجلاله لها، عاد إليه؛ وهي أدركت ذلك.

«هي وصفة فرنسية ورثتُها عن جدتي»، أجابته السيدة رامزي، صوتُها يرنُّ حبوراً عظيماً. بالطبع الوصفة فرنسية. فما يُعدُّ طهواً في إنجلترا هو عارٌ على جبين الطهي (والجميع وافقه). ما هو إلا نقع الملفوف في الماء. شوي اللحم حتى يغدو أجفَّ من الجلد المدبوغ. نزع القشور اللذيذة عن الخضروات. «والتي فيها»، أردف السيد بانكس، «تكمن مزايا الخضرة». والهدر، عقّبت السيدة رامزي. فعائلة فرنسية بأكملها لها أن تقتات على ما يرمي به طاهٍ إنجليزي. تحت تأثير إحساسها باستعادتها عاطفة ويليام بانكس، أنَّ كلّ شيءٍ بات مرة أخرى على ما يرام، أنَّ ترقّبها للخبر قد انتهى، فهي باتت حرّة الآن كي تزهو بانتصارها وتسخر، ضحكت، وأومأت بيديها، فيما تأمّلتها ليلي، تتفكّر فيها، يا له من تصرفٌ طفولي، كم بدت سخيفة، جالسة وقد تفتَّح فيها جمالها من جديد، تتحدّث عن قشور الخضروات. شيءٌ فيها يثير الخوف. امرأة فاتنة لا تقاوَم. ودائماً، في نهاية المطاف، تسيّر الأمور على هواها. وها هي الآن قد تدبرت هذه الحيلة، قالت ليلي في نفسها - بول ومنتا، إذ افترضت أنهما مخطوبان. وها هو السيد بانكس يتناول عشاءه هنا. هي سحرتهم جميعاً، بتمنّيها وحسب، ببساطة، بكل صراحة، وقارنت ليلي فيض السيدة رامزي بفقرها هي الروحي، وافترضت أن السبب يعود جزئياً إلى إيمان السيدة رامزي (فوجهها سطع ضياءً - ودون أن تبدو يافعة، بدت مشرقة) في ذاك الشيء الغريب، الشيء المخيف، والذي أثار في بول رايلي، الجالس جانبها، الرجفة، ومع ذلك جلس متجرّداً، مستغرقاً، صامتاً. وشعرت ليلي بأن السيدة رامزي، في حديثها عن قشور الخضروات، إنما تمجد ذاك الشيء، تعبد ذاك الشيء؛ تحيطه بيديها كي تدفئهما، كي تحميه، ومع ذلك، رغم نجاحها في استحضاره، فالآن تهزأ منه ضاحكة، فيما تسوق ضحيتاها إلى المذبح. وها هو ذاك الشيء يغمرها هي الأخرى - عاطفة الحب، ورجفته. إلى أي حدٍّ شعرت

بنفسها تقبع في الظلال جانب بول! هو متوهج، متّقد؛ وهي في معزل، متهكمة؛ هو، مقدّرٌ له أن يبحر في مغامرة؛ هي، مقدرٌ لها الرسوّ على الشاطئ؛ هو، يستهل حياته غافلاً؛ هي معتكفة، متروكة - واللحظة، كأنما تتوسل نصيباً وإن كارثيّاً، من كارثته، سألته في استحياء:

«متى أضاعت منتا مشبكها؟»

ابتسم لها أجمل ابتسامة رأتها، حجبتها في الذاكرة، مشوبة بالأحلام. هزَّ رأسه مجيباً، «على الشاطئ».

«لكني سأعثر عليه»، قال لها، «سأنهض باكراً». وبما أنه نوى إبقاء الأمر سرّاً عن منتا، فقد أخفض صوته، حوَّل نظره إلى حيث تجلس، ضاحكة، حدَّ السيد رامزي.

ليلي أرادت إعلان رغبتها بمساعدته بكل قوة وجرأة، تتخيل نفسها على الشاطئ ساعة الفجر وقد انقضَّت على المشبك نصف المدفون بين الصخور، وبذا تضمن شملهم إياها مع ثلة البحارة والمغامرين. لكن ما سيكون رده على عرضها؟ في الواقع هي سألته في صوتٍ تشوبه عاطفة نادراً ما تُظهرها، «دعني آتي معك»، وإذا به يضحك. ضحكته قد تعني نعم أو لا - ولربّما كليهما. لكن لم يكن المغزى ما جفَّلها - بل الزقزقة التي صدرت عنه، وكأنما يقول لها، ارمي بنفسك عن الجرف إن أردتِ، ما همّني. قد صفع وجنتها بوهج الحب، رعبه، قسوته، تجرده من الضمير. ناره لفحتها. وفيما تطلعت ليلي نحو منتا، تراها فاتنة بصحبة السيد رامزي نهاية الطرف المقابل من الطاولة، جفلت على كون منتا مكشوفة لتلك الأنياب، وغدت شاكرة. لأن أياً ما سيكون، قالت في نفسها، ترمق المملحة على المفرش، فلا حاجة بها للزواج، حمداً للسماء: هي ليست بحاجة لمكابدة هذا الانحطاط. هي أنقذت نفسها من هذا الوهم. وستحرك الشجرة أبعد إلى الوسط.

والأمور بطبيعتها معقدة. فما يجري لها، لا سيما في إقامتها لدى عائلة رامزي، يحتّم عليها معايشة عاطفتين متناقضتين عنيفتين في ذات الآن؛ إحداهما، ما تشعر أنت به؛ والأخرى، ما أشعر أنا به، والعاطفتان تنقضّان على بعضيهما، كما يجري الآن. إنّه شيءٌ فائق الجمال، مثيرٌ جداً، هذا الحب، أرجفُ واقفةً على حافته، فأَعْرُض، على نقيض عادتي، البحث عن مشبك على شاطئ؛ كذلك لهو أغبى العواطف البشرية، أكثرها همجية، تصيّر رجلاً لطيفاً ذا شخصية نقية كما الجوهرة (فبول حقاً مذهل) إلى متنمّرٍ يحمل عتلة في يده (فقد كان متبجحاً، وقحاً) على طريق مايل - إند. مع ذلك،

قالت في نفسها، مذ فجر الإنسانية والقصائد تتغنى في الحب؛ يغدقون عليه الأكاليل والزهور؛ وإن سألت الناس فتسعة أشخاص من عشرة سيقولون لك إنهم لا يريدون شيئاً عداه ـ الحب؛ بينما النساء، نابعاً من خبرتهن الشخصية، فكُنه مشاعرهن تجاهه، طوال الوقت، هو هذا: ليس الحب ما نريد؛ فلا شيء أكثر ضجراً، وصبيانية، ووحشية منه؛ مع ذلك فهو جميلٌ وضروري. حسنٌ إذن، حسنٌ إذن؟ سألت، متوقّعة أن يواصل الآخرون خوض النقاش، مثلما يعمد أحدهم في نقاشٍ مثل هذا إلى رمي حجةٍ منقوصة كي يترك للآخرين فرصة الاستمرار. لذا أخذت تصغي مرةً أخرى إلى ما يتحدثون به في حال ألقى أحدهم الضوء على جدلية الحب.

«كذلك»، قال السيد بانكس، «هناك ذاك السائل الذي يسميه الإنجليز قهوة».

«أوه، القهوة!» قالت السيدة رامزي. لكن قولها كان أقرب إلى سؤال (فقد رأتها ليلي منفعلة، تتحدث في نبرةٍ حازمة) عن الزبدة الحقيقية والحليب النظيف. ففي نبرةٍ دافئة وبمنتهى البلاغة، تناولت مثالب صناعة الألبان في إنجلترا، والحالة التي يُسلّم فيها الحليب إلى باب البيت، وكانت على وشك إثبات اتهاماتها، فهي قد بحثت مليّاً في الموضوع، وإذ من حول سائر المائدة، بدءاً بأندرو الجالس في الوسط، كما الحريق المستعر تقفز ألسنته من أجمة إلى أجمة، ضحك أبناؤها؛ زوجها ضحك؛ وكانوا يضحكون عليها؛ محاطة بالنيران، مجبرة على حجب شارة نبالتها، ترجّلت عن مدفعيتها، وانتقامها الوحيد على هذا العدوان كان عرضها على السيد بانكس مزاح وسخرية المائدة منها مثالاً على ما يعانيه المرء إن هاجم الثوابت لدى عامة بريطانيا.

غير أنها، عن عمد، إذ أبقت في بالها أنَّ ليلي، والتي ساعدتها مع السيد تانسلي، متروكة خارج الأجواء، استثنتها عن البقية قائلة، «على أيّة حال، ليلي توافقني الرأي»، وبذا جرتها قليلاً إلى أجواء المائدة، مرتبكة بعض الشيء، وجفِلة. (إذ كانت مستغرقة في تأملاتها عن الحب). وجال في خلد السيدة رامزي، أنَّ كليهما وجد نفسه خارج الأجواء، ليلي وتشارلز تانسلي. يعانيان في وهج الاثنين الآخرين. هو، من الجليّ، استشعر نفسه مهملاً إلى حدٍّ بعيد؛ فلا امرأة ستنظر إليه مع وجود بول رايلي في الحجرة. الولد المسكين! مع ذلك، هو يملك أطروحته، تأثير شخصٍ ما على شيءٍ ما: وسيعتني بنفسه. أما مع ليلي فالوضع مختلف. فهي تضمحل، في وهج منتا؛ تبهت أكثر وأكثر، في ثوبها الرمادي الضئيل مع وجهها المتغضّن وعينيها الصينيتين الضيقتين. كلّ ما يتعلق بها ضئيلٌ جداً. مع ذلك، تفكرت السيدة رامزي، تقارنها بمنتا، فيما تطلب الدعم منها (فالأجدى بليلي أن

تدعمها بقولها إن حديث السيدة رامزي عن الألبان لا يفوق حديث زوجها عن جزمته - وزوجها لا يتوانى عن الاستغراق في الحديث عن جزمته لساعات وساعات) فمن بين الاثنتين، ليلي ستغدو الأفضل حالاً في عمر الأربعين. ففي ليلي رأت خيطاً ما؛ شعلةً ما؛ شيئاً يخصها هي والسيدة رامزي تحبّه كثيراً فيها، لكن لا رجل سيراه، وإن رآه، خشيت السيدة رامزي، فلن يحبه. إلا طبعاً، إن كان رجلاً أكبر منها بكثير في العمر، مثل ويليام بانكس. لكنه أصلاً يكترث لها، حسنٌ، أحياناً تظنه السيدة رامزي يكترث لها كثيراً، مذ وفاة زوجته. بالتأكيد ليس واقعاً في غرامها؛ بل هي عاطفة لا تُصنَّف مثل حال عواطف عديدة. أوه، هراء، قالت في نفسها؛ لا بُدّ لويليام أن يتزوج ليلي. فقواسم مشتركة عديدة تجمع بينهما. ليلي تعشق الأزهار. كلاهما يتمتع بشخصية باردة ومنعزلة ومكتفٍ ذاتياً. حتماً سترتّب لهما قضاء نزهة طويلة مع بعضيهما.

يا لحماقتها، قد رتبت مقعديهما على جانبيْ المائدة. لا بأس، ستصلّح الأمر غداً. وإن كان الطقس صافياً، سيخرجان في نزهة. كلّ شيء بدا محتملاً. كلّ شيءٍ بدا في مكانه الصحيح. الآن وحسب (بيد أن الأمور لن تظل على هذه الحال، خطر لها، تفصل نفسها عن اللحظة بينما الجميع منهمك في الحديث عن الجزم) الآن وحسب بلغت الأمان؛ تحوم كما الصقر العالق في السماء؛ تطفو كما البارجة على محيطٍ من بهجة يروي بعذوبة كلّ عصبٍ من أعصاب جسدها حتّى الامتلاء، وما كانت بالبهجة المزعجة، بل الوقورة، إذ انبعثت، تنظر إليهم يتناولون الطعام، من زوجها وأطفالها وأصدقائها؛ بهجة تنبعث في هذا السكون العميق (كانت تغرف لويليام بانكس قطعة صغيرة جداً من اللحم، تمعن النظر في أعماق القدر الخزفي) وبدت، لا لسببٍ معين، عالقة كما الدخان، كما الأبخرة المتصاعدة، تضمهم جميعاً نحو الأمان. لا داعيَ لقول شيء؛ ولا في الإمكان قول شيء. ها هي البهجة هناك، تحيط بهم جميعاً. بهجةٌ تنضح، ساورها الإحساس، تغرف بحذر قطعة لحم طرية جداً للسيد بانكس، بالخلود؛ ذات الإحساس الذي راودها عن شيءٍ آخر قبل تلك الظهيرة؛ أنَّ الانسجام من طبيعة الأشياء، وكذا الاستقرار؛ ما تعنيه، هنالك شيءٌ مُحَصَّنٌ من التغيير، شيءٌ يسطع (رمقت النافذة حيث الأضواء المنعكسة تترقرق) في وجه الانجراف، الزوال، الأشباح، مثل حجر ياقوت؛ وبذا، عاودها الليلة ذات الشعور الذي راودها سابقاً اليوم، الإحساس بالطمأنينة، بالراحة. فمن لحظات كهذه، تفكرت متأملة، يُخلَق الشيء الباقي، الشيء العصيّ على الزوال.

«أجل»، طمأنت السيد بانكس، «هناك ما يكفي الجميع».

«آندرو»، قالت لابنها، «خفّض صحنك، وإلا سأريق اليخنة». (البوفاندو كانت انتصاراً مثاليّاً). ههنا، راودها الإحساس، تضع الملعقة جانباً، ههنا يتسنى للمرء أن يتحرّك أو يرتاح؛ له أن ينتظر (فقد صبّت لهم جميعاً) مصغياً؛ يتسنى لها، كما الصقر ينحدر فجأة من أعالي السماء، أن تزدهي وتستغرق في الضحك بمنتهى اليسر، تلقي بكامل حملها على الطرف الآخر من الطاولة، على ما يقوله زوجها عن الجذر التربيعي لألفٍ ومئتين وثلاث وخمسين. فذاك هو الرقم، كما بدا لها، على ساعته.

وما الذي يعنيه كلّ هذا؟ إلى يومها هذا لا تملك أيّة فكرة. جذر تربيعي؟ وما ذاك؟ أبناؤها يعرفونه. هي اتكأت عليهم؛ على الجذور التكعيبية والتربيعية؛ فهذا ما يتحدثون عنه الآن؛ عن فولتير ومدام دو ستال؛ عن شخصية نابليون؛ عن نظام تأجير الأراضي الفرنسي؛ عن اللورد روزبيري؛ عن مذكرات كريفي: دعت هذا كله يحملها ويسندها، هذا النسيج المذهل من الذكاء الذكوري، يجري في كلّ الاتجاهات، يتقاطع هنا وهناك، يمتد كما العوارض الحديدية في النسيج المتأرجح، فيبقي العالم مرتفعاً، وبذا لها أن تودِع فيه مطلق ثقتها، لها كذلك أن تغمض عينيها، أو تطرفهما للحظة، مثل طفلٍ يحدّق من على وسادته غامزاً أوراق شجرةٍ رفيفة. من ثم استيقظت. ما زال النسيج يُغزَل. ويليام بانكس يمدح روايات ويفرلي.

يحرص على قراءة رواية للسير والتر سكوت كلّ ستة أشهر، قال مادحاً. لكن لمَ تعليقه هذا أثار غضب تشارلز تانسلي؟ فقد اندفع (وإن كانت تظن، أن تصرفه هذا مدفوعٌ بصدّ برو له ورفضها التصرف بلطف معه) مستنكراً بشدة روايات ويفرلي رغم عدم معرفته شيئاً عنها، لا شيء مطلقاً، إذ أنّ جلّ انتباهها انصرف إلى تصرفاته لا إلى ما يقول. استشفت من سلوكه ـ أنه يتوق إلى إثبات وجوده، ولن ينفكّ يتصرف على هذا المنوال إلى أن ينال الأستاذية أو يتزوج، وبذا لن يحتاج دوماً إلى التصريح عن نفسه، «أنا، أنا، أنا». إذ هذا جوهر انتقاده للمسكين السير والتر، أو لعلها جين أوستين. «أنا، أنا، أنا». كان يفكّر في نفسه، في الانطباع الذي يتركه، وكان لها أن تستشف ذلك من نبرة صوته، من توكيداته وارتباكه. النجاح حتماً سينفعه. على أيّة حال قد قفزوا إلى موضوعٍ آخر. ولا داعيَ لها كي تنصت. لن يدوم على هذا، هي مدركة ذلك، لكن اللحظة بصرها استحال نافذاً صافياً بحيث بات لعينيها أن تطوفان حول المائدة تنزعان الحُجب عن كلّ وجه من وجوه أولئك الناس، عن أفكارهم ومشاعرهم، بلا أي جهدٍ منها، مثلما ينسلّ ضوء من أسفل النهر فإذ بمويجاته المترقرقة وقصباته وأسماك المنوة التي توازن نفسها، السلمون الصامت السابح على

عجلة من أمره، كلها تستنير فجأة، عالقة مرتجفة. هكذا هي أبصرتهم؛ هكذا سمعتهم؛ وبغضّ النظر عما يقولون، فحديثهم أيضاً يتمتع بهذه المزية، أشبه بحركة السلمون، يرى الترقرق والحصى، وفي ذات الوقت، يرى ما على يمينه، ما على يساره؛ والحديث بأكمله يتماسك؛ أما هي، فإنها تفصل الشيء عن الآخر؛ لأبدت إعجابها بروايات ويفرلي أو أقرت بعدم قراءتها؛ لحثّت نفسها على المضي قدماً؛ أما الآن فما قالت شيئاً. فاللحظة، هي تتدلى عالقة.

«آه، لكن حتّام سيدوم في اعتقادك؟»، أحدهم قال. وكأنما لديها قرنا استشعار يهتزان خارجها، يلتقطان جملاً معينة فيجبرانها على الانتباه إليها، وها هما الآن التقطا هذه الجملة. واستشعرت الخطر على زوجها. فسؤالٌ كهذا سيقود على الأرجح إلى التفوّه بشيءٍ يذكّر زوجها بفشله. حتّام ستُقرَأ كتبه ـ كذا فوراً سيخطر له. ويليام بانكس (المتحرر من كلّ هذا الخُيلاء) ضحك، قائلاً إنه لا يدير بالاً إلى التغيير في الأنماط السائدة. فمن له أن يحكم بالدوام على أي شيء ـ سواء في الأدب أو أي شيءٍ آخر؟

«دعنا نستمتع بما نهوى»، أردف قائلاً. وكم أعجبت السيدة رامزي بصدقه مع نفسه. إذ ما بدا عليه قط، ولو للحظة، كأنما يتفكر، وكيف لهذا أن يؤثر بي؟ لكن إن كنت من أصحاب المزاج الآخر، من لا بُدّ أن يتحصل على المديح، من لا بُدّ أن ينال التشجيع، فمن الطبيعي أنك ستبدأ (وهي تعرف أن السيد رامزي قد بدأ) تشعر بالضيق؛ أنك ستتوق لشخصٍ ما أن يقول، أوه، لكن عملك سيدوم، سيد رامزي، أو شيء من هذا القبيل. وقد أظهر جلياً شعوره بالضيق بقوله، في نبرةٍ يشوبها السخط، إنَّ على أقل تقدير، السير سكوت (أو تراه شكسبير؟) سيدوم على مرّ حياته. قالها ساخطاً. والجميع، أحسّت بهم السيدة رامزي، قد ساورهم شعورٌ بعدم الارتياح، غير مدركين علام. من ثم، منتا دويل، بحدسها البارع، قالت مخادعة، على نحوٍ سخيف، إنّها لا تظن أنّ أحداً يستمتع فعلاً بقراءة شكسبير. فأجابها السيد رامزي متجهماً (لكن عقله تشتت اللحظة عن سخطه) بأن قلةً وحسب يستمتعون صدقاً بقراءة شكسبير بقدر ما يصرّحون باستمتاعهم به. عدا أنَّ، أردف قائلاً، بعض مسرحياته تحمل قيمةً أدبية، ورأت السيدة رامزي أنّ الوضع، على الأقل الآن، سيغدو على ما يرام؛ سيسخر من منتا، ومنتا، توقعت السيدة رامزي، مدركةً القلق الشديد الذي ينتابه عن نفسه، ستعمد، بطريقتها الخاصة، إلى التخفيف عنه، وتمدحه، بطريقةٍ أو بأخرى. بيد أنها تمنت لو لم يكن من الضروري فعل ذلك: لربّما الخطأ خطؤها أنه بات ضرورياً. على أيّة حال، باتت حرة الآن للاستماع إلى ما يحاول بول رايلي قوله عن الكتب التي يقرؤها الرجل في صباه. تلك الكتب تدوم،

كذا قال. قد قرأ أعمالاً لتولستوي في المدرسة. وهنالك رواية لا تزال عالقة في ذاكرته، إلا أنه نسي عنوانها. الأسماء الروسية عصية على التذكر، علقت السيدة رامزي. «فرونسكي»، قال بول. فقد تذكر الاسم لأنه دوماً ما ظنه اسماً رائعاً لشخصية شريرة. «فرونسكي»، قالت السيدة رامزي؛ «أوه، آنا كارنينا»، إلا أنّ حبل الحديث سرعان ما انقطع؛ فالكتب ليست ضمن اهتماماتهما. لكن لا، ها هو تشارلز تانسلي في ثانية ينقض عليهما بشأن الكتب، وها هو جليٌّ في نبرة صوته، أتراني أخلط بين الأمور؟ أتراني ذكرت المعلومة الصحيحة؟ أتراني أترك انطباعاً جيداً؟ وبذا، ينتهي المطاف بالمرء بأن يعرف عنه أكثر مما يعرف عن تولستوي، بينما، حديث بول، كان عن الشيء ذاته، بكل بساطة، لا عن نفسه، ولا شيء آخر. فمثله مثل كلّ الناس الأغبياء، يتمتع بالتواضع، يراعي شعورك، وهو ما تراه، بين الآونة والأخرى، صفةً جذّابة فيه. والآن جلس يفكر، لا في نفسه، ولا عن تولستوي، بل إن كانت تشعر بالبرد، بهبّة نسيم، إن كانت ترغب بثمرة إجاص.

لا، أجابته، لا تريد إجاصاً. في واقع الأمر هي أبقت عيناً حامية على طبق الفاكهة (دون وعيٍ منها) غيرةً عليه، آملةً ألّا يلمسه أحد. بين الآونة والأخرى عيناها ترتحلان في انثناءات وظلال طبق الفاكهة، في منخفضات العنب الأرجوانية الغنية، على الحيْد القرنيّ للصدفة الدائرية، تضع الأصفر مقابل الأرجواني، الشكل المنحني مقابل الدائري، جاهلةً ما يحدوها إلى الارتحال، أو لماذا، كلّ مرةٍ ترتحل فيها، يغمرها الصفاء والسكينة؛ إلى أن، واأسفاه، أحدهم قد فعلها - يدٌ امتدت، تناولت إجاصاً، وأُفسد كلّ شيء. بعينٍ مشفقة نظرت نحو روز. تأملتها جالسة بين جاسبر وبرو. كم غريبٌ أن يصنع طفلك شيئاً كهذا!

كم غريبٌ رؤيتهم جالسين هناك، في صفٍّ واحد، أطفالها، جاسبر، روز، برو، آندرو، شبه صامتين، لكن مع مزحةٍ يكتمونها في صدورهم، تفضحها رعشة شفاههم. كان شيئاً غير ذي علاقة بأحاديث المائدة، شيئاً يكتنزونه في صدورهم كي يضحكوا عليه لاحقاً في حجرتهم. ليس عن أبيهم، أملت في نفسها. لا، لا تظن. إذن عمَّ المزحة، تساءلت، لتدرك الجواب حزينة، إذ رأت فيهم أنهم سيضحكون ما إن تغادر هي. كلّ هذا مكتنزٌ خلف تلك الوجوه الجامدة، الساكنة، تلك الأقنعة، إذ ما كانوا لينضموا إلى الحديث؛ بل جلسوا كما المراقبين، كما مساحي الأراضي، إما مترفعين أو منفصلين عن عالم الكبار. لكن ما إن وقعت عيناها على برو الليلة، أدركت أنّ حال إخوتها لا ينطبق عليها تماماً. كانت تقف على حافة البداية، على وشك التحرك، على وشك الهبوط. خيطٌ واهٍ من الضوء سقط على وجهها، وكأنما الوهج المشع من منتا الجالسة مقابلها، لمحةٌ من تلك الحماسة، من

ترقّب السعادة، قد انعكس عليها، كأنما شمس الحب بين الرجل والمرأة أشرقت على طرف مفرش الطاولة، وجاهلةً كنهها، انحنت نحوها وحيَّتها. وأبقت عينيها على منتا، يعتريها الحياء، وكذلك الفضول، وفيما السيدة رامزي تحول نظرها بين الاثنتين، قالت تخاطب برو في عقلها، يوماً ما ستحظين بذات سعادتها. بل ستكونين أسعد منها بكثير، لأنك ابنتي، كذا قصدها؛ إذ حتماً لا بُدّ لابنتها أن تغدو أسعد من بقية بنات الناس. لكن ها قد انتهى العشاء. وحان وقت الرحيل. جلسوا يلهون ببقايا الطعام على أطباقهم. ستنتظرهم إلى أن يفرغوا من الضحك على قصةٍ يسردها زوجها. كان يمازح منتا بخصوص رهانٍ بينهما. من بعدها ستنهض.

فجأةً، خطر لها، أنَّ تشارلز تانسلي يروق لها؛ وأنها معجبة بضحكته. أعجبت به لحنقه الشديد على بول ومنتا. وأعجبت بغرابة أطواره. فرغم كلّ شيء، هذا الشاب اليافع يحمل في جعبته الكثير من الاحتمالات الواعدة. أما ليلي، تأملتها، فيما تضع المنديل إلى جانب الطبق، فلها منظورها الساخر للأمور. لا داعيَ لأحدٍ أن يقلق بشأنها. انتظرت. دسّت منديلها أسفل حافة طبقها. حسنٌ إذن، أتراهم انتهوا الآن؟ كلا. فالقصة ساقتهم إلى قصة أخرى. فمعنويات زوجها مرتفعة الليلة، ورغبةً منه في إصلاح الأمور مع أغسطس، بعد ذاك الموقف حول الحساء، فقد جذبه إلى أطراف الحديث - وأخذا يرويان قصصاً عن شخصٍ عرفاه أيام الجامعة. رنت نحو النافذة حيث لهب الشموع تجلت أكثر سطوعاً على صفحتها الحالكة، وفيما رنت تتأمل ذاك العالم الخارجي تناهت إليها أصوات المائدة على نحوٍ غريب، أشبه بأصوات قداسٍ في كاتدرائية، إذ لم تكن تصغي للكلمات. قهقهة الضحك المفاجئة يعقبها صوتٌ واحد (منتا) تتحدث وحدها، ذكَّرها بالرجال والفتيان يصيحون عالياً بكلمات لاتينية في قداس كاتدرائية كاثوليكية. انتظرت. صوت زوجها. يكرّر شيئاً ما، وعرفت من السجع، من رنة الجذل، من المسحة السوداوية في صوته، أنه يتلو الشعر:

تعالَيْ خارجاً ولنصعدْ درب الفردوس، لوريانا لورلي. ها هي الخطمية الحمراء مزهرة تضج بطنين النحلة الصفراء.

الكلمات (ترنو بنظرها نحو النافذة) بدت أزهاراً تطفو على الماء، خارجاً هناك، مقطوعة عن الجميع، كأن ما نطق بها أحد، بل خُلقَت إلى الوجود بذاتها.

أَتُراكِ تَرَيْن، لورْيانا لورِلي، كيف كلّ الحيوات التي عشناها وكل الحيوات التي سنعيش، ملأى بالأشجار والأوراق المتبدلة، لورْيانا، لورِلي.

لم تعرف المعنى الكامن في الكلمات، إلا أن الكلمات، كما الموسيقى، بدت وكأنما هي من تنطق بها، بصوتها، خارج نفسها، تعبر بكل يسر وانسياب عما كان يدور في خلدها طوال هذه الأمسية مع أنها قالت أشياء مختلفة. وقد عرفت، دون أن تتلفت حواليها، أن كلّ شخصٍ على المائدة جلس ينصت إلى الصوت يقول:

أَتُراكِ تَريْن، لورْيانا، لورِلي

وإذ يغمرهم ذات شعور الارتياح والسرور الذي يغمرها، وكأنما هذا البيت من القصيدة، هو الشيء الوحيد الطبيعي قوله في الختام، هذا الصوت هو أصواتهم جميعاً.

لكن الصوت توقّف. نظرت حولها. أجبرت نفسها على النهوض. أغسطس كارمايكل نهض هو الآخر، ممسكاً بمنديل المائدة كأنما حبلٌ أبيض يتدلى منه، ووقف منشداً:

كيما نرى الملك ممتطياً حصانه، يعدو مروج زهر الربيع، مكللّاً بالغار وحزم الأَرْز، لورْيانا، لورِلي

وما إن مرَّت جانبه، حتّى استدار قليلاً نحوها يكرر لها الكلمات الأخيرة:

لورْيانا، لورِلي.

وانحنى إليها في تحية أشبه بتحية إجلال. جاهلةً لماذا، راودها الإحساس بأنه اللحظة قد أُعجب بها أكثر من أي وقتٍ مضى؛ ومع هذا الإحساس من الارتياح والامتنان ردّت إليه تقديره بانحناءة ومرّت عبر الباب يمسكه هو لها.

كان من الضروريّ لها الآن أن تتقدّم بالأمور خطوةً أبعد. مع قدمها على العتبة انتظرت هنيهة أطول في مشهدٍ كان قد بدأ أصلاً بالتلاشي حتّى وهي تنظر إليه، من ثم، ما إن تحركت متناولةً ذراع منتا وغادرت الحجرة، حتّى تبدل المشهد، أعاد تشكيل نفسه على صورةٍ مختلفة؛ فقد بات، وقد وعت لذلك، تسترق إليه نظرةً أخيرة من خلف كتفها، من الماضي البعيد.

الفصل الثامن عشر

هي عادتها، قالت ليلي في نفسها. فدوماً هنالك شيء يجب أن يتمّ في تلك اللحظة بالذات، شيءٌ قررت السيدة رامزي، لأسبابٍ تخصّها، أنها يجب أن تحقّقه اللحظة، لعله يتعلق بوقوف الجميع يتبادلون المزاح، كما يفعلون الآن، محتارين أيذهبون إلى حجرة التدخين، حجرة الاستقبال، أو الصعود إلى العلاليّ. وإذ بالمرء يرى السيدة رامزي تقف في غمرة هذا الهرج والمرج، مع منتا في ذراعها، تعزم أمرها، «أجل قد حان الوقت الآن»، وتنطلق اللحظة في هالةٍ من السرية كي تفعل شيئاً وحدها. وما إن غادرت وإذا بالمشهد بأكمله تنفصم عراه؛ كلّ أخذ يترنح، كلّ ذهب في طريقه، السيد بانكس تناول ذراع تشارلي وذهبا إلى المصطبة كي ينهيا نقاشهما السياسي الذي ابتدآه حول المائدة، وبذا اختل ميزان الأمسية، ورجحت الكفة المقابلة، وتصورتهما ليلي، لدى رؤيتها إياهما يغادران، تلتقط كلمة أو كلمتين من نقاشهما حول سياسة حزب العمال، كأنهما صعدا منصة ربان سفينة يطلبان حكمه على خلافهما؛ كذا صدمها التبدل في الأجواء من الشعر إلى السياسة؛ وها هما السيد بانكس وتشارلز، السيدة رامزي تصعد السلالم وحدها على ضوء المصباح. يا ترى إلى أين، تساءلت ليلي، تصعد مسرعة؟

ليس أنها ركضت أو تعجلت؛ بل في الواقع هي تمهلت. فقد نازعها ميلٌ نحو الوقوف ثابتة ولو للحظة بعد كلّ تلك الثرثرة، والتقاط شيءٍ واحد، شيءٍ محدد؛ الشيء الذي يهمّ؛ كي تفكّه؛ تفصّله؛ تصفّيه من كلّ العواطف والبهارج العالقة فيه، كي تحمله أمامها، وتحضره إلى المحكمة، حيث يجلس في خلوة، القضاة الذين عيّنَتهم كي يحكموا على هذه الأشياء. هل هو جيدٌ، سيّئٌ، صحيحٌ أم خاطئ؟ إلى أين نحن جميعاً ذاهبون؟ وما شابه من أسئلة. وهكذا استقامت بظهرها بعد صدمة الحفل، وبلا وعيٍ منها، في صورةٍ متناقضة، استعانت بأغصان الدردار خارجاً كي تحافظ على اتزان وضعيتها. هي عالمها يتغير: هم في سكون. الحفل قد أمدّها بإحساسٍ من الحركة. كان لا بُدّ لكل شيء أن يكون منظماً. لا بُدّ لها أن تُتقن هذا وتتقن ذاك، وفي خلدها، من غير إدراكٍ منها، وقفت تطري الأشجار على وقار سكونها، وها هي مرة أخرى تطريها على نهضة أغصان الدردار

المهيب ترفعها الريح (مثل قيدوم سفينة تحملها موجةٌ عالية). إذ كان الجو عاصفاً (وقفت للحظة تتأمله). كان عاصفاً، والأغصان بين آنٍ وآخر تتلمس نجمة في السماء، والنجوم نفسها بدت تهتز، ترشق سهام ضيائها علَّ بريقها يتوهج بين حواف أوراق الشجر. أجل، قد تحقق، أُنجِز؛ وكما هي حال كلّ الأمور متى ما أنجزَت، يغدو مقدساً. الآن وهي تتأمله، ما إن صفّته من العواطف والثرثرة، حتّى بدا وكأنما دوماً كان مقدساً، عدا أنه تجلّى الآن، وبتجلّيه، دفع بكل شيءٍ إلى الاستقرار. والكل، عادت تناجي نفسها، مهما طالت بهم أعمارهم، سيعود إلى هذه الليلة؛ هذا القمر؛ هذه الريح؛ هذا البيت: وإليها هي. وقد أطراها، فيما هي في أكثر حالاتها تأثراً بالإطراء، تصوّر نفسها، محفوظة في قلوبهم، أنها مهما طالت أعمارهم، ستظل منسوجة في ذاكرتهم؛ وهذا، وهذا، وهذا، تُردّد في ذهنها، تصعد الدرجات، ضاحكة، لكن بحنوّ، على الأريكة في مبسط السلم (أريكة أمها)؛ على الكرسي الهزاز (كرسي أبيها)؛ على خارطة هبريدز. كلّ هذا سيبعث من جديد في حياة بول ومنتا؛ «آل رايلي» - أخذت تردد الاسم مرة تلو المرة؛ وراودها الشعور، يدها على مقبض حجرة الأطفال، بهذه الملكية المشتركة لإحساس مع أناس آخرين (إحساس هو مزيج من الارتياح والسعادة)، ملكية نابعة عن عاطفة تصيّر الفواصل الجدارية رقيقة حدَّ ينجرف معه كلّ شيء في تيارٍ واحد، والكراسي، والطاولات، والخرائط، وإن كانت ملكها، فقد باتت ملكهم أيضاً، بل حتّى لا يهم لمن تعود ملكيتها، وتلك الأشياء ستدوم مع بول ومنتا من بعد موتها هي.

أدارت المقبض، بثبات، خشية أن يصرّ، ودخلت، تزمُّ شفتيها، كأنما تذكر نفسها ألا تتكلم بصوتٍ عال. لكن ما إن دخلت، حتّى أدركت منزعجة، أنَّه ما كان من داعٍ لحيطتها. فالأطفال ليسوا نياماً. تضايقت إلى حدّ كبير. كان على ملدريد أن تكون أكثر حرصاً. فها هو جيمس يقظان وكام منتصبة كما العمود، وملدريد خارج فراشها حافية القدمين، والساعة كادت أن تبلغ الحادية عشرة وثلاثتهم مستغرقون في الحديث. ما الأمر؟ تلك الجمجمة المروعة، مرةً أخرى. كانت قد أمرت ملدريد بتحريكها، لكن ملدريد، بالطبع، قد نسيت، وها هي كام الآن يقظة، وجيمس يقظان، والاثنان يتشاجران فيما كان من المفترض بهما أن يخلدا إلى النوم منذ ساعات. أيُّ شيطانٍ تلبّس إدوارد كي يرسل إليهم هذه الجمجمة المروّعة؟ كانت جدّ حمقاء للسماح بتسميرها على الجدار هناك. وقد سمّروها بسرعة، قالت ملدريد، وكام عاجزة عن النوم مع وجودها في الغرفة، وجيمس يصرخ إذا ما لمستها.

لا بُدّ لكام إذن أن تخلد إلى النوم (قرناه كبيران، قالت كام) - لا بُدّ لها أن تنام وتحلم بالقصور الجميلة، قالت لها السيدة رامزي، تجلس إلى جانبها على حافة الفراش. لها أن ترى القرنين، قالت كام، على الحجرة بأكملها. وهي محقّة. أينما وضعوا الضوء (وجيمس يخشى النوم بلا ضوء) فهناك ظلٌ ساقط على مكانٍ ما.

«لكن كام، تعقّلي، ما هو إلا خنزيرٌ هرم»، قالت السيدة رامزي، «خنزيرٌ أسود لطيف مثل الخنازير في المزرعة». إلا أنَّ كام تصورته شيئاً مروّعاً، غصونه تنقض عليها من كلّ أنحاء الحجرة.

«حسنٌ إذن»، قالت السيدة رامزي، «سنغطّيه». وكلهم شاهدوها تمضي نحو خزانة الأدراج، تفتح الأدراج الصغيرة، الدرج تلو الدرج، على عجل، ولا ترى شيئاً مناسباً لتغطيته، وبسرعة تناولت شالها ولفّته حول الجمجمة، لفة فوق اللفة فوق اللفة، من ثم عادت إلى كام ووضعت رأسها على الوسادة، تكاد تتوسّدها، إلى جانب رأس كام وأخبرتها كم يبدو جميلاً الآن؛ كيف ستُعجب الجنيّات به؛ فقد بات أشبه بعشّ عصفور؛ أشبه بجبلٍ جميل رأته فيما مضى في رحلاتها، من حوله الوديان والأزهار وقرع الأجراس وتغريد الطيور ومعزٌ صغير وظباء و... لها أن ترى الكلمات فيما تسرد الوصف في إيقاعٍ شعري يتردّد صداها في عقل كام، وكام تكرر من ورائها كيف أنه أشبه بجبل، بعشّ عصفور، بحديقة، فيها ظباءٌ صغار، وعيناها تغمضان وتفتحان، والسيدة رامزي واصلت وصفها الرتيب، الإيقاعي، الخالي من المعنى، وكيف أن على كام أن تغمض عينيها وتخلد للنوم وتحلم بالجبال والوديان وتساقط النجوم والببغاوات والظباء والحدائق، وكل ما هو جميل، ترفع رأسها على أقل من مهلها، نبرة صوتها ميكانيكية أكثر وأكثر، إلى أن جلست منتصبة ورأت كام وقد نامت.

والآن، قالت هامسة، تقطع الغرفة تجاه سريره، فإن جيمس عليه الخلود للنوم أيضاً، إذ كما ترى، فجمجمة الخنزير البرّي لا تزال هناك؛ ما لمسها أحد؛ وقد نفذوا رغبته؛ ها هي هناك وما مسها أي ضرّ. وقد تأكد بنفسه أن الجمجمة لا تزال هناك تحت الشال. سينام، لكن يريد أن يسألها شيئاً آخر، هل سيذهبون غداً إلى المنارة؟

كلا، لن نذهب الغد، أجابته، لكن عن قريب، قطعت له وعداً؛ في أقرب يومٍ صافٍ. كان مهذّباً جداً. استلقى على الفراش. دثّرته باللحاف. لكنه أبداً لن ينسى، وهي موقنة من ذلك، وانتابها

الغضب على تشارلز تانسلي، على زوجها، وعلى نفسها، إذ هي من رفعت آماله. من ثم، تتحسس شالها وإذ تتذكر أنها لفت به جمجمة الخنزير البري، نهضت، وسحبت النافذة للأسفل بوصة أو بوصتين، وسمعت الريح، تنشقت نسيم الليل البارد اللامبالي وهمست تصبحين على خير لملدريد وغادرت الحجرة ودعت لسان الباب يمتد ببطء في القفل ومضت.

أمِلت ألّا ترتطم كتبه على الأرضية فوق رؤوسهم، دار في خلدها، لا تزال تتفكّر في تشارلز تانسلي وإلى أي حدٍّ تصرفاته مزعجة. فلا أحد منهما ينام نوماً هانئاً؛ كلاهما طفلٌ سريع الاهتياج، وبما أنه قال أشياء كهذه عن المنارة، فقد بدا لها مرجّحاً أن يطيح بكومة كتب على الأرض ما إن يخلدا إلى النوم، يجرفها عن طاولته على نحوٍ أخرق بمرفقه. إذ افترضت أنه قد صعد إلى الأعلى كي يتابع عمله. ومع ذلك، فقد بدا متوحداً كئيباً؛ مع ذلك ستشعر بالارتياح ما إن يغادر؛ مع ذلك ستحرص على أن يعامله أطفالها على نحوٍ أفضل في الغد؛ مع ذلك كان مثيراً للإعجاب مع زوجها؛ مع ذلك سلوكياته في حاجة ماسة إلى تحسين؛ مع ذلك هي معجبة بضحكته - وفيما تهبط على السلالم، لاحظت القمر متجلياً عبر نافذة مبسط السلم - قمر الحصاد الأصفر - واستدارت، ورأوها، تقف على السلم أعلاهم.

«تلك هي أمي»، قالت برو في نفسها. أجل؛ على منتا أن تنظر إليها؛ على بول رايلي أن ينظر إليها. هي الشيء في حد ذاته، وكأنما هنالك شخصٌ واحد وحسب يتمتع بهذه المزية في العالم بأسره؛ أمها. ولكونها، قبل لحظة، وقفت تتصرف كما البالغين، تتحادث مع الآخرين، فقد عادت طفلة مرة أخرى، وقفوا مجتمعين على لعبة، وتساءلت، هل يا ترى ستجيز أمها اللعبة، أو تدينها. تفكرت متأمّلة كيف أنها لفرصة ثمينة رؤية منتا وبول وليلي لأمها، تستشعر حظها العظيم، كيف أنها هي من تحظى بها، وكيف أنها لن تكبر أبداً وأبداً لن تغادر البيت، راحت كما الطفل تقول في نفسها، وقالت «كنا نفكر بالذهاب إلى الشاطئ ومشاهدة الأمواج».

فوراً، وبلا أي سبب على الإطلاق، غدت السيدة رامزي أشبه بفتاة في العشرين، ملؤها المرح. مزاجٌ من الفرح والحماس تلبّسها فجأة. بالطبع عليهم الذهاب؛ بالطبع عليهم الذهاب، أخذت تهتف، ضاحكة؛ تجري على الدرجات الثلاث أو الأربع المتبقية، تتلفت ضاحكة من واحدٍ إلى آخر وتسحب دثار منتا وتلفه حولها قائلة كم تتمنى لو كان بيدها القدوم معهم أيضاً، وهل سيبقون هناك حتّى وقت متأخر، وهل يملك أحدهم ساعة؟

«أجل، بول لديه واحدة»، قالت منتا، وإذ ببول يسلّ ساعةً ذهبية جميلة من صندوق الشاموا الصغير كي يريها. وفيما حمل الساعة على كف يده أمامها، راوده الإحساس، «هي على علمٍ بالأمر برمته. لا داعيَ لي كي أقول أيّ شيء». وفيما وقف يريها الساعة قال لها، «قد فعلتها، سيدة رامزي. وأدين لك بالفضل كله». ومتأملةً الساعة الذهبية ممدودة في يده، غالبها الشعور، أوه منتا! يا لحظّها العظيم! ستتزوج رجلاً يملك ساعة ذهبية في حقيبة شاموا.

«كم أتمنى لو كان بيدي الذهاب معكم!»، صاحت مودعة. غير أنَّ شيئاً ما لجمها، قويٌ جداً حدَّ ما خطر لها أن تسأل نفسها ولو مرة عن ماهيته. بالطبع من المستحيل لها أن تمضي معهم. لكن كانت ستودّ الذهاب، لولا ذاك الشيء الآخر، ومع خاطرها السخيف يدغدغها (يا له من حظ عظيم أن تتزوج رجلاً يحتفظ بساعته في حقيبة من الشاموا) مضت مع ابتسامة مرسومة على شفتيها نحو الحجرة الأخرى، حيث زوجها جالسٌ يقرأ.

الفصل التاسع عشر

بالطبع، قالت في نفسها، فيما تدخل الحجرة، كان عليها أن تأتي هنا كي تحصل على شيءٍ تريد. بادئاً هي أرادت الجلوس على كرسيّ معيّن أسفل مصباح معيّن. إلا أنها تريد أكثر من هذا، مع أنها تجهل كنه ما تريد، عجزت حتّى عن التفكّر فيه. نظرت نحو زوجها (تتناول الجورب وتبدأ في الحبك)، ورأت أنه لا يودّ لأحدٍ أن يقاطعه - كان واضحاً جليّاً. يقرأ شيئاً يؤثر عليه أبلغ التأثير. نصف ابتسامة علت شفتيه وبذا عرفت أنه يحاول السيطرة على عواطفه. كان يقلّب الصفحات، يعيش الدور - لربّما تصوّر نفسه الرجل في الكتاب. تساءلت أي كتابٍ هذا. أوه، كتابٌ للسير والتر، تُعدّل وضعية ظلّة المصباح كي يضيء حبكها. فتشارلز تانسلي قد ذكر شيئاً (رفعت عينيها للأعلى كأنما تتوقع سماع دويّ ارتطام الكتب على الأرضية أعلاها)، قد ذكر شيئاً عن أن الناس ما عادت تقرأ سكوت. ومن ثم خطر لزوجها، «بالتأكيد هذا ما سيقولونه عني»؛ لذا ذهب وتناول كتاباً من كتب السير والتر. فإن وصل إلى الاستنتاج «معه حق» فيما قاله تشارلز تانسلي، فسيتقبّل هذه الحقيقة عن سكوت. (كان لها أن تراه يوازن بين الأمور، يتفكر، يربط بين هذا وذاك بينما يقرأ). لكن ليس مع عمله. لطالما وقف على أرضٍ مهتزة مع نفسه. مما يثير قلقها. إذ دائماً ما يعتريه القلق على كتبه - هل سيقرؤها أحد، أتراها جيدة، ولماذا لم يكتبها بصورةٍ أفضل، ما الذي يظنّه الناس بي؟ كارهةً تصورها إياه هكذا، متسائلة إن خمنوا على العشاء السبب وراء سخطه المفاجئ لدى حديثهم عن الشهرة ودوام الكتب، متسائلة إن كان هذا ما ضحك عليها أطفالها، شدت بقوة غرز الجورب، وكل التجاعيد الدقيقة المحفورة بسياخ حديدية بانت على جبينها وحول شفتيها، وتصلبت في مكانها مثل شجرةٍ كانت تتمايل وتهتزّ والآن، ما إن همد النسيم، عادت واستقرت، ورقةً ورقة، في السكون.

لا يهمّ، لا شيء من هذا يهمّ، قالت في نفسها. رجلٌ عظيم، كتابٌ عظيم، الشهرة - من بيده أن يحكم؟ هي لا تفقه شيئاً في تلك الأمور. لكن تلك هي طريقته مع نفسه، صدقه مع نفسه - فمثلاً على العشاء ما انفكّ يخطر لها، غريزياً، لو أنه وحسب ينطق بكلمة! فهي تملك مطلق الثقة فيه. تصرف

عن ذهنها كلّ تلك الخواطر، مثلما يتجاوز الغواص عشبة بحر، قشة، فقاعة، وإذ يعاودها ذات الشعور، تغرق أعمق وأعمق، الذي راودها لدى وقوفها في الردهة فيما الآخرون منهمكون في الحديث، هنالك شيءٌ أريده - شيءٌ جئت هنا كي أحصل عليه، وهوت أعمق وأعمق، مغمضة العينين، جاهلة كُنه ما تريد. انتظرت وهلة، تحبك الجورب، حيرى، وإذ بالكلمات التي سمعتها على مائدة العشاء تنبعث من الأعماق على مهل، *والخطمية الحمراء مزهرة تضج بطنين النحلة الصفراء*، تموج من شط إلى شط في عقلها، على خفقٍ إيقاعيّ، وفي تموجها، فالكلمات، مثل أضواء معتمة صغيرة، حمر، زرق، صفر، التمعت في ظلمة عقلها، وبدت كأنما تحلق خارج مجاثمها وتحوم حولها، أو تصيح عالياً كيما يتردد صداها؛ فاستدارت وتحسست على الطاولة جانبها بحثاً عن كتاب.

وكل الحيوات التي عشناها

وكل الحيوات التي سنعيش

ملأى بالأشجار والأوراق المتبدلة،

غمغمت الكلمات، تغرز صنّارتيها في الجورب. وفتحت الكتاب وبدأت تقرأ فيه مقاطع عشوائية، هنا وهناك، وفيما تقرأ شعرت وكأنما تنحدر، تتسلق، تشقّ طريقها دافعةً بمنكبيها البتلات المنحنية حواليها، فلا تعرف عنها سوى أنَّ هذه بتلةٌ بيضاء، وتلك حمراء. للوهلة الأولى ما عرفت بتاتاً المعنى في قلب الكلمات.

أدِرْ الدفَّة، أدر دفة الصنوبر المجنحة، ملّاحيَ المرهق

قرأتها وقلبت الصفحة، تؤرجح نفسها، تعرّج في هذا الاتجاه وذاك، تثب من سطرٍ إلى سطر كما لو أنها تثب من غصنٍ إلى غصن، من زهرةٍ حمراء بيضاء إلى أخرى، إلى أن أيقظها صوتٌ خافت - زوجها يصفق فخذيه. عيناهما التقتا للحظة؛ لكن لا أحد منهما رغب في تبادل الحديث مع الآخر. فلا شيء لديهما يقولانه، عدا أنَّ شيئاً بدا ينبعث منه إليها. الحياة، عنفوان الحياة، مزاجه الطاغي الذي دفعه إلى أن يصفق فخذيه. لا تقاطعيني، بدا يقول، لا تقولي شيئاً؛ فقط اجلسي هناك. وواصل هو قراءته. شفتاه ترتعشان. فقد امتلأ. تحصّن. امّحى عن ذاكرته كلّ ما ضايقه على المائدة من نقدٍ وسخرية، الضجر المريع الذي أصابه على مرأى الأشخاص يلتهمون الطعام والشراب بلا

توقف فيما جلس هو ثابتاً يلتزم الصمت، سخطه البالغ على زوجته وحساسيته الزائدة وانزعاجه على تجاهلهم كتبه وكأنها يوماً لم تكن. لكن الآن، راوده الإحساس، لا يصنع فرقاً لعيناً من يصل «Z» (إن كانت مقامات الفكر كما الأبجدية، تبدأ مع «A» وتنتهي مع «Z») فأحدهم حتماً سيصل إليه - وإن لم يكن هو ذاك الأحد، فشخصٌ آخر. قوة السير سكوت وعقلانيّته، شعوره تجاه الأمور البسيطة المباشرة، أولاء الصيادون، وهذا المخلوق الهرم المسكين، المخبول ماكِلبَكيت في كوخه، أعطاه زخماً، أزاح وقراً عن صدره وبات يشعر بهمته تُستنهض من جديد، بنشوة انتصاره، وما كان بيده حبس الدمع في عينيه. رافعاً الكتاب قليلاً كي يخفي وجهه، ترك الدمع ينساب وهزَّ رأسه ونسي نفسه كليةً (عدا عن خاطرٍ أو خاطرين عن الأخلاقيات والرواية الفرنسية والرواية الانجليزية وكوْن يدا سكوت مقيدتين إلا أنَّ منظوره لا يقل صحةً عن المنظور الآخر)، نسي همومه وفشله كليةً في غرق اسْتِيني وأسى ماكلبكيت (سكوت في أوج إبداعه) وفي البهجة المذهلة والزخم العظيم الذي أعطاه إياه.

حسنٌ، دعهم يحاولون التفوق على هذا، قال في نفسه ما إن انتهى من قراءة الفصل. وكأنما قضى كلّ تلك المدة يتناقش مع شخص، وها قد غلبه بالحجّة. ليس بيدهم التفوّق على هذا، مهما قالوا؛ وإذ يشعر بأن مكانته الآن باتت محصنة أكثر. العشيقان كانا هراء، قال في نفسه، يستجمع الأمور في عقله مرةً أخرى. هذا هراء، وذاك من الطراز الرفيع، جلس يتفكر، يقارن الشيء بالآخر. لكن لا بُدّ من قراءة الرواية من جديد. إذ عصي عليه تذكرها في صورتها الأشمل. سيبقي حكمه للوقت الحالي معلقاً. وبذا عاد إلى الخاطر الآخر - إن كان الشباب اليافع لا يكترث بهذا، فمن الطبيعي أنهم لن يكترثوا به. على المرء ألّا يتذمر، قال في نفسه، يحاول جهده كبت رغبته في بث شكواه إلى زوجته بأن الشباب اليافع ليسوا معجبين به. فقد عقد عزمه؛ هو لن يزعجها مرة أخرى. وهنا رآها تقرأ. بدت في طمأنينة، وهي تقرأ. راق له تصور الجميع وقد انصرفوا خارجاً وأن لا أحد موجودٌ سواه وهي. غير أنَّ خاطراً ساوره، أن الحياة لا تكمن في اصطحاب امرأة إلى الفراش، فعاد إلى سكوت وبلزاك، إلى الرواية الانجليزية والرواية الفرنسية.

السيدة رامزي رفعت رأسها، ومثل نائمٍ استفاق من نومٍ خفيف بدا كأنما تقول له أنه إن أراد إيقاظها ستستيقظ، حقاً ستستيقظ، لكن إن لا، فهل لها أن تواصل نومها، فقط لوهلة أطول، لوهلة أطول؟ فهي تتسلق تلك الغصون، في هذا الاتجاه وذاك، تضع يديها على زهرةٍ ومن ثم أخرى.

ولا أطريتُ قُرْمزَ الزهرة القاني

قرأتها، وبقراءتها سمت، نحو الأعلى، نحو القمة. كم هو إحساسٌ مشبع! مريح! كلّ بهارج اليوم علقت بهذا المغنطيس؛ انمسح عن عقلها كلّ شيء، وبات نظيفاً. والآن، فجأة، ها هي تتجلى أمامها؛ تحملها على يديها، جميلة وعقلانية، صافية ومكتملة، ها هي ذا - السونيتة.

غير أنها اللحظة وعت لزوجها ينظر إليها. كان يبتسم لها، ابتسامة ساخرة، وكأنما يسخر منها برقّة لنومها في واضحة النهار، لكن في ذات الوقت، قال في نفسه، واصلي القراءة. إذ لا تبدين حزينة الآن. وتساءل عمّا كانت تقرأ، وبالغ في تجهيلها، في تبسيطها، إذ راق له أن يظنها غير ذكية، ما تلقت تعليماً رسمياً في حياتها. تساءل إن كانت تفهم ما تقرأ. على الأرجح لا، قال في نفسه. رآها فائقة الحسن. جمالها بدا له، إن كان من الممكن، يزداد جمالا،

لكن الشتاء، في غيابك، لمّا يزل،

ومثلما يواسيني طيفك، هي واستني،

وانتهت.

«حسنٌ»، قالت، حالمةً تردّد صدى ابتسامته، ترفع عينيها عن الكتاب.

ومثلما يواسيني طيفك، هي واستني،

غمغمتها، تضع الكتاب جانباً على الطاولة.

ما الذي حدث، تساءلت، تتناول صنارتيها، مذ رأته وحده؟ تذكرت تأنقها، ورؤية القمر؛ آندرو يحمل الطبق عالياً على المائدة؛ إحباطها من شيءٍ قاله ويليام؛ الطيور على الأشجار؛ الأريكة على مبسط السلم؛ الأطفال متيقظون؛ تشارلز تانسلي يوقظهم بدوي كتبه - أوه، لا، هي ابتدعت هذا؛ وامتلاك بول صندوق شاموا يحتفظ فيها بساعته. عن أي تلك المواضيع ستحادثه؟

«قد انخطبا»، قالت له، ما إن بدأت تحبك، «بول ومنتا».

«قد خمّنت»، أجابها. لا شيء أكثر لديهما يقولانه حول هذا الموضوع. عقلها لمّا يزل يعلو ويهبط، يعلو ويهبط على موج الشعر؛ وهو لمَّا يزل منتشياً بزخمٍ قوي، ميلٌ ينازعه إلى التصريح

عن مشاعره، بعد قراءته جنازة اسْتيني. لذا جلس كلاهما في صمت. من ثم وعت إلى رغبتها بأن يقول شيئاً.

أيّ شيء، أيّ شيء، ردّدت في نفسها، تواصل حبكها. أيّ شيءٍ سيفيها.

«إنّه لَمِنَ اللطيف الزواج من رجل لا لشيء سوى أنه يملك حقيبة شاموا لأجل ساعته»، قالت له، إذ أنّ هذا نوع المزاح الذي اعتادا عليه.

شخر. فشعوره تجاه هذه الخطبة هو ذات شعوره تجاه أي خطبة؛ الشاب لا يليق بها، وهي أفضل منه بكثير. وإذ يخطر لها، على مهل، علام إذن يرغب المرء في تزويج الناس؟ ما قيمة الزواج، ما المغزى من الأشياء؟ (أي كلمةٍ يقولانها الآن ستكون الحقيقة). قل شيئاً، قالت في نفسها، متمنيةً وحسب سماع صوته. فالظل، هذا الشيء الذي يطوقهما، شعرت به يطبق عليها مرة أخرى. قل شيئاً، تنظر إليه بعينٍ راجية، تتوسّله العون.

جلس صامتاً، يؤرجح البوصلة المدلّاة من سلسلة ساعته إياباً وذهاباً، يتفكر في روايات سكوت وروايات بلزاك. غير أنَّ عبر جدران حميميّتهما الغسقيّة، ينجذبان إلى بعضهما لاطوعيّاً، يدنوان جنباً إلى جنب، ملتصقَين، شعرت بعقله يداً مرفوعة تظلل عقلها؛ وها هو الآن، وقد أخذت أفكارها منعطَفاً لا يهواه - تجاه هذا «التشاؤم» كما يدعوه - أخذ يتململ في كرسيه، ورغم أنه ما نطق بكلمة، رفع يده إلى جبينه، فتل خصلة من شعره، وتركها تنحل.

«لن تنهي الجورب الليلة»، قال لها، مشيراً إلى جوربها. هو ذا، هو ذا ما تريد - الخشونة في صوته يوبخها. إنْ يَقُلْ من الخطأ أن تكون متشائمة فعلى الأرجح هو محقّ، قالت في نفسها؛ الزواج سيسير على ما يرام.

«كلّا»، أجابته، تبسط الجورب على ركبتها، «لن أنهيه».

وماذا بعد؟ إذ شعرت بأنه ما زال ينظر إليها، إلا أنَّ نظرته تبدلت. هو أراد شيئاً - أراد الشيء الذي لطالما وجدته عصيّاً عليها أن تعطيه؛ أراد منها أن تخبره بأنها تحبه. وهذا، لا، ليس بيدها. فالكلام لديه أسهل بكثير مما هو لديها. له أن يقول أشياء - ما ليس بوسعها أبداً قولها. لذا من الطبيعي أن يقول هو تلك الأشياء لا هي، من ثم فجأة، ولسبب ما، سيمانع صمتها، ويؤنبها. امرأة

متحجرة القلب، كذا يدعوها؛ ما أخبرته قطّ أنها تحبه. غير أنها ليست الحقيقة - ليست الحقيقة. الأمر وحسب أنها ما استطاعت قطّ التعبير عن مشاعرها. أهناك فتاةٌ على معطفه؟ أما من شيءٍ تفعله لأجله؟ نهضت، ووقفت عند النافذة مع الجورب البُنّي المحمرّ في يديها، كيما تدير له ظهرها، وكذلك لأنها تذكرت كيف للبحر أن يبدو جميلاً - في عتمة الليل. لكنها وعت إلى استدارته برأسه ما إن استدارت؛ يرقبها. وواعية إليه يقول في نفسه الآن، تبدين أجمل من أي وقتٍ مضى. وهي شعرت بأنها جميلة، جميلة جداً. ألن تقوليها ولو لمرة واحدة أنك تحبينني؟ سألها في خلده، فقد استثيرت مشاعره، من بعد منتا والكتاب، من كونه آخر اليوم ومن بعد شجارهما حول الرحلة إلى المنارة. لكن ليس بيدها؛ لا، لن تنطق بها. ومن ثم، واعية له يرقبها، بدلاً عن قولها أي شيء، استدارت، تمسك بجوربها، ونظرت إليه. وفيما تنظر إليه ابتسمت، إذ حتّى وإن لم تنطق بكلمة، فهو يعرف، بالطبع يعرف، أنها تحبه. ولا يسعه الإنكار. ومبتسمة، ترنو إلى خارج النافذة، قالت (تقول في نفسها، لا شيء على هذه الأرض يعادل السعادة التي أشعر بها اللحظة) -

«أجل، أنت محق. الغد سيكون ماطراً. ولن يسعك الذهاب». ونظرت إليه مبتسمة. فقد انتصرت مرة أخرى. ما نطقت بها: ومع ذلك هو يعرف.

الجزء الثاني

ويمرُّ الزَّمن

الفصل الأول

«حسنٌ، علينا انتظار ما سيكشفه المستقبل لنا»، قال السيد بانكس، داخلاً من المصطبة.

«قد أظلمت وبالكاد نبصر»، قال آندرو، قادماً من الشاطئ.

«بالكاد للمرء أن يميّز البحر من الساحل»، قالت برو.

«أنتركُ ذاك الضوء مشتعلاً؟»، سألت ليلي فيما هم يخلعون معاطفهم داخلاً.

«لا»، أجابتها برو، «ليس والجميع موجودون».

«آندرو»، التفتت وراءها منادية، «فقط أطفئ المصباح في الردهة».

مصباحٌ ينطفئ بعد مصباح والمصابيح كلها انطفأت، عدا أنَّ السيد كارمايكل، من يهوى الاستلقاء مستيقظاً حتّى وقتٍ متأخر يقرأ فيرجيل، فقد أبقى شمعته مشتعلة لبرهةٍ أطول.

الفصل الثاني

وبذا مع انطفاء المصابيح، مع غَوْر القمر، مع المطر الخفيف يقرع السقف، ظلمةٌ حالكة انهمرت. وبدا، كأن لا شيء، له أن ينجو من هذا الطوفان، من دفق الظلمة الغزيرة، تنسلّ عبر ثقوب المفاتيح والشقوق، تدبّ خلسةً من حول ستائر النافذة، تصل حجر النوم، تبتلع إبريقاً وإناءً هنا، تبتلع زُبدية زهور أضاليا حمرٍ وصفرٍ هناك، تبتلع حواف خزانة الأدراج الحادة وبدنها الصلب. ليس الأثاث وحسب اختلط على بعضه البعض؛ بل بالكاد تبقى شيءٌ من جسد أو عقل يتسنّى لأحدهم أن يشير إليه فيقول، «هذا هو»، أو «هذه هي». أحياناً يدٌ تُرفَع كأنما ستقبض على شيء، أو تدفع عنها بشيء، أو يئن أحدهم، أو يقهقه أحدهم عالياً وكأنما العدم ألقى للتو عليه مزحة.

لا أنَّة في حجرة الاستقبال ولا في حجرة الطعام ولا على السلالم. عدا عن مسارب هوائية صغيرة، انفصلت عن جسد الريح، وهبّت عبر المفاصل الصدئة وشقوق المنجور المنتفخ إثر رطوبة البحر (فالبيت مهلهلٌ متداعٍ) تنسلّ خلسةً حول الزوايا مقتحمةً البيت. للمرء أن يتخيل تلك المسارب، ما إن تدخل حجرة الاستقبال حتّى تتساءل محتارة، تلهو بالمزقة المتدلية عن ورق الجدران، تسأل، أتراها ستظل متدلّية لوقتٍ أطول، ومتى ستسقط؟ من ثم تمسّ الجدران بنعومة، تمرّ عليها متأملة، وكأنما تسأل الزهور الحمر والصفر على ورق الجدران إن كانت ستبهت يوماً، تطرح أسئلتها (برفق، إذ أنّ لديها الوقت) على الرسائل الممزقة في سلة المهملات، على الأزهار، على الكتب، والتي باتت جميعها مفتوحة لها، تسألهم، هل هم حلفاء؟ هل هم أعداء؟ وحتّام سيدومون؟

وإذا بشعاع ضوءٍ عشوائي يسوقهم بخطاه الخافتة على الدرجات والسجاد، ساقطٌ من نجمةٍ مجهولة، من سفينةٍ هائمة، أو حتّى من المنارة، خلف خطاه الخافتة على الدرجات والسجاد، صعدت المسارب الصغيرة السلالم ودست أنفها حول أبواب حجر النوم. لكن ههنا وكفى، لزامٌ عليها التوقف. وأيّاً يكن ما سيفنى ويتلاشى، فما يكمن هنا ثابتٌ وطيد. هنا للمرء أن يقول إلى تلك الأضواء المنزلقة، إلى تلك المسارب المرتبكة تتنفس وتنحني فوق هذا السرير، **ههنا** لا بيدك مسه

ولا تدميره. وعليه، سئِمة، شبحية، بأنامل في خفة الريش، في رقّة مثابرة الريش، استرقت نظرة، على الأعين المغمضة، على الأصابع المتشابكة الرخوة، وسئِمةً طوت أرديتها وانصرفت. تدس أنفها، تحتك بالجدران، مضت نحو النافذة على مبسط السلم، إلى غرف نوم الخدم، إلى الصناديق في العلاليّ؛ وفي هبوطها، بيّضت التفاح على طاولة حجرة الطعام، بعثرت بتلات الأزهار، دفعت اللوحة على الحامل، اندفعت بخفّة على السجاد ونفخت على الأرضية نزراً من الرمال. وأخيراً كفَّت، معاً توقفت، معاً اجتمعت، ومعاً تنهدت؛ معاً زفرت عصفة عويلٍ هائمة ردَّ عليها باب المطبخ؛ شُرِع على مصراعيه؛ ما اعترف بشيء؛ وانصفق.

(هنا السيد كارمايكل، من كان يقرأ فيرجيل، نفخ على شمعته. فالوقت قد تجاوز منتصف الليل).

الفصل الثالث

لكن في النهاية ما الليلة الواحدة؟ أمدٌ قصير، لا سيّما متى ما يعتمُ الليل مبكراً، ومبكراً يغرّد الطير، مبكراً يصيح الديك، أو أخضرُ واهٍ يتعجل، مثل ورقة شجر متقلبة، في جوف موجة. عدا أنَّ الليل، يعقبه ليل. والشتاء يحمل مخزوناً من الليالي ويتعامل معها على قدم المساواة، بعدل، بأصابع لا تعرف الكلل. الليالي تطول؛ ظلمتها تشتد. بعضها ترفع عالياً كواكب صافية، أطباقاً ساطعة. أشجار الخريف، وإن هي خربة مسلوبة الأوراق، تلتقط وهج الأعلام الرثّة الممزقة تتضرَّم في ظلمة كهوف الكاتدرائية حيث الحروف الذهبية على صفحات الرخام تصِف الموت على أرض معركة وكيف للعظام أن تشحب وتحترق بعيداً في الرمال الهندية. أشجار الخريف تومض في ضوء القمر الأصفر، في ضوء أقمار الحصاد، الضوء الذي يلطّف من عناء الكادح، تملّس جذامة الزرع، تستنهض الموج الأزرق فيتلاطم رقيقاً على الشاطئ.

والآن يبدو كما لو أنّ، متأثرة بندم الإنسان وكل شقائه وكدحه، يد العناية الإلهية شرعت الستار تعرض من خلفه، فرادى، جليّة، الأرنبة البرية تنتصب؛ الموجة تسقط؛ القارب يتأرجح؛ والتي، لو كنا نستحقها، لحظينا بها إلى الأبد. لكن للأسف، يد العناية الإلهية، تشدّ الحبل، تُسدل الستار؛ هو غير راضٍ بما يراه؛ يدفن كنوزه في نَقْعٍ من البَرَد، وبذا يكسرهم، يبلبلهم إلى حدٍّ يبدو فيه مستحيلاً أن يستعيدوا سكونهم أو أننا ذات يوم سيتسنى لنا أن نُشكّل من كِسَرهم صورةً مكتملة أو نقرأ على النثار كلمات الحقيقة الجليّة. فندمنا جديرٌ بلمحة وحسب؛ كدحنا جديرٌ بالإرجاء وحسب.

الليالي الآن عاصفة ومدمرة؛ الريح تدفع الأشجار وتحنيها وأوراقها تتطاير شذرَ مذرَ إلى أن اكتست المرجة بها وها هي تتجمّع أكواماً في البواليع وتخنق الميازيب وتتبعثر على المجازات الرطبة. وها البحر المضطرب يقذف هائجاً بأمواجه المتكسرة، وإن توهّم أيّ نائم أنه قد يجد على الشاطئ إجابة على شكوكه، شريكاً لعزلته، فيطرح عنه لحافه وينحدر إلى الأسفل وحده ويمشي على الرمال، فلن تتراءى له صورة تحمل ولو أوهى الشبه بالنفع واليقظة الإلهية فتعيد النظام إلى

الليل وتجبر العالم على تأمل بوصلة الروح. اليد تتقلص في يده؛ الصوت يجأر في أذنه. وعلى الأرجح سيبدو غير ذي جدوى في غمرة المعمعة طرح أسئلة كهذه على الليل من مثل ماذا، ولماذا، وإلى أين، والتي تغري السائل إلى النهوض عن فراشه سعياً إلى إجابة.

{السيد رامزي، وقد زلت قدمه في الرواق صباح يومٍ قاتم، مدّ ذراعيه، لكن مع موت السيدة رامزي المفاجئ الليلة السابقة، فذراعاه، ممدودتان، ظلّتا خاويتين.}

الفصل الرابع

وبذا مع وجود البيت فارغاً والأبواب مقفلة والفرش مقلوبة، فتلك المسارب الهوائية الشاردة، جُند الصفّ الأمامي في الجيوش العظيمة، عصفت داخلاً، مسّت الألواح الخشبية العارية، تلثم وتهوّي، ما لاقاها شيءٌ في حجرة النوم أو حجرة الاستقبال يبدي مقاومة لها عدا عن الخِرَق تصفق، الخشب يصرّ، سيقان الطاولات العارية، قدورٌ وآنية صينيّة مُفَرَّاة، باهتة، متصدعة. ما طرحه الناس وتركوه خلفهم - زوج أحذية، قبعة صيد، بضعة تنانير ومعاطف ذاوية في حجرة الملابس - تلك وحدها حافظت على شكلٍ للوجود الإنساني وفي خوائها توحي كيف أنها فيما مضى كانت ملأى ونابضة بالحياة؛ الأيادي انشغلت بالعقائف والأزرار؛ كيف أنَّ المرآة ضمّت وجهاً؛ ضمّت عالماً أجوف خارجها حيث التفت شخصٌ، التمعت يد، الباب فُتِح، الأطفال دخلوا متدافعين صخبين؛ ومرةً أخرى غادروا. والآن، يوماً بعد يوم، الضوء يسطع بصورته الحادة على الحائط المقابل، مثلما تنعكس زهرة على صفحة ماء. وحدها أخيلة الأشجار، الخافقة في الريح، تنحني في إجلال على الحائط، وللحظة تُعْتِمُ البركة حيث الضوء يعكس نفسه؛ أو الطيور، في تحليقها، تهزّ بصَفْق أجنحتها الوقور، تلك البقعة الرخوة من أرضية حجرة النوم.

وبذا ساد الجمال والسكون، ومعاً خلقا صورة الجمال ذاته، صورة افترقت الحياة عنها؛ منعزلة كما بحيرة في المساء، نائية، تلمحها العين من خلف نافذة قطار يتلاشى بسرعة حدَّ أنَّ البحيرة، الشاحبة في المساء، نادراً ما تُسلَب عزلتها، حتّى وإن تبدت للعين في لمحة. الجمال والسكون تشابكا بالأيدي في حجرة النوم، وبين الأباريق المكفَّنة والكراسي المغطاة بالملاءات فحتّى عين الريح المتفرسة، الأنف الناعم لنسائم البحر الندية، تحتكّ، تتشمّم، مراراً وتكراراً، تُردّد ذات سؤالها - «هل ستبهتان؟ هل ستفنيان؟» - نادراً ما عكّرت صفوهما، لا مبالاتهما، هالة استقامتهما، وكأنما السؤال الذي يُطرَح عليهما بهما لا حاجة أصلاً للإجابة عليه: نحن باقيان.

لا شيء بدا قادراً على تحطيم تلك الصورة، إفساد تلك البراءة، أو خرق حجاب الصمت المتمايل الذي، أسبوعاً تلو أسبوع، في الحجرة الخاوية، قد حبك في نفسه الصدى الراجع لصيحات الطيور، نعيب السفن، أزيز وطنين الحقول، نباح كلب، صرخة رجل، وانطوى حول البيت في صمت. مرّةً هوى لوحٌ على مبسط السلم؛ مرّةً في منتصف الليل مع هدير، مع انفجار، مثلما تنتزع صخرةٌ نفسها عن الجبل بعد قرون من الهمود فتهوي متهشّمة في الوادي، ثنيةٌ من الشال انحلّت وتأرجحت يمنة ويسرة. من ثم عاد الهدوء يلفّ المكان؛ والظل ارتعش؛ والضوء انحنى إجلالاً لصورته المنعكسة على حائط حجرة النوم؛ والسيدة مكناب؛ تمزّق حجاب الصمت بيدين تخوّضان في حوض الغسيل، تجرشه بجزمة تسحق الحصباء، ها هي أتت تنفذ التعليمات بأن تُشرِّع كلّ النوافذ، وتنفض عن حجر النوم الغبار.

الفصل الخامس

فيما تطوف المكان مترنحة (فهي تتقلب كما السفينة في أمواج البحر) تنظر شزراً (فعينها لا تقع على الشيء، بل ترمقه بطرفها مستهجنةً سخرية الدنيا وغضبها - أجل هي حمقاء، وهي على علمٍ بذلك)، فيما تتشبّث بالدرابزين وتجرُّ نفسها صاعدةً السلالم تتقلب من غرفةٍ لأخرى، ما انفكّت تغني. فيما تفرك زجاج المرآة العاكسة الطويلة وتنظر شزراً بطرف عينها نحو طيفها المتمايل صوتٌ انبعث من بين شفتيها - شيءٌ كان مرحاً قبل عشرين عاماً لربّما على خشبة مسرح، يُدنْدَن ويُرْقَص عليه، لكن الآن، وهو ينبعث من فم امرأةٍ درداء، تعتمر قلنسوة، المشرفة على البيت، فقد سُلِبَ معناه، بات أشبه بصوت الحماقة، الفكاهة، المثابرة ذاتها، تُداس بالأقدام لكنها تعود وتثب، وبذا فيما تطوف مترنحة، تنفض، تمسح، بدا وكأنما تقول يا له من أسىً طويلٍ شقيّ، النهوض عن الفراش والعودة إليه من جديد، وضعُ الأشياء خارجاً من ثم إعادتها من جديد. لا هو بالعالم السهل ولا الحسن هذا العالم الذي عرفته عن كثب على مرّ سبعين عام. مرهقة ضجرة انحنت. حتّام، سألت نفسها، تصرّ، تتأوه جاثمة على ركبتيها تحت السرير، تنفض الغبار عن الألواح، حتّام سيبقى؟ غير أنها، تعرج على قدميها، جمعت شتات نفسها، ووقفت أمام المرآة، تنظر شزراً متحاشية حتّى رؤية وجهها، رؤية أساها، وفغرت فاها، تبتسم للا أحد، من ثم عادت، تعرج وترهو، ترفع السجاد، تضع آنية الصيني، تخزر المرآة، وكأنما، رغم كلّ شيء، قد حظيت بالسلوان، كأنما مجدولٌ في ترنيمتها الجنائزية أملٌ عنيد. فرؤىً من السعادة عاشتها ولا ريب في حوض الغسيل، مع أطفالها مثلاً (رغم أنَّ اثنين منهما غير شرعيين وأحدهم هجرها)، في البيت العمومي، تحتسي الشراب؛ تُقلّب الخرق البالية في أدراجها. فَلْقٌ في الظلمة ولا ريب انشق، شعاعةُ ضوءٍ انبعثت من أعماق المجهول المعتم، بما يكفي، كي تلوي وجهها في تكشيرةٍ عريضة على صفحة المرآة وتجعلها، عائدة إلى عملها من جديد، تغمغم الأغنية العتيقة من أغاني قاعات الحفلات. الصوفيّ، الرؤيويّ، يمشي على الشاطئ في ليلةٍ صافية، يعكّر صفو بركةٍ موحلة، يتأمل حجراً، يسأل نفسه «ما أنا»، «ما هذا؟»،

وفجأة يُمنَح الجواب: (ليس بيده الإفصاح عنه) وهكذا بات دافئاً في الصقيع ووجد السلوان في الصحراء. لكن السيدة مكناب واصلت الشرب والنميمة، على عادتها القديمة.

الفصل السادس

الربيعُ بلا ورقة ترفّ، عارٍ ونضرٌ مثل عذراء شرسة في عفّتها، مزدرية في طهارتها، استلقت على الحقول يقظة محدّقة العينين لا مبالية البتّة بما يفعله الرائي ولا بما يدور في خلده. {برو رامزي، متّكئة على ذراع أبيها، قد وُهبَت للزواج. وقال الناس، أمن شيءٍ يليق بها أكثر من هذا؟ كذلك، أردفوا قائلين، يا لها من فاتنة!}

مع دنوّ الصيف، فيما الأماسي تستطيل، تجلّت لليقظان، الآمل، يمشي على الشاطئ، يعكّر صفو البركة الموحلة، تخيّلات من أغرب نوع - عن جسدٍ تشظّى إلى ذرّات تسوقها الريح، عن نجومٍ تتوهج قلوبها، عن جرف، بحر، غيمة، وسماء استُحضرَت عمداً كي تجمع الأجزاء الظاهرة المتفرقة للرؤيا الباطنة. في تلك المرايا، في عقول الرجال، في تلك البرك من المياه المضطربة، حيث السحب تتقلب على الدوام والأخيلة تتشكل، ظلت الأحلام تثابر، وكان من المستحيل مقاومة التلميح الغريب الذي بدا وكأنما كلّ طائر نورس، زهرة، شجرة، رجل وامرأة، والأرض البيضاء ذاتها، يصرّح به (لكن إن جُوبه بالتشكيك ففوراً سيُسْحب) أن الخير ينتصر، السعادة تعمّ، والنظام يسود؛ أو مقاومة الحافز الاستثنائي للتطواف هنا وهناك بحثاً عن خيرٍ مطلق، عن حدةٍ متبلورة، نائية عن المباهج والفضائل المألوفة، شيء غريب عن عادات الحياة المنزلية، مفرد، صلب، وساطع، مثل ماسةٍ في الرمال، والتي تصيّر مالكها آمناً. كذلك فالربيع، مذعانةً لينة العريكة، فيما النحل من حواليها يطنّ والبعوض يتراقص، تدثرت بعباءتها، حجبت عينيها، أشاحت برأسها، ومن بين الأخيلة المارّة والأمطار الخفيفة العابرة بدا وكأنما قد حملت على عاتقها معرفة أسى البشرية.

{برو رامزي توفّيت ذاك الصيف بمرضٍ متعلق بالولادة، والذي حقاً هو مأساة، قال الناس، إذ كلّ شيء، أردفوا قائلين، بدا واعداً بحياةٍ رائعة.}

وها هي ذي الريح في قيظ الصيف تبعث بجواسيسها يحومون في البيت مرة أخرى. الذباب غزل شباكه في الحجرات المشمسة؛ الأعشاب الضارة التي نمت قريبة من الزجاج لا تنفك في الليل

تقرع إطار النافذة. متى ما انسدل الليل، نبضة المنارة، والتي بسطت سطوتها على السجاد، تتقفّى في العتمة زخرفه، ها هي تدخل البيت في ضوء الربيع الخافت الممزوج بضوء القمر ينحدر برقّة وكأنما النبضة تلثم قبلة وتتريث خلسة متأملة ومن ثم تلثم قبلة أخرى. لكن في قلب هذه التهويدة من العناق المحب، فيما النبضة تنحني أعلى الفراش، الصخرة انتُزِعَت وتهشّمت؛ طيّةٌ أخرى من الشال انحلّت؛ وهنالك تدلّت، وتأرجحت. وعبر ليالي الصيف القصيرة وأيّام الصيف الطويلة، الغرف الخاوية بدت وكأنما تدمدم صدى الحقول وطنين الذباب، الراية الطويلة ما برحت تلوح برقّة، تخفق بلا هدف؛ الشمس جرَّدت الغرف، تغدق عليها سديماً ذهبيّاً، بحيث متى ما اقتحمتها السيدة مكناب وتجولت مترنحة فيها، تنفض، تمسح، بدت مثل سمكةٍ استوائية تجذّف طريقها عبر مياهٍ تخترقها رماح الشمس.

لكن حتّى وإن كان هناك نومٌ وهجوع، ففي نهاية ذاك الصيف حلَّت أصواتٌ تنذر بالشؤم أشبه بدوي مطارق على اللباد، والتي، بصدماتها المتكررة، أرخت طيات الشال أكثر وأكثر وصدّعت فناجين الشاي. بين الفينة والأخرى كأسٌ ترن في الخزانة كأنما عملاقٌ للتو زعق فجيعته بأعلى صوته وعلى ذبذباته حتّى الأقداح في الخزائن تهتز. من بعدها يعود الصمت ويخيم على المكان؛ ومذ ذاك، ليلة تلو ليلة، وأحياناً في واضحة النهار حيث الزهور نضرة والضوء يسطع صورته الجلية على الحائط بدا وكأنما هنالك شيءٌ يسقط في هذا الصمت، في هذه اللامبالاة، في هذا الكمال، الدوي المكتوم لشيءٍ هاوٍ.

{قذيفةٌ هوت. عشرون أو ثلاثون شاباً يافعاً تفجّروا إرباً في فرنسا، من بينهم آندرو رامزي، والذي لقي حتفه، من رحمة السماء، فوراً.}

في ذاك الصيف أولئك من اعتادوا المشي على الشاطئ جيئة وذهاباً يسألون البحر والسماء عن الرسالة التي يحملانها أو الرؤيا التي يوكدانها وجدوا أنفسهم مضطرّين إلى التفكّر ملياً ضمن تأملهم المعتاد في أمارات الكرم الإلهي - غروب الشمس على البحر، امتقاع الفجر، طلوع القمر، قوارب الصيد في ضوء القمر، الأطفال يشكلون فطائر من الطين أو يتقاذفون حفنات العشب - في شيءٍ آخر يتنافر مع هذا التناغم من الجذل والسكينة. فهنالك مثلاً الشبح الصامت لسفينة رمادية شاحبة، تُقْبِل، وتمضي؛ هنالك البقعة الأرجوانية على السطح الرقيق للبحر وكأنما شيءٌ يغلي وينزف، خفيةً، في أعماقه. هذا التطفل على مشهدٍ محسوب بدقة كيما يثير في النفس أعظم التأملات

السامية ويفضي إلى أكثر الاستنتاجات إراحةً لها قد أعاق مشيهم. فمن الصعوبة بمكان تجاهله بلا مبالاة؛ طمس دلالته في المنظر الطبيعي؛ مواصلة امرئٍ منهم لدى مشيه على البحر تأمّل أعجوبة الطبيعة وكيف تعكس في جمالها الظاهري جماله الباطني.

لكن أترى عزّزت الطبيعة ارتقاء الرجل؟ هل أكملت ما ابتدأه؟ فهي، معتدة بنفسها قدر اعتداده بنفسه، قد شهدت بؤسه، أنانيته، وعذابه. وأليس ذاك الحلم بالمشاركة، بالإكمال، بالعثور على جواب في عزلة المشي على الشاطئ، سوى انعكاسٍ على مرآة، والمرآة نفسها أليست سوى سطحٍ زجاجي يتشكل في السكون متى ما خلدت القوى الأعظم إلى النوم أسفله؟ نافد الصبر، يائساً وإن كارهاً الرحيل (فالجمال تعرض له إغواءها، تعرض عليه مواساتها)، بات المشي على الشاطئ أمراً مستحيلاً؛ الاستغراق في التأمل لا يطاق؛ المرآة تهشمت.

{السيد كارمايكل أصدر ديواناً شعريّاً ذاك الربيع، ولاقى نجاحاً غير متوقع. فالحرب، قال الناس، قد أحيت فيهم من جديد اهتمامهم بالشعر.}

الفصل السابع

ليلة تلو ليلة، صيفاً وشتاء، تحت قصف العواصف، في السكون النافذ كما السهم (لو كان هنالك من مستمع) لا شيء كان يُسمَع سوى الفوضى العملاقة تنطلق بسرعة البرق من الحجرات العلوية للبيت الخاوي تهرول وتطرح ما يقف في طريقها أرضاً، فيما الرياح والأمواج تُلهي نفسها مثل وحوش لوياثان ضخمة عديمة الشكل ما اخترق جباهها ضوء المنطق، تمتطي بعضها البعض، متهورة تغمد سيوفها في بعضها البعض أثناء العتمة أو النهار (فالليل واليوم، الشهر والسنة، امتزجت بعضها ببعض ومرّت دون أن يميزها أحد) في ألعاب غبية، إلى أن بدا وكأنما الكون يتعارك ويتصارع، في حيرةٍ بهيمية وشهوةٍ وحشية، بلا أيّة غاية، مع نفسه.

في الربيع، جرار الرماد في الحديقة، الملأى بالنباتات الريحيّة، بدت زاهية على عادتها. البنفسج انبثق والنرجس البريّ. عدا أنَّ سكون وسطوع النهار جاء بقدر غرابة فوضى واضطراب الليل، مع الأشجار واقفة هناك، والأزهار واقفة هناك، تنظر أمامها، تنظر أعلاها، بيد أنها لا تبصر شيئاً، مفقوءة الأعين، ومروِّعة.

الفصل الثامن

فيما تقول في نفسها، وأين الضرر، فالعائلة لن تأتي، ويُحتمل ألّا تأتي أبدا، كذا قال بعض الناس، وعلى الأرجح البيت سيُباع في ميكلماز، انحنت السيدة مكناب واقتطفت حزمة من الأزهار تأخذها معها إلى بيتها. وضعتها على الطاولة ريثما تنفض الغبار. فهي مولعةٌ بالأزهار. ومن المحزن تركها تذوي. فرضاً أنّ البيت بيع (وقفت متخصّرة أمام المرآة) فسيحتاج إلى من يعتني به - لزاماً سيحتاج. إذ وقف قائماً كلّ تلك الأعوام بلا روحٍ واحدة تسكنه. الكتب والأشياء أصابها العفن، ومع كلّ ما يجري في الحرب وصعوبة الحصول على أيّة مساعدة، لم يلقَ البيت التنظيف المناسب الذي تتمنّاه. وترتيبه الآن يتجاوز استطاعة شخصٍ واحد. فقد هرمت. ساقاها تؤلمانها. كلّ تلك الكتب في حاجة إلى بسطها على العشب كي تتشمّس؛ في الرواق الجصّ يتساقط؛ الميزاب أعلى نافذة المكتب مسدودٌ والماء ينسرب منه داخلاً؛ السجادة قد تلفت تماماً. لكن توجّب على أهل البيت أن يأتوا؛ توجّب عليهم إرسال أحد يرى الوضع بنفسه. فهناك ملابسُ في كلّ الخزائن؛ قد تركوا ملابس في كلّ حجر النوم. وما عساها تصنع بها؟ قد أصابها العثّ - متعلقات السيدة رامزي. المرأة المسكينة! لن تحتاج **إليها** مرةً أخرى. فهي ميتة، كذا قالوا؛ ماتت قبل أعوام، في لندن. وها هو ثوبها الرمادي الفضفاض الذي اعتادت على ارتدائه كلما خرجت للبستنة (السيدة مكناب تتلمّسه بإصبعها). وقد اعتادت السيدة مكناب على رؤيتها، فيما تسير أعلى درب البيت حاملةً الغسيل، منحنية فوق أزهارها (الحديقة استحالت منظراً يثير الشفقة، تعمّها الفوضى، والأرانب لا تنفكّ تثب عليك من المساكب) - تراها بصحبة أحد أطفالها يمشي إلى جانبها مرتدية هذا الثوب الفضفاض. هناك جزمٌ وأحذية؛ فرشاة شعر ومشط متروكان على طاولة الزينة، وكأنما توقعت عودتها غداً. (في النهاية ماتت فجأة، كذا قالوا). مرةً أوشكوا على القدوم، غير أنهم أجّلوا قدومهم، مع كلّ ما يجري في الحرب، وكون السفر صعباً جداً هذه الأيام؛ وكل تلك الأعوام ما قدموا مرة؛ يبعثون لها المال وحسب؛ بيد أنهم ما كتبوا لها مرة، أبداً ما قدموا، وتوقعوا أن يجدوا كلّ شيءٍ تماماً كما تركوه، يا

إلهي! ولماذا أدراج طاولة الزينة ملأى بالأشياء (قد شرّعتها كلها)، مناديل يد، قصاصات شرائط. أجل، اعتادت رؤية السيدة رامزي فيما تسير أعلى درب البيت حاملةً الغسيل.

وكانت ستقول، «مساء الخير، سيدة مكناب».

كانت لطيفة في تعاملها معها. كلّ البنات أحببنها. لكن، إلهي، أشياء كثيرة قد تبدلت مذ ذاك الوقت (تغلق الدرج)؛ عوائل عديدة خسرت أعزاءها. هي ماتت؛ من ثم السيد آندرو قتل؛ والآنسة برو ماتت هي الأخرى، كذا قالوا، هي ورضيعها؛ لكن الكل فقد عزيزاً هذه الأعوام. الأسعار ارتفعت بلا حياء، وما نزلت. لها أن تتذكّر جيداً السيدة رامزي في ثوبها الرمادي الفضفاض.

«مساء الخير سيدة مكناب»، قالت لها، وأخبرت الطاهية بإعداد طبقٍ من حساء الحليب لأجلها - فهي ولا شكّ في حاجة إليه، بعد حملها هذه السلّة الثقيلة كلّ الطريق إلى هنا من البلدة. ولها أن تراها الآن، تنحني فوق أزهارها؛ تخفق خافتة، مثل شعاعٍ أصفر أو الحلقة في نهاية التلسكوب، سيدةٌ في ثوبها الرمادي، تنحني فوق أزهارها، تحوم على حائط غرفة النوم، أعلى طاولة الزينة، عبر حوض الغسيل، فيما السيدة مكناب تعرج وتترنّح، تنفض، وترتّب. وما اسم الطاهية؟ ملدريد؟ ماريان؟ - اسمٌ من هذا القبيل. آه، قد نسيت - فقد بات من عادتها النسيان. كانت امرأة سريعة الانفعال، مثل كلّ النسوة الصهباوات. وكم من الضحك تشاركتا. ودوماً كان مرحّباً بها في المطبخ. فقد عرفت كيف تضحكهن، صدقاً كانت تعرف. الأمور آنذاك كانت خيراً مما هي عليه الآن.

تنهّدت؛ فهذا عملٌ كثير على امرأة واحدة. هزّت رأسها. هذه الغرفة اعتادت أن تكون حجرة الأطفال. وها هي الآن رطبة تماماً؛ والجصّ يتساقط. ولم عساهم رغبوا بتعليق جمجمة وحشٍ هناك؟ الجمجمة هي الأخرى أصابها العفن. الفئران غزت العلاليّ. المطر تسرب داخلاً. عدا أنهم ما بعثوا بأحدٍ قط؛ ما أتوا قط. بعض الأقفال مفقودة، لذا الأبواب ما انفكّت تصفق. كرهت وجودها وحدها في الأعلى هنا في عتمة الغسق. يفوق قدرة امرأة واحدة، يفوق بكثير، بكثير. نهضت تصرّ، سارت تئنّ. صفقت الباب. أدارت المفتاح في القفل، وتركت البيت وحيداً، مغلقاً، مقفلاً عليه.

الفصل التاسع

البيت تُرِك. البيت هُجِر. تركوه مثل صدفةٍ على الكثيب تملؤها حُبيبات الرمل المالحة بعد أن فارقتها الحياة. بدا وكأن الليل الطويل قد خيّم؛ النسائم العابثة تقضم وتقضم، الأنفاس الرطبة الدبقة تتخبّط، بدا وكأنها انتصرت. القِدر صدئ والسجّادة تفسّخت. العلاجيم تطفّلت على البيت. متكاسلاً، هائماً، ظَلّ الشال المتمايل يتأرجح ويتأرجح. نبتةٌ شوكية شقّت طريقها بين بلاط الكرار. طيور السنونو عشعشت في حجرة الاستقبال؛ الأرضية منتثرة بالقشّ؛ الجصّ يتساقط في أكوام؛ الروافد تعرَّت؛ الجرذان تلتقط هذا وذاك وتقضمه خلف الكسوة الخشبية أسفل الجدار. الفراشات السلحفيّة انبثقت من شرانقها وقضت حياتها القصيرة تربّت على إطار النافذة. زهور الخشخاش نثرت بذورها بين زهور الأضاليا؛ المرجة تتموّج بأعشابها الطويلة؛ خراشيف ضخمة علت بين الورود؛ قرنفلةٌ مهدّبة أزهرت بين الملفوف؛ فيما النقر الرقيق للأعشاب الضارة على النافذة، استحال مع ليالي الشتاء، إلى قرع الأشجار المتينة وسياج النباتات الشائكة والتي صيّرت الحجرة بأسرها في الصيف خضراء.

وأيّة قوةٍ هذه التي ستقف في وجه الخصوبة، في وجه لامبالاة الطبيعة؟ حلم السيدة مكناب بسيدة، طفل، طبق من حساء الحليب؟ حلمٌ خفق على جدران الحجرة مثل بقعة من ضياء الشمس وتلاشت. فهي قد أقفلت الباب؛ رحلت. فالأمر يفوق قدرة امرأة واحدة، كذا قالت. ما بعثوا قطّ بأحد. ما كتبوا لها قط. هنالك أشياءٌ في الأعلى تتعفّن في الأدراج - ومن المحزن تركها هكذا، كذا قالت. البيت قد آل للخراب والدمار. وحده شعاع المنارة يدخل الغرف للحظة، يجيل نظرته المحدّقة الفجائية على السرير والحائط في ظلمة الشتاء، يتأمّل في رباطة جأش النبتة الشوكية والسنونو، الجرذ والقشّ. فما عاد من أحدٍ يقاومها؛ ما عاد من أحدٍ يقول لها لا. دع الريح تهبّ؛ دع الخشخاش ينثر بذوره والقرنفل يتزاوج مع الملفوف. دع السنونوة تبني عشّها في حجرة الاستقبال، والنبتة الشوكية تزيح البلاط عن طريقها، والفراشة تتشمّس على القماش الباهت للمقعد ذي الذراعين. دع الزجاج المكسور وآنية الصيني منتثرة على المرجة، تتحابك عليها الأعشاب والتوت البري.

إذ ها قد حانت اللحظة، لحظة التردد تلك متى ما ارتعش الفجر وجمد الليل، لحظة تحطّ ريشة على كف ميزان فترجحه. ريشة واحدة، ولانقلب البيت، المنهار، المتداعي، وطاح أرضاً في أعماق الظلمة. وفي أطلال الحجرة، لأوقد المتنزّهون غلايات الشاي؛ للاذ العشّاق فيها، مستلقين على الألواح العارية؛ ولحفظ الراعي عشاءه على أحجار قرميدها، ولنام المشرّد متدثراً بمعطفه كي يتّقي البرد. لهوى السقف؛ ولحجبت النباتات الشائكة وأشجار الشوكران المجاز والمرقاة والنافذة؛ ولكانت ستنمو وتمتدّ، في نظمٍ غير متساوٍ، لكن على ذات القدر من الشهوانية، على الركام، إلى أن يأتي يومٌ يمر فيه عابر سبيل، تاه عن طريقه، وكان سيعرف من زهرة سوسن الشعلة بين أعشاب القرّاص، شقفة من آنية الصيني عالقة في الشوكران، أن أحدهم قد عاش هنا فيما مضى؛ أنَّ بيتاً ههنا قد قام.

ولو حطَّت الريشة، لأمالت الكفة سفلاً، ولهوى البيت بأسره في الأعماق واستوى على رمال النسيان. لكن قوةً فاعلة كانت هناك؛ شيئاً لا يملك وعياً عالياً؛ شيئاً ينظر شزراً؛ شيئاً يجول خلسة؛ شيئاً غير مُلْهَم لمواصلة عمله في طقس جليل أو مع ترنيمة وقورة. السيدة مكناب أنَّت؛ السيدة باست صرَّت. هرمتان؛ متيبّستان؛ سيقانهما تؤلمهما. ها قد أتتا أخيراً مع مكنستيهما وسطليهما؛ فلا بُدّ من العمل. إذ بغتة، هل للسيدة مكناب أن تحرص على أن يكون البيت جاهزاً، كذا كتبت لها سيدة شابة: هل لها أن تتولى هذا؛ تتولى ذاك؛ وعلى عجل. فعلى الأرجح سيقدمون إلى هنا في الصيف؛ قد تركوا كلّ شيء يتداعى حتّى الرمق الأخير؛ وها هم يتوقعون العثور على كلّ شيء كما تركوه. متألمتين بطيئتين، كلّ مع مكنستها وسطلها، تمسح، تفرك، السيدة مكناب والسيدة باست، أوقفتا عجلة الفساد والتعفن؛ وأنقذتا الأشياء من بركة الزمن التي كادت تطبق عليها وتبتلعها، الآن إناء، الآن خزانة؛ وذات صباح انتشلتا من النسيان كلّ روايات ويفرلي وطقم شاي؛ وفي الظهيرة أعادتا الشمس والهواء إلى سياج المدفأة النحاسيّ وطقم المساعر الفولاذية. جورج، ابن السيدة باست، اصطاد الجرذان، وجزَّ العشب. قد أمّنوا العمال. مع كلّ تلك الأصوات تواكب العمل، صرير المفاصل وزعيق المزالج، الخبط والقرع على المنجور الرطب المنتفخ، بدا وكأنما ولادة صدئة كادحة تأخذ مجراها، فيما المرأتان، تتحنيان، تنهضان، تئنّان، تغنّيان، تصفقان الأبواب في الدخول والخروج، تارة في الطابق العلوي، وتارة في الأقبية. آهٍ، قالتا، كلّ هذا العمل!

أحياناً كانتا تحتسيان الشاي في حجرة النوم، أو المكتب؛ ترتاحان عن العمل منتصف النهار، كل منهما ملطخة الوجه، ويدها العجوز تُمسك متشنجة بمقبض مكنستها. مسترخيتان على مقعديهما،

جلستا تتفكران الآن في انتصارهما العظيم على الحنفيات وحوض الاستحمام؛ والآن في انتصارهما الشاق الجهيد، الجزئي، على صفوف الكتب الطويلة، سخماء كما الغربان السود كانت، والآن باتت بيضاء ملطّخة، تحضن تكاثر الفطر الشاحب وتؤوي سرّاً العناكب المختلسة. وها هي مرة أخرى، فيما دفء الشاي يسري فيها، حلقة التلسكوب عادت وتموضعت على عيني السيدة مكناب، وفي حلقةٍ من نور رأت السيد الكبير، نحيلاً كما المدمة، يهز رأسه، لدى صعودها الدرب حاملةً الغسيل، يحادث نفسه، على ما تظن، قاطعاً المرجة. ما لاحظها قطّ. بعضهم قال إنه ميت؛ البعض الآخر قال إنها هي الميتة. أيهما الخبر الصحيح؟ السيدة باست ليست متأكدة هي الأخرى. لكن السيد الشاب ميتٌ. هي موقنة من هذا. فقد قرأت اسمه في الصحف.

وكانت هناك الطاهية، ملدريد، ماريان، اسمٌ من هذا القبيل - امرأة صهباء، سريعة الانفعال مثل كلّ نظيراتها، غير أنها كانت طيّبة أيضاً، إن عرفت كيف تتعامل معها. كم من ضحكٍ كثير تشاركتاه. كانت تحتفظ بطبق حساء لأجل ماغي؛ وأحياناً، لقمة من لحم الخنزير؛ أياً يكون المتبقي. فقد عاشوا في رخاء في تلك الأيام. حظوا بكل ما يرغبون به (جزلة، عفوية، مع الشاي يسري دافئاً فيها، حلَّت كرة ذكرياتها، جالسة على المقعد المملّد ذي الذراعين إلى جانب سياج مدفأة حجرة الأطفال) وقتذاك كان هناك الكثير من الأعمال نؤديها، أناسٌ كثر في البيت، هناك أوقاتٌ وصل فيه قاطنوه إلى عشرين شخصاً، وغسل الأطباق امتد إلى ما بعد منتصف الليل.

السيدة باست (ما عرفتهم قطّ؛ فآنذاك كانت تقطن في غلاسكو) تساءلت، تضع كوبها جانباً، لم علقوا جمجمة الوحش هنا؟ ولا ريب أنهم اصطادوه في بلادٍ غريبة.

لربّما اصطادوه، قالت السيدة مكناب، مطلقةً العنان لذكرياتها؛ فقد كان لهم أصحاب في البلاد الشرقية؛ سادةٌ أقاموا هناك، سيدات في أثواب السهرة؛ قد رأتهم مرة عبر باب حجرة الطعام والجميع جالسٌ إلى مائدة العشاء. وتجزم أنها رأت عشرين شخصاً متأنّقين في حليّهم، وقد طلبت المكوث كي تساعد في غسل الأطباق، إذ قد يمتد إلى ما بعد منتصف الليل.

آه، قالت السيدة باست، سيجدون أنَّ الحال قد تبدل. مالت خارج النافذة. شاهدت ابنها جورج يحشّ عشب المرجة. لعلهم سيسألون، ما الذي أصابها؟ إذ كان من المفترض بالعجوز كينيدي أن يتولّى مسؤوليتها، من ثم ساءت حال ساقه بعد وقوعه عن العربة؛ ولا أحد من بعده ربّما لعام، أو

أغلب العام؛ من ثم دافي مكدونالد، وربّما بعثوا بالبذور، لكن من له أن يجزم إن كانت البذور قد غُرست أصلاً؟ سيجدون أنَّ الحال قد تبدل.

شاهدت ابنها يحشّ العشب. هو ملائمٌ على نحوٍ رائع لهذا العمل - فهو من فئة العاملين بصمت. على أيّة حال الأجدى بهما مواصلة عملهما على الخزائن. وكلٌّ جرّت نفسها عن مقعدها.

أخيراً، بعد أيامٍ من الكدِّ داخلاً، من القطع والحفر خارجاً، الغبار نُفِض عن النوافذ، النوافذ أوصدت، المفاتيح أديرت في كلّ أرجاء البيت؛ الباب الأمامي صُفِق؛ العمل أُنْجِز.

والآن، كأنما كلّ التنظيف والفرك والحشّ والجزّ أغرقه، ها هو اللحن شبه المسموع ينبعث من جديد، هذه الموسيقى المتقطعة التي بالكاد تلتقطها الأذن وما تلبث توقعها؛ نبحٌ، ثغاء؛ متقطّع، غير منتظم، ومع ذلك، بطريقةٍ ما، مترابطان؛ طنين حشرة، رعشة عشبة مقطوعة، منفصلان عن بعضها البعض ومع ذلك، بطريقةٍ ما، ينتميان لبعضهما؛ جرة خنافس أبي جعران، صرير عجلة، عالٍ، خفيض، لكن على نحوٍ غامض مترابطان؛ والأذن تجهد في جمعها ودوماً ما توشك على جعلها متناغمة، غير أن الأصوات أبداً لا تلتقطها الأذن كاملة، وأبداً لا تجتمع في تناغمٍ كليّ، وأخيراً، في المساء، صوتٌ يهمد تلو صوت، التناغم يتداعى، والصمت يعمّ. مع مغيب الشمس كلٌّ وضع أوزاره، ومثلما ينبعث الضباب صامتاً، يغشى صامتاً، استقرت الريح؛ مرتخياً هزهز العالم نفسه حتّى النوم، الظلمة هنا لا يخترقها ضوء، خلا الضوء المخضّب بالأخضر ينسل من بين الأوراق، أو الضوء الشاحب على الأزهار البيض في السرير جانب النافذة.

{ليلي بريسكو تدبَّرت حمل حقيبتها إلى البيت في وقتٍ متأخر مساءً في أيلول. السيد كارمايكل قدم على متن ذات القطار.}

الفصل العاشر

من ثم حقّاً حلَّ السلام. رسائل السلام زفرها البحر صوب الشاطئ. لن يُقلِق منامه مرةً أخرى، بل سيهوّد له تهويدة عميقة كي يرتاح، وأياً تكن الأحلام المقدسة، الأحلام الحكيمة، التي تراود الحالمين، سيؤكّدها - وما عساه يتمتم أيضاً - سألت ليلي بريسكو نفسها، تضع رأسها على الوسادة في الحجرة النظيفة الساكنة وتنصت للبحر. عبر النافذة المفتوحة انسل صوت جمال الطبيعة تتمتم، صوتٌ رقيق حدَّ أن يصعُب سماع ما تقول بدقة - لكن ما الداعي إن كان المعنى بسيطاً جليّاً؟ تستعطف النائمين (فالبيت عاد عامراً بالناس من جديد؛ هناك السيدة بكويث، وكذلك السيد كارمايكل)، إن لم يكن في نيتهم النزول إلى الشاطئ، على الأقل فليرفعوا الستائر وليتأملوا خارجاً. وسيرون الليل ينسدل أرجوانياً؛ رأسه متوَّج؛ صولجانه مرصعٌ بالجواهر؛ وكيف أنَّ لطفلٍ أن يتأمل في عينيه. وإنْ كانوا بعد متردّدين (فليلي مرهقة من بعد السفر ونامت فوراً؛ لكن السيد كارمايكل يقظٌ يقرأ كتاباً على ضوء شمعة)، إن جوابهم لمّا يزل لا، أنَّ عظمة الليل ليست سوى وهم؛ وقطرة الندى تملك قوةً أكبر منه، وأنهم يفضلون النوم؛ فبرِقَّة وبلا شكوى، وبلا أي نقاش، سيُرنّم الصوت أغنيته. الأمواج تكسرت برقّة (ليلي سمعتها في منامها)؛ حنوناً انحدر الضوء (بدا وكأنما ينسل عبر جفنيها). وكل شيءٍ بدا، إلى حدٍّ كبير، خطر إلى السيد كارمايكل، وهو يغلق كتابه، يخلد إلى النوم، كما اعتاد أن يبدو عليه.

ولربّما عاود الصوت همسه، فيما لفَّت ستائر الظلمة نفسها حول البيت، حول السيدة بكويث، السيد كارمايكل، وليلي بريسكو، مستلقين مع طيات عديدة من السواد تلفّ أعينهم، لم لا يقبلون به، لم لا يرضون به، لم لا يذعنون ويسلمون؟ تنهيدة كلّ البحار المتلاطمة حول الجزيرة هدَّأت أعصابهم؛ الليل دثّرهم؛ لا شيء أقلق منامهم، إلى أن استهلت الطيور تغريدها، الفجر يحيك أصواتها الرقيقة في بياضه، عربةٌ تجرش، كلبٌ ينبح في مكانٍ ما، والشمس رفعت الستائر، خرقت الحجب على أعينهم، وليلي بريسكو تقلّبت في منامها. تشبّثت بألحفتها مثلما يتشبث الهاوي بحافة

جرف. استيقظت فاغرة العينين. ها هي هنا مرةً أخرى، قالت في نفسها، تجلس منتصبةً في فراشها. يقِظة.

<u>الجزء الثالث</u>

المنـارة

الفصل الأول

وما المغزى إذن؟ ما المغزى من وراء كلّ هذا؟ سألت ليلي بريسكو نفسها، متسائلة مذ تُركت وحدها، إن كان يتوجب عليها الذهاب إلى المطبخ وإحضار فنجان آخر من القهوة أو الانتظار هنا. ما المغزى؟ - عبارةٌ آسرة، التقطتها من كتابٍ ما، تعبّر عما يجول في خاطرها وإن بشكلٍ فضفاض، إذ ما كان بوسعها، في صباحها الأول هذا مع عائلة رامزي، القبض على مشاعرها، كان بوسعها فقط ترديد صدى العبارة كي تغطّي الفراغ في عقلها إلى أن ينقشع فيه الضباب. إذ حقاً، ما هو شعورها الآن، وقد عادت بعد كلّ تلك السنين والسيدة رامزي متوفية؟ لا شيء، لا شيء - لا شيء لها أن تعبّر عنه البتّة.

قد قدمت في وقتٍ متأخر ليلة البارحة حيث الأجواء غامضة، مظلمة. والآن هي مستيقظة، جالسة في مكانها القديم على مائدة الفطور، لكن وحيدة. والوقت مبكرٌ جداً، الساعة حتّى ما تجاوزت الثامنة. هناك الرحلة - فهم ذاهبون إلى المنارة، السيد رامزي، كام، وجيمس. كان يفترض بهم الرحيل قبل الآن - إذ عليهم اللحاق بالمدّ أو شيء من هذا القبيل. لكن كام لم تكن مستعدة وجيمس لم يكن مستعداً ونانسي نسيت طلب إعداد الشطائر والسيد رامزي فقد أعصابه وصفق الباب خارجاً من الحجرة.

«ما النفع من الذهاب الآن؟»، صاح ثائراً.

نانسي اختفت. وها هو ذا هناك، يقطع المصطبة جيئةً وذهاب في نوبة غضب. بدا لها وكأنما دويّ صفق الأبواب وصياح الأصوات يعمّ أرجاء البيت. وها هي نانسي تدخل مندفعة، تسأل، تُجيل بصرها في أرجاء الحجرة، على نحوٍ غريب، شبه مشدوهة وشبه يائسة، «ما عسى المرء يرسل إلى المنارة؟»، وكأنما تجبر نفسها على القيام بما هي يائسة أصلاً من قدرتها على إتمامه.

وصدقاً! ما عسى المرء يرسل إلى المنارة. في أي وقتٍ آخر لأجابتها ليلي في اقتراح منطقي بإرسال الشاي، التبغ، والصحف. لكن كلّ شيء بدا غريباً على نحو استثنائي هذا الصباح حيثما سؤال مثل سؤال نانسي - ما عسى المرء يرسل إلى المنارة؟ - يفتح في عقل المرء أبواباً تصفق وتتأرجح ذهاباً وإياباً تدفعه إلى ترديد السؤال، مشدوهاً فاغر الفم، ما عسى المرء يرسل؟ كيف عساه يتصرف؟ ولم هو أصلاً جالسٌ هنا؟

جالسة وحدها (إذ غادرت نانسي من جديد) بين الفناجين النظيفة على امتداد الطاولة، شعرت وكأنها معزولة عن بقية الناس، لا شيء بيدها تفعله سوى المضيّ في المراقبة، طرح الأسئلة، والتساؤل. البيت، المكان، الصباح، كله بدا غريباً عليها. وساورها الشعور، بأن لا رابط يربطها بالمكان، لا علاقة تجمعها به، وأيّاً ما سيحدث، وأيّاً ما حدث، خطوة في الخارج، صوتٌ ينادي («ليس في الخزانة؛ على مبسط السلم»، أحدهم يصيح)، ما هو إلا سؤال، وكأنما الحلقة التي تجمع بين الأشياء قد انقطعت، وها هي الأشياء تطفو هنا، وتطفو هناك، خارجاً، وفي أي اتجاه. كم بدا لها عشوائياً، فوضوياً، غير واقعي، تتفكّر، متأمّلة فنجان قهوتها الخاوي. السيدة رامزي ميتة؛ آندرو قتل؛ برو ميتة هي الأخرى - فلتُعِد تكرارها على نفسها كما تشاء، ما كان ليثير فيها أي إحساس. وها نحن نجتمع جميعاً في بيتٍ مثل هذا في صباح مثل هذا، قالت في نفسها، ترنو خارج النافذة. واليوم جميلٌ وصافٍ.

الفصل الثاني

فجأة رفع السيد رامزي رأسه ما إن مرَّ بها ونظر مباشرةً نحوها، بنظرته المحدقة الذاهلة الجامحة والتي مع ذلك جدّ ثاقبة، كأنما يراك للمرة الأولى، للحظة واحدة، للأبد؛ وهي تظاهرت باحتساء القهوة من فنجانها الخاوي كيما تتهرّب منه - تتهرّب من مطالبته إياها، كي تؤجّل للحظةٍ أطول هذا الاحتياج الملحّ. وهو هزَّ رأسه لها، وواصل ذرعه المصطبة («وحده»، سمعته يقول، «فَنِينا»، سمعته يقول) ومثل كلّ شيءٍ آخر في هذا الصباح الغريب فالكلمات استحالت رموزاً، تكتب نفسها على كلّ الجدران الخضر - الرمادية. وساورها الإحساس، لو كان بيدها وحسب جمع الأجزاء بعضها ببعض، كتابتها في جملةٍ ما، لوصلت إلى حقيقة الأمور. وفي خطىً رقيقة خافتة، دخل العجوز كارمايكل، جلب قهوته، حمل فنجانه وغادر على عجل كي يجلس في الشمس. اللاواقعية الاستثنائية مرعبة؛ بيد أنها أيضاً مثيرة. الذهاب إلى المنارة. وما عسى المرء يرسل إلى المنارة؟ **فَنِينا. وحده.** الضوء الأخضر - الرمادي على الجدار المقابل. المقاعد الخاوية. تلك بضعةٌ من الأجزاء، لكن كيف لامرئٍ أن يجمعها ببعض؟ سألت نفسها. وخوفاً أن تكسر أيّ مقاطعة الشكل الهشَّ الذي جلست تبنيه على الطاولة أدارت ظهرها للنافذة خشية أن يراها السيد رامزي. عليها أن تهرب إلى مكانٍ ما، أن تخلو إلى نفسها في مكانٍ ما. وفجأة تذكرت. حين جلست على المائدة قبل عشرة أعوام كان هناك نقشٌ لغُصين صغير أو ورقة شجر على مفرش الطاولة، ونظرت إليها في لحظة إلهام. كانت هناك مشكلة تتعلق بأمامية اللوحة. حركي الشجرة أبعد نحو الوسط، قالت في نفسها. هي لم تنهِ اللوحة. لكنها الآن سترسمها. إذ ما انفكّت تقرع في عقلها كلّ تلك الأعوام. وأين ألوانها؟ ألوانها، أجل. قد تركتها في الردهة ليلة البارحة. ستشرع حالاً. نهضت بسرعة، قبل أن يستدير السيد رامزي.

جلبت لنفسها كرسياً. نصبت حاملها على حافة المرجة بذات حركاتها الدقيقة العذراوية، ليس قريباً جداً من السيد كارمايكل، لكن قريباً كفاية بحيث تقف في حمايته. أجل، هنا بالضبط، حيث وقفت قبل عشرة أعوام. وها هو ذا الجدار؛ الوشيع؛ الشجرة. والمسألة كانت تخص العلاقة بين تلك

الكتل. وقد انطبعت في ذهنها كلّ تلك السنين. وبدا كأنما الحل قد أتى إليها: هي تعرف الآن بالضبط ما تريد.

لكن مع السيد رامزي ينقض عليها، ما كان بيدها فعل شيء. كلّ مرة يدنو منها - يذرع المصطبة جيئة وذهاب - الخراب يدنو، الفوضى تدنو. عجزت عن الرسم. تنحني، تتلفت؛ تتناول هذه الخرقة؛ تعصر ذاك الأنبوب. غير أنها فعلت كلّ هذا كيما تصدّه. إذ جعل من المستحيل عليها فعل أي شيء. وإنْ منحته أوهى فرصة، إن لمحها غير منشغلة للحظة، إن التقت عيناها بعينيه، سينقضّ عليها، يقول لها ما قاله ليلة البارحة، «ستجدين أننا قد تغيرنا كثيراً». ليلة البارحة نهض عن مكانه ووقف أمامها، وقال لها ذلك. بُكْمٌ جلسوا يحدقون، الأطفال الستّة من لقبوا تيمّناً بملوك وملكات إنجلترا - الحمراء، الشريرة، القاسية - وكان لها أن تشعر بالغضب يعترم خلف نظرتهم المحدقة. العجوز اللطيفة السيدة بكويث قالت شيئاً عقلانياً. عدا أنه بيت مليء بالعواطف غير المترابطة - ما انفكّت تشعر هكذا طوال الأمسية. وما زاد الأمر فوضوية نهوض السيد رامزي، ضمه يدها، قائلاً: «ستجدين أننا قد تغيرنا كثيراً» ولا أحد منهم أبدى أيّة حركة ولا نطق بكلمة؛ جلسوا هناك وحسب كأنما هم مرغمون على تركهِ يقول هذا. جيمس وحسب (العبوس بالتأكيد) قطّب جبينه في وجه المصباح؛ وكام أخذت تلولب منديل يدها حول إصبعها. من ثم ذكرهم بأنهم ذاهبون إلى المنارة في الغد. وعليهم جميعاً أن يكونوا جاهزين، في الردهة، مع دقة الساعة السابعة والنصف. من ثم، يده على الباب، توقّف؛ والتفت إليهم. ألا يودون الذهاب؟ سألهم بحزم. لو جرؤوا على الإجابة بـ لا لألقى بظهره للوراء على نحوٍ مأساوي في لجج اليأس المريرة. إذ هو يملك موهبة التعبير بإيماءات كهذه. بدا مثل ملكٍ في المنفى. عنيداً متجهماً أجاب جيمس بنعم. كام تلعثمت بائسة. أجل، أوه، أجل، كلاهما سيكونان جاهزين، قالا له. وخطر لها، أنَّ ما تراه لهو مأساة حقاً - لا النعش ولا الجثّة ولا الكفن؛ بل أطفالٌ مجبرون، أرواحهم مقموعة. جيمس في السادسة عشرة، وكام، على الأرجح في السابعة عشرة. ثم راحت تُجيل بصرها في الحجرة بحثاً عن أحدٍ ليس بهناك، السيدة رامزي، إذ يُحْتَمل. لكن ما كان هناك سوى السيدة بكويث اللطيفة تقلّب كراسة رسومها على ضوء المصباح. من ثم، كونها متعبة، عقلها لمّا يزل يعلو ويهبط على خفق موج البحر، طعم الأمكنة ورائحتها من بعد طول غياب تتلبسها، الشموع تتهدج في عينيها، ففقدت نفسها وغرقت. كانت ليلة رائعة، مرصعة بالنجوم؛ صوت الأمواج تناهى لهم لدى صعودهم السلالم؛ القمر فاجأهم، ضخماً، شاحباً، ما إن مروا بنافذة مبسط السلم. وعلى الفور نامت.

نصبت قماشة الرسم على الحامل بكل ثبات، آملةً أن يكون حاجزاً، وإن هشاً، لكن متيناً كفاية بحيث يصدّ عنها السيد رامزي وقسوة تطلبه. بذلت أقصى جهدها كي تنظر، متى ما استدار بظهره، نحو لوحتها؛ نحو الخط ذاك، الكتلة تلك. لكن ما من جدوى. فليكن على بعد خمسين قدماً، لا يتبادل كلمة معك، لا يراك، ومع ذلك سيخترقك، يغلبك، ويفرض وجوده عليك. قد غيّر كلّ شيء. عجزت عن إبصار اللون؛ عجزت عن إبصار الخطوط؛ حتّى وهو يدير ظهره لها، فالهاجس الوحيد المسيطر عليها، سينقضّ عليّ في أي لحظة، مطالباً - بشيءٍ راودها إحساسها بعجزها عن منحه إياه. رفضت فرشاة؛ اختارت أخرى. وأولئك الأطفال متى سيأتون؟ متى سيغادرون جميعاً في رحلتهم؟ وقفت متململة. ذاك الرجل، قالت في نفسها، الغضب يعترم في صدرها، ما أعطى شيئاً قط؛ ذاك الرجل يأخذ وحسب. وهي، في المقابل، ستجبر على العطاء. السيدة رامزي أعطت. هي أعطت، أعطت، وأعطت، وقد ماتت - تاركةً كلّ هذا خلفها. صدقاً، هي غاضبة من السيدة رامزي. مع الفرشاة ترتعش بين أصابعها، نظرت نحو الوشيع، المرقاة، الجدار. كله صنيعة السيدة رامزي. والآن هي ميتة. وها هي ليلي الآن، في الرابعة والأربعين، تهدر وقتها، عاجزة عن فعل أي شيء، واقفة هناك، تلهو باللوحة، تلهو بالشيء الوحيد الذي لا يلهو المرء به، وكله خطأ السيدة رامزي. والآن هي ميتة. والمرقاة حيث اعتادت أن تجلس قد باتت شاغرة. والآن هي ميتة.

لكن ما بالها تعود وتكررها من جديد؟ لمَ تحاول إثارة مشاعر في نفسها هي أصلاً لا تملكها؟ ضربٌ من الهرطقة. فكلّ مشاعرها جفّت: كلها ذوت: كلها استهلكت. ما كان يتوجب عليهم سؤالها القدوم هنا؛ وما توجب عليها القدوم. إذ لا يتسنى للمرء أن يهدر وقته في سنّ الرابعة والأربعين، قالت في نفسها. كرهت لهوها باللوحة. الفرشاة، الشيء الوحيد المعتمد عليه في عالمٍ من الكفاح، الخراب، الفوضى - ليست بأداة يلهو المرء بها، لا سيما إن كان واعياً للهوِه: وكم مقتت لهوها. لكن هو من أجبرها. لن تمسّي قماشتك، بدا يقول لها، منقضاً عليها، إلى أن تمنحيني ما أريده منك. وها هو، يطبق عليها من جديد، طامعاً، ذاهلاً. حسنٌ، تفكرت ليلي قانطة، تترك يدها اليمنى تسقط جانبها، سيكون من الأبسط الانتهاء من الأمر. بالتأكيد، لها أن تقلّد من ذاكرتها ذاك التوهج، تلك الرابسودية، ذاك الإذعان الذاتي، والذي رأته على وجوه الكثيرات من النساء (منهن مثلاً، السيدة رامزي) في مواقف كهذه فيتّقدن - وتذكرت النظرة على وجه السيدة رامزي - في نشوةٍ من التعاطف، من الابتهاج بالمكافأة التي نِلنها، ورغم أن السبب لا يخطر لها، فمن الجليّ أنها تنعم

عليهن بأسمى صور السعادة التي يمكن للطبيعة البشرية أن تمنحها. وها هو ذا، يقف جانبها. وستمنحه ما بيدها منحه.

الفصل الثالث

كأنها ذوت بعض الشيء، قال في نفسه. بدت ضئيلة بعض الشيء، هزيلة، لكن ليست بالقبيحة. هو معجبٌ بها. سرى حديثٌ فيما مضى عن زواجها من ويليام بانكس، لكن ما تمخّض عنه شيء. زوجته كانت مولعة بها. كذلك هو فقد أعصابه قليلاً على مائدة الفطور. ومن ثم، من ثم ـ تلك إحدى اللحظات التي يغمره فيها احتياجٌ ضخم يلحُّ عليه، دون أن يعي كنهه، إلى الاقتراب من أي امرأة، وإجبارها، وما اكترث كيف، فاحتياجه عظيم، إلى إعطائه ما يريد: العطف.

هل من أحدٍ يعتني بها؟ سألها. هل لديها كلّ ما تريد؟

«أوه، شكراً، لا ينقصني شيء»، أجابته ليلي بريسكو بعصبية. لا؛ ليس بيدها فعل هذا. كان يتوجب عليها اللحظة أن تطفو على موجةٍ عارمة من العطف: بيد أنها ترزح تحت ضغط هائل. بيد أنها عالقة. وساد بينهما صمتٌ مريع. كلاهما رنا نحو البحر. وما بالها، قال السيد رامزي في نفسه، تتأمّل البحر وأنا موجودٌ هنا؟ آملُ أن يغدو البحر ساكناً بما يكفي كي ترسو على شاطئ المنارة، قالت له. المنارة! المنارة! وما علاقة المنارة بما يجري الآن؟ تفكّر نافد الصبر. وفوراً، بقوة عصفةٍ بدائية (إذ صدقاً ما عاد بيده كبح جماح نفسه لوقتٍ أطول)، انبعث عنه أنينٌ لو أن أيّة امرأة أخرى في العالم سمعته لفعلت شيئاً، نطقت بشيء ـ كلّ النساء عداي، قالت ليلي في نفسها، تهزأ بمرارة من نفسها، من لستُ بامرأة، بل نكدة، نزقة، ناشفة، أي كما يرونني، عانسٌ عجوز.

تنهد السيد رامزي ملء قلبه. وانتظر. ألن تقول شيئاً؟ ألا تدرك ما يحتاجه منها؟ من ثم قال إن لديه سبباً شخصيّاً وراء رغبته في الذهاب إلى المنارة. فزوجته اعتادت بعث أغراضٍ إلى الرجال هناك. كان هناك صبيٌّ صغير يعاني من التهاب المفاصل السليّ، ابن حارس المنارة. تنهّد بعمق. تنهّد بمغزى. وكل ما تمنّته ليلي لهذا الطوفان الهائل من الحزن، هذا النهم الذي لا يشبع للعطف، مطالبته إياها بأن تذعن له كليّةً، إذ حتّى إن أذعنت فهو لديه من الأسى ما يكفيها للأبد، أن

يتركها، أن ينحرف في مساره عنها (ما انفكّت تسترق النظر نحو البيت، على أمل أن يقاطعهما أحد) قبل أن يجرفها في تياره.

«رحلاتٌ كهذه»، قال السيد رامزي، يحتّ الأرض بإصبع قدمه، «مؤلمة جداً». ولا تزال ليلي لم تنبس بكلمة. (يا لها من صنم، يا لها من حجر، قال في نفسه). «مرهقة جداً»، أردف، يتأمّل يديه الجميلتين في نظرةٍ غثة اشمأزّت لها (يا له من ممثل، قالت في نفسها، الرجل العظيم يختلق الدراما). تصرفٌ مروّع، غير لائق. أما من أحدٍ منهم سيأتي، تساءلت، إذ ليس بإمكانها احتمال هذا النير الضخم من الأسى، دعم هذه الستائر الثقيلة من الحزن (فقد اتخذ وضعية الشيخوخة العاجزة؛ حتّى أنه ترنح قليلاً في مكانه) لحظةً أطول.

ومع ذلك عجزت عن قول شيء؛ فالأفق على مدّ البصر بدا وكأن ريحاً عصفت به فجرّدته من كلّ المواضيع التي يمكن تبادل الحديث فيها؛ شعورٌ واحدٌ اعتراها، تتأمّل مشدوهة السيد رامزي واقفاً إلى جانبها، كيف بدت نظرته المحدقة تنحدر كئيبةً على العشب المغمور بضياء الشمس فتسلبه لونه، تقع على الهيئة المتورّدة، النعسة، الراضية المطمئنّة للسيد كارمايكل، يقرأ رواية فرنسية على كرسيّ الشاطئ، فتطرح عليه حجاباً من الكريب، وكأنما وجودٌ كهذا، يتباهى برخائه في عالمٍ من الويلات، لهو كفيلٌ بأن يثير في النفس أقتم الأفكار الموحشة. انظري إليه، بدا يقول، انظري إليّ؛ وصدقاً، هو ذا شعوره طوال الوقت، فكّري بي، فكّري بي. آه، لو يُساق ذاك الجسد الضخم قليلاً نحوهما، تمنّت ليلي؛ لو أنها نصبت حاملها ياردة أو ياردتين أقرب إليه؛ فرجلٌ، أيّ رجل، لأرقأ هذا السيل الدَّفِق، لوضع حداً لهذه المناحة. كامرأة، هي تحثُّ هذا الرعب؛ وكامرأة، توجّب عليها أن تعرف كيف تتعامل معه. إذ يخزيها إلى حدٍّ بعيد، جنسياً، وقوفها خرساء هكذا. فالمرأة تقول - وما الذي تقوله المرأة؟ - أوه، السيد رامزي! عزيزي السيد رامزي! هذا ما كانت العجوز اللطيفة التي ترسم السكيتشات، السيدة بكويث، ستقوله فوراً، وفي محلّه الصحيح. لكن، لا. هما ظلا واقفَين، معزولَين عن بقية العالم. شفقته المفرطة على نفسه، مطالبته بالعطف، اندفقت وامتدت في بركٍ حول أقدامهما، وكلّ ما بيدها فعله، هي الآثمة البائسة، رفع تنانيرها إلى كاحليها خشية أن تتبلّل. في صمتٍ مطبق وقفت، تقبض على فرشاتها.

لا حمدَ يفي السماء حقها! ها قد تناهت أصواتٌ إليها من البيت. جيمس وكام لا ريب قادمان. لكن السيد رامزي، وكأنما استشعر أن لا وقت كافٍ لديه، ألقى على كاهلَي شخصها المنزوي حملاً

هائلاً من كربه المكثّف؛ عمره؛ هشاشته: الهجران؛ وفجأة، يهزّ رأسه نافد الصبر، في غمرة انزعاجه - فأيّة امرأة هذه التي لها أن تقاومه؟ - لاحظ أن عقدة رباط جزمته محلولة. ويا لها من جزمة رائعة، ظنّت ليلي، تنظر أسفلاً نحوها: منحوتة؛ ضخمة؛ مثلها مثل كلّ شيء يرتديه السيد رامزي بدءاً من ربطة عنقه البالية إلى صدريته نصف المزرّرة، كلها له على نحوٍ لا يقبل الجدل. تخيّلت كلّ قطعة تسير إلى غرفته مُسيَّرة بإرادتها، تعبّر في غيابه عن شجوه، اكفهراره، نزقه، فتنته.

«يا لها من جزمة جميلة!» هتفت متعجبة، خجلة من نفسها. فمديحها جزمته رغم سؤاله إياها منح روحه السلوان، رغم عرض يديه الداميتين عليها، قلبه الممزق، وسؤالها إبداء الشفقة عليه، فقط كي يسمعها تقول، مبتهجة، «آه، لكن يا لها من جزمةٍ رائعة!» يستحق، وهي أدرى بذلك، ما سيجلبه عليها، فرفعت عينيها متوقعة إحدى نوبات زئيره النزق المفاجئة تقصفها وتبيدها.

عدا أنَّ السيد رامزي ابتسم. غطاء النعش، ستائر الحزن، أسقامه، كلها هوت عنه. أوه، أجل، قال لها، يرفع قدمه عالياً كي يُريها إياها، هي جزمة من الطراز الأول. رجلٌ واحد فحسب في كلّ أرجاء إنجلترا يصنع جزمةً كهذه. الجِزم من اللعنات الرئيسة التي ابتُليت بها البشرية، قال لها. «فصانعو الجزم قد جعلوها مهمتهم»، قال في زخم، «إعاقة وتعذيب القدم الإنسانية». كذلك هم الأكثر عناداً وانحرافاً من بين البشر. قد استغرق الأمر جلّ شبابه كي يحظى بجزم مصنّعة كما يجدر بها أن تصنع. وحرص على أن يلفت انتباهها (رفع قدمه اليمنى من ثم اليسرى) إلى أن لم يسبق قطّ أن رأت جزمة مصنعة على هذا الشكل. كذلك فهي مصنوعة من أفضل أنواع الجلد في العالم. فمعظم جلود الأحذية ما هي إلا كراتين وورق بني. في نظرة رضا وطمأنينة، تأمّل قدمه، لمّا تزل مرفوعة في الهواء. وإذ يغمرها الإحساس، بأنهما قد وصلا إلى جزيرة مشمسة يعم فيها الوئام، العقلانية تسود والشمس أبداً مشرقة، جزيرة الجزمة الرائعة المباركة. قلبها اطمئن إليه. «والآن دعيني أرى إن كنت قادرة على عقد رباط»، قال لها. سخر من طريقتها الضعيفة. فأراها اختراعه هو. ما إن تعقدي الرباط هكذا، فأبداً لن ينحل. ثلاث مرات عقد رباط حذائها؛ وثلاث مرات حلَّه.

ولماذا، في هذه اللحظة غير اللائقة، فيما ينحني فوق حذائها، عطفٌ غامر تجاهه اجتاحها، هيّجها، بحيث لدى انحنائها هي الأخرى، فار الدم إلى وجهها، ولماذا، لدى استذكارها قسوة قلبها (فقد نعتته بالممثّل المسرحي) انتفخت عيناها وترقرقتا بالدمع؟ بانشغاله هكذا بدا لها تجسيد الشجى

اللانهائي. يعقد الأربطة. يشتري الجزم. ولا يد هناك تعين السيد رامزي على رحلته. لكن الآن وقد راودتها الرغبة بقول شيء، ولربّما كانت ستقول شيئاً، ها هما ذا - كام وجيمس. ظهرا على المصطبة. أقبلا عليهما، جنباً إلى جنب، متلكئين، زوجٌ جديّ، سوداويّ.

لكن ما بالهما يُقبلان عليهما **هكذا**؟ ما كان بيدها كبح انزعاجها منهما؛ أما كان بيدهما القدوم بابتهاج؛ منحُ أبيهما ما يطلب، والذي مع انطلاقهم الآن جميعاً، فلن تحظى بفرصة منحه إياه. إذ فجأة داهمها إحساسٌ بالفراغ؛ الإحباط. تعاطفها تجاهه ساورها متأخراً؛ وها هي متأهبة الآن للمنح؛ لكن هو ما عاد في حاجة إليه. فقد استحال شيخاً مرموقاً، من لا حاجة له البتة بها. وفوراً شعرت بالنبذ. علّق حقيبة ظهرٍ على كتفيه. تشارك حمل الرزم - فهناك عددٌ منها، مغلفة على نحوٍ سيّئ بالورق البنّي. بعث كام كي تحضر له معطفاً. تلبسته هيئة القائد المتأهب للانطلاق في حملة. من ثم، متزعماً، قاد الطريق في خطاه العسكرية الحازمة، في تلك الجزمة الرائعة، حاملاً الرزم البنية، أسفل المجاز، يتبعه طفلاه. بدوا لها، تتفكر فيهما متأملة، وكأنما القدر قد كرَّسهما لخوض مغامرةٍ قاسية، وها هما انطلقا لها، بعدُ يافعَين، يسيران مذعنَين، طائعَين، في إثر أبيهما، غير أنَّ الشحوب في عيونهما أنبأها بأنهما يعانيان في صمت من أمرٍ يتجاوز عمريهما الفتيّين. وها هم يقطعون حافة المرجة، وبدا لها كأنما ترقب موكباً يعبر، قائماً على توتّرٍ نابع عن إحساسٍ مشترك بينهم، صيّرهم، وإنْ يسيروا متهادين فاترين، أشبه بسرية متماسكة ببعضها البعض، والذي، لاستغرابها، رأته مؤثراً جداً. بكياسة، لكن من بعيد، رفع السيد رامزي يده وأدى لها التحية ما إن مروا بها.

ويا له من وجه، قالت في نفسها، فالعطف الذي ما عاد مطلوباً منها يحثها حالاً على التعبير عنه بأي شكل. ما الذي صيّره هكذا؟ التفكر، ليلة تلو ليلة، ولا شك - عن واقع طاولات المطبخ، أردفت قائلة لنفسها، تتذكر الصورة الرمزية التي شاركها إياها آندرو فيما مضى كي يبدّد الضبابية في ذهنها عن ماهية الأمور التي يتفكر بها السيد رامزي. (قُتل فوراً بشظية قذيفة، ذكَّرت نفسها). طاولة المطبخ شيءٌ رؤيوي، مجرَّد؛ شيءٌ صلب، عارٍ عن كلّ زخرف. لا لون له؛ كله زوايا وحواف؛ بسيطٌ حدَّ التقشف. لكن السيد رامزي دائماً ما وضع الطاولة نصب عينيه، ما سمح لذهنه قطّ أن يشرد عنها، أن يزوغ عنها، إلى أن استحال وجهه كاسفاً متزهداً ينضح بهذا الجمال غير المزخرف المثير جداً لإعجابها. من ثم استذكرت (تقف تماماً حيث تركها، قابضة على فرشتها)، أن القلق ولا بُدّ قد حتَّه - وليس على نحوٍ مثالي. لا بُدّ ساورته الشكوك حول الطاولة؛ إن كانت الطاولة طاولة حقيقية؛ إن كانت جديرة بالوقت الذي يمنحها إياه؛ إن كان سيتمكن في نهاية المطاف من

العثور عليها. الشكوك حتماً قد ساورته، وإلا لما أخذ يسأل الناس منحه العطف بهذا القدر. لا بُدّ أنَّ هذا ما اعتادا الحديث عنه أحياناً في وقتٍ متأخر من الليل، ساورها الظن؛ وفي صباح اليوم التالي السيدة رامزي بدت مرهقة، فانفجرت ليلي غضباً في وجهه حول شيءٍ سخيف. لكن الآن ما عاد من أحدٍ لديه يحادثه عن تلك الطاولة، أو عن جزمته، أو عُقَد رباطه؛ بات أشبه بأسد يسعى وراء فريسة يلتهمها، تعلو وجهه تلك المسحة من اليأس، المبالَغ في إظهارها والتي تثير فيها الرعب، فتنطوي على نفسها. من ثم، استذكرت لحظة النشاط المباغتة، ذاك الألق المفاجئ (حين أطرت على جزمته)، تلك الاستعادة المفاجئة لحيويته واهتمامه في الأمور الإنسانية العادية، والتي سرعان ما عبرت وتبدلت (فهو متقلبٌ على الدوام، ولا يخفي مشاعره) إلى ذاك الطور الأخير الجديد عليها والذي، اعترفت لنفسها، دفعها إلى الخجل من نزقها، إذ بدا وكأنما قد طرح عنه كلّ مباعث القلق والطموح، الأمل في نيل العطف والرغبة في تلقي المديح، فدخل بذلك عالماً آخر، مستغرقاً، كأنما بدافع الفضول، في حديثٍ أخرس، سواء مع نفسه أو نفسٍ أخرى، يتقدم تلك السرية الصغيرة خارج مدّ البصر.

وجهٌ مذهل! البوابة صُفِقَتْ.

الفصل الرابع

وها قد مضوا، قالت في نفسها، تزفر تنهيدة ارتياح وخيبة أمل. عطفها رُدَّ إليها، مثل غصن عُلَّيق ارتد على وجهها. شعرت بذاتها منقسمة على نحوٍ غريب، كأنما جزءٌ منها امتدَّ معهم - فاليوم هادئ، غائم؛ والمنارة هذا الصباح تتجلّى من على مسافةٍ عظيمة؛ أما الجزء الآخر منها فقد ثبَّت نفسه بمنتهى العناد، بمنتهى الرسوخ، هنا على هذه المرجة. وقفت تتأمل قماشة الرسم وكأنما اللوحة طفت من الأعماق وأعادت نصب نفسها مباشرةً أمام عينيها بيضاء متصلبة لا تقبل التنازل. بدا وكأنما اللوحة توبّخها بنظرتها المحدقة الباردة على كلّ هذه العجلة والاهتياج؛ هذه الحماقة وهدر العواطف؛ وبصرامة قاسية استدعتها إليها وأشاعت في عقلها الهدوء أولاً، فيما أحاسيسها المشوشة (ها قد رحل وأسفٌ شديد يعتريها عليه وما قالت شيئاً) تغادر الحقل؛ وتالياً، ساد الفراغ. وقفت تبصر القماشة بانشداه، نظرتها المحدقة المتصلبة البيضاء؛ ومن القماشة حوّلت بصرها نحو الحديقة. هنالك شيء (وقفت تخزر بعينيها الصينيتين الصغيرتين على وجهها المتغضن الصغير)، شيءٌ تذكرته ذو علاقة بتلك الخطوط القاطعة، الخطوط الحازّة، بكتلة الوشيع وكهفه الأخضر من أطياف الأزرق والبني، شيءٌ ترسخ في ذهنها؛ ربط عقدةً في عقلها بحيث، في أوقات عشوائية، دون قصدٍ منها، فيما تسير على شارع برومبتون، فيما تمشط شعرها، وجدت نفسها ترسم اللوحة، تمرر عينيها عليها، وتفكّ العقدة في مخيّلتها. غير أنَّ البون شاسع بين التخطيط في الهواء بعيداً عن قماشة الرسم وبين إمساكها فعلاً بالفرشاة وخلق أثرها الأول.

كانت قد تناولت الفرشاة الخاطئة في غمرة اضطرابها من وجود السيد رامزي، وحاملها، الذي نصبته على الأرض بمنتهى العصبية، وقف منصوباً في الزاوية الخطأ. الآن وقد صحّحت الوضع، وبتصحيحها إياه قمعت كلّ تلك الملهّيات غير ذات ارتباط والتي لا تنفكّ تنتزع انتباهها وتجرفها نحو تذكّر الشخص الذي كانت كذا وكذا عليه، العلاقات التي حظيت بها مع هذا وذاك، مدّت يدها ورفعت الفرشاة. وللحظة ظلّت يدها عالقة في الهواء ترتعش ألماً لكن في نشوةٍ من حماس. من أين تبدأ؟ - هو ذا السؤال، في أيّ موضع تخلق أثرها الأول؟ فأي خطٍ على قماشة الرسم

سيلزمها بمخاطر لا حصر لها ولا عد، بقرارات متعاقبة لا رجوع عنها. فكل ما يتجلى بسيطاً في الفكرة سرعان ما يضحى مع التطبيق معقداً؛ كما الأمواج يبصرها الرائي من أعلى الجرف متناظرة، لكن في عين السبّاح المغمور فيها فهي مشتّتة في دوّامات حَدِرة، بين ذُرىً مزبدّة. ومع ذلك فالمخاطرة لا بُدّ أن تُؤخَذ؛ الأثر لا بُدّ أن يُدْمَغ.

وفي إحساسٍ جسديّ غريب، كأنَّ وازعاً يلحّ عليها بالمضيّ قُدماً فيما تميل هي إلى شكم نفسها، سدّدت بسرعة ضربتها الأولى الحازمة. الفرشاة انحدرت. خفقت بنيةً على القماش الأبيض؛ وتركت من خلفها أثراً مائعاً. مرةً أخرى فعلتها - ومرة ثالثة. وعلى مدِّ السكنات والخفقات، خلقت حركةً إيقاعية راقصة، كأنما السكنات جزءٌ من الإيقاع وكذا الضربات، وكلها مترابطةٌ ببعضها البعض؛ وهكذا، بخفةٍ ورشاقة، تتريّث، تضرب، حزَّت قماشة الرسم بخطوط بنية مائعة متقدة ما إن استقرّت فسرعان ما طوّقت (شعرت بها تلوح من بعيد) فسحة. وفي جوف الموجة أبصرت الموجة التالية تعلو وتعلو عليها. إذ ما الأشد رعباً على نفسها من هذه الفسحة؟ إذ ها هي تقف مرةً أخرى، تتراجع خطوة للوراء كي تُمعن النظر فيها، منزوعة من أجواء النميمة، المعيشة، المجتمع وأفراده، في حضرة عدوّها القديم المرعب - هذا الشيء الآخر، هذه الحقيقة، هذا الواقع، وقد أطبق فجأة بيديه عليها، وانبثق قوياً صارماً من خلف المظاهر آمراً إيّاها أن تعيره كلّ انتباهها. وقفت نصف كارهة، نصف مقاومة. إذ لمَ عليه أن يسوقها ويسحبها بعيداً؟ لمَ لا يتركها بسلام، تتبادل أطراف الحديث مع السيد كارمايكل على المرجة؟ لكن ما عساها أن تفعل، فالشيء الآخر متطلّبٌ وقاسٍ. كلّ ما سواه من شخوص مُبجَّلة تَقْنَع بالعبادة؛ الرجال، النسوة، الربّ، يكفيهم أن يركع لهم المرء ويسجد؛ لكن هذا الشيء، وليكن مجسّداً في صورة ظلة مصباح بيضاء تلوح على طاولةٍ من الأملود، يستنهض في المرء الخوض في صراعٍ أبديّ، يتحداه إلى قتالٍ حيث الهزيمة مصيره الحتميّ. وفي كلّ مرة (أتراه مدموغٌ في طبيعتها، أو في جنسها، ما كانت لتعرف) قبل مقايضتها انسيابية الحياة مقابل التركيز على الرسم تجد نفسها تعيش لحظات من العري تتبدى فيها روحاً لم تولد بعد، روحاً مسلوبة من جسد، ترتعش متردّدة على قمّة مستدقّة تذروها الرياح، مكشوفة لا شيء يقيها عصوف الشك. ما الداعي إلى رسمها؟ وقفت تتأمّل القماشة، خطوطٌ رقيقة مائعة تحزُّها. ستُعلّق ولا ريب في حجرة الخدم. ستُطوى وتُدس أسفل أريكة. ما الداعي إلى الرسم إذن، وإذ يتناهى إليها صوتٌ يردد عليها أن ليس بوسعها الرسم، ليس بوسعها الخلق، وكأنما علقت في مجرىً عقلي

معتاد شكّلته التجربة مع مضيّ الوقت، يردّد فيه المرء على نفسه الكلمات غير واعٍ لمن قالها في الأصل.

ليس بوسعهن الرسم، ليس بوسعهن الكتابة، دمدمت على نحوٍ رتيب، تتفكّر قلقة عمَّ يجب أن تكون عليه خطّة هجومها. فتلك الفسحة الهائلة تلوح أمام عينيها؛ تنتأ من القماشة؛ تضغط على مقلتيها. من ثمَّ، فجأة، وكأنما العصارة الضرورية لتزييت قواها انبجست عفوياً، انغمست متقلقلة في ألوان الأزرق والبني والأصفر، تحرّك فرشاتها هنا وهناك، غير أنها باتت أثقل وأبطأ، وكأنما حركة الفرشاة في يدها قد توافقت مع إيقاع يُمليه أحدهم عليها، (أبقت عينيها على الوشيع، على القماشة) إيقاع قويّ كفاية كي يحملها معه في تيّاره. وبالفعل باتت غير واعية لكل ما هو خارجي. وما إن باتت غير واعية لكل ما هو خارجي، لاسمها وشخصيتها ومظهرها، إن كان السيد كارمايكل هنا أم لا، حتّى أخذ عقلها يقذف من أعماقه مشاهد وأسماء، أقوالاً وأفكاراً وذكريات، مثل نبعٍ انبجس بغتة وأخذ يلفظ ماءه على تلك الفسحة البيضاء الساخطة، الصعبة البشعة، تصوغها هي بأطياف الأخضر والأزرق.

وتذكّرت، تشارلز تانسلي من اعتاد التلفظ بتلك الكلمات، المرأة ليس بوسعها الرسم، ليس بوسعها الكتابة. آتياً إليها من الخلف، واقفاً على مقربة شديدة منها، تصرفٌ تمقته، فيما وقفت ترسم على هذه البقعة بالذات. «تبغ مفروم»، «الأونصة بخمسة بنسات»، يقول لها مستعرضاً فقره، مبادئه. (إلا أنَّ الحرب قد سلبت المرأة تفرّدها الأنثويّ في استحقاق الشفقة. يا لهم من مساكين، يا لهم من مساكين، باتت تُقال للجنسين). دائماً ما رأته يحمل كتاباً أسفل ذراعه - كتاباً أرجوانيّاً. كان «يعمل». تذكّرته جالساً في الهاجرة، يعمل. وعلى مائدة العشاء يجلس تماماً في منتصف الإطلالة. ومع ذلك كله، تفكرت متأملة، فهناك المشهد على الشاطئ. مشهدٌ عصيّ على النسيان. كان صباحاً عاصفاً. والجميع انحدر إلى الشاطئ. السيدة رامزي جلست تكتب الرسائل إلى جانب صخرة. أخذت تكتب وتكتب. «أوه»، قالت متعجّبة، ترنو إلى شيءٍ يطفو على البحر. «أتراه سلّة سراطين؟ أتراه قاربٌ مقلوب؟» كانت حسيرة البصر حدَّ أنها عجزت عن رؤيته، وإذ بتشارلز تانسلي يغدو لطيفاً، ألطف ما يكون عليه. وبدأ يلعب لعبة البط والعلاجيم. اختارا حجارة صغيرة سوداء ومسطّحة وألقيا بها تثب على الأمواج، بين الآن والآخر تسترق السيدة رامزي نظرة من أعلى نظارتها وتضحك عليهما. عمَّ تحادثا، ليس بوسعها التذكر، هي وحسب تتذكر إلقاءهما الحجارة وتوافقهما المفاجئ مع بعضيهما والسيدة رامزي تراقبهما. كانت جدّ واعية لذلك. تراجعت خطوة للوراء تخزر عينيها،

وخطرت لها السيدة رامزي. (لا بُدّ أن جلوسها على المرقاة برفقة جيمس قد بدَّل كثيراً من تصميم اللوحة. إذ يقيناً كان هناك ظِلّ). لدى تفكّرها في نفسها وتشارلز يلقيان بالبط والعلاجيم ومشهد الشاطئ بأسره، بدا لها وكأنما المشهد اعتمد في نحوٍ ما على وجود السيدة رامزي جالسة أسفل الصخرة، مع إضمامة ورق على ركبتها، تكتب الرسائل. (كتبت رسائل لا تُعدّ ولا تُحصى، وكثيراً ما بعثرتها الريح وهي وتشارلز ما أنقذا إلا صفحة واحدة هوت في البحر). لكن يا لها من قوة عظيمة تمتلكها الروح! تلك المرأة الجالسة هناك تكتب أسفل الصخرة قد فكّكت كلّ شيءٍ إلى صورته البسيطة؛ صيّرت كلّ الغضب، كلّ السخط، خرقاً بالية تذوي؛ جمعت هذا بذاك ومن ثم بهذا، وبذا خلقت شيئًا من هذه السخافة البائسة والكيدية (تناوشها هي وتشارلز، شجارهما التافه، كان حقاً سخيفاً وكيديّاً) - هذا المشهد على الشاطئ على سبيل المثال، هذه اللحظة من الصداقة والإعجاب - والذي صمد كلّ تلك الأعوام، كيما تنغمس اللحظة فيه وتعيد رسم ذكراها عنه، وبذا ظلّ المشهد عالقاً في ذهنها يترك في النفس أثراً أشبه بعملٍ فنّي.

«أشبه بعملٍ فنّي»، ردّدت في نفسها، تحوّل بصرها من القماشة إلى مرقاة حجرة الاستقبال ومن ثمّ عَوْداً. لا بُدّ أن ترتاح للحظة. وفي لحظة ارتياحها، يجول بصرها بين القماشة والمرقاة، في نظرةٍ مبهمة، فالسؤال القديم الذي أبداً يحلّق قاطعاً سماوات الروح، السؤال الفسيح، السؤال العام، والذي دوماً ما يطوّع نفسه إلى سؤالٍ بسيط في لحظات كهذه، وقد أطلقت العنان لقواها بعد توتّرٍ شديد، ها قد وقف أعلاها، يتوقّف أعلاها، يتعتّم أعلاها. ما معنى الحياة؟ هذا كلّ شيء - سؤالٌ بسيط؛ سؤالٌ ينزع إلى الإطباق على المرء لسنوات. والوحي العظيم أبداً لا ينجلي. ولعلَّ الوحي العظيم ما انجلى قطّ. عوضاً عنه هناك معجزات يومية صغيرة، انكشافات، أعواد ثقاب تشتعل بغتة في العتمة؛ وههنا إحداها. هذه، تلك، والأخرى؛ هي وتشارلز تانسلي والموجة المتكسّرة؛ السيدة رامزي تجمعهما ببعض؛ السيدة رامزي تقول، «اللحظة الحياة تقف ثابتة»؛ السيدة رامزي تخلق من اللحظة العابرة شيئاً باقياً (مثلما تحاول ليلي في بُعدٍ آخر أن تخلق من اللحظة العابرة شيئاً باقياً) - هذا، هي ذي طبيعة الوحي. في غمرة الفوضى هنالك شكل؛ هذا العبور الأبديّ والدفق اللانهائي (تأمّلت الغيوم تمضي وأوراق الشجر تهتزّ) متجذرٌ في الثبات. اللحظة الحياة تقف ثابتة، كذا قالت السيدة رامزي. «السيدة رامزي! السيدة رامزي!» ردَّدت وردَّدت اسمها. هي تدين بالفضل كله لها.

الصمت يخيّم على الأجواء. لا أحد أقدم بعد على أيّة حركة في البيت. تأمّلت البيت نائماً في ضياء الشمس الباكرة، نوافذه خضرٌ مزرقّة إثر انعكاس أوراق الشجر عليها. الفكرة الباهتة التي

خطرت لها عن السيدة رامزي بدت متناغمة مع هذا البيت الهادئ؛ هذا الضباب الرقيق؛ نسيم الصباح العليل. باهتٌ وغير حقيقيّ، بيد أنّه صافٍ ومثير على نحوٍ مذهل. أملت ألّا يفتح أحدهم النافذة أو يغادر البيت، علَّهم يتركونها وحدها تواصل التفكير، تواصل الرسم. التفتت نحو قماشتها. غير أن فضولاً اعتراها أوعز إليها، مدفوعة بضيقها من العطف الذي تحمله ولم تطلقه، إلى المشي عدة خطوات نحو حافة المرجة، كي ترى إن كان بإمكانها مشاهدة السرية الصغيرة، هناك على الشاطئ، تتأهّب للإبحار. وهناك، بين القوارب الصغيرة العائمة، بعضها أشرعتها ملتفة، بعضها تبحر ببطء، فالطقس لمّا يزل هادئاً جداً للإبحار بعيداً، لمحت قارباً وقد افترق عن البقية. حتّى أنَّ الشراع رُفع على الصارية. وقررت أنَّ هناك، في ذاك القارب البعيد جدّاً، القارب الصغير الصامت، يجلس السيد رامزي برفقة كام وجيمس. الآن وقد رفعوا الشراع؛ الآن بعد فتورٍ وسكون، شاهدت القارب يتجاوز بقية القوارب في تأنٍّ، منطلقاً في طريقه نحو البحر.

الفصل الخامس

الأشرعة تصطفق فوق رؤوسهم. الماء يخرّ، يصفع جنبات القارب، الراقد كسلاً بلا حراك تحت الشمس. بين الآن والآخر تترقرق الأشرعة بهبّة نسيم، لكن سرعان ما تمرّ الهبّة وتنقطع. ما تبدّت حركة واحدة عن القارب. السيد رامزي جلس في وسط القارب. وفي أيّة لحظة سينفد صبره، تصوّر جيمس، وكذا تصوّرت كام، تتأمّل أباها، الذي جلس وسط القارب بينهما (جيمس يتولى قيادة الدفة؛ كام تجلس وحدها في القيدوم) مع ساقيه الملتفّتين بعصبية. فهو يكره البقاء معلقاً هكذا. وكما كان متوقعاً، بعد جلوسه متململاً لثانية أو ثانيتين، توجّه بكلامٍ حادّ لابن مكاليستر، الذي تناول المجذاف وبدأ يجذّف. لكن أباهما، وهما أدرى به، لن يرضى أبداً إلا بانطلاقٍ سريع. لن ينفكّ يبحث عن هبّة ريح، متململاً، يتمتم متذمراً، ومكاليستر وابنه سيسمعان تمتمته، وكلاهما سيساوره شعورٌ من عدم الارتياح. قد أجبرهما على الحضور. قد أجبرهما على الحضور. وفي غمرة غضبهما أملا أن لا ريح تهب، أن يعانده البحر بكل السبل، بما أنه أجبرهما على الحضور رغماً عن إرادتهما.

على مدّ مسيرهما نحو الشاطئ تعمّدا التلكؤ خلفه، رغم تأمّره عليهما «هلمّا، هلمّا» دون أن ينطقها. سارا مطرقَي الرأس، كأنما عاصفة وحشية تجبر رأسيهما على الانحناء. وما كان بيدهما قول أيّ شيءٍ له. فهما مجبران على الحضور؛ مجبران على اللحاق به. مجبران على السير خلفه حاملَين رزماً مغلّفة بالورق البُنّي. غير أنهما أقسما، في صمت، لدى مسيرهما، أن يقف كلّ إلى جانب الآخر ويخوضا المعركة العظيمة - مقاومة الطغيان حتّى الموت. وهكذا جلسا، كلّ على طرف من طرفَي القارب، في صمت. ولا أحد منهما سينطق بكلمة، فقط سيسترقان النظر إليه بين الفينة والأخرى حيث يجلس عاقداً ساقيه، عابساً متململاً، يتأفّف لاعناً، يتمتم بأشياء لنفسه، ينتظر نافد الصبر هبّة ريح. وأملا أن تظل الريح ساكنة. أملا أن يخيب أمله. أملا فشل الرحلة بأكملها، فيعودون أدراجهم، حاملين رزمهم، إلى الشاطئ.

لكن الآن، ما إن جذف ابن مكاليستر بالقارب قليلاً، حتّى بدأت الأشرعة تتأرجح على مهل، القارب تسارع من ذاته، استوى من ذاته، وانطلق. وفوراً، كأنما توتّر عظيمٌ انزاح، حلَّ السيد رامزي ساقيه، تناول محفظة تبغه، وناولها إلى مكاليستر مع نخيرٍ خافت، واعتراه شعورٌ، أدرك الجميع كُنهه إذ عانوا من وقتٍ عصيب، من الرضا التام. والآن سيُبحرون على هذا المنوال لساعات، والسيد رامزي سيطرح على مكاليستر العجوز سؤالاً - على الأرجح عن العاصفة العظيمة التي هبّت الشتاء الماضي - ومكاليستر العجوز سيُجيبه، وسيدخّنان غليونيهما معاً، ومكاليستر سيتناول بإصابعه حبلاً مقطرناً، يعقد أو يحلّ عقدة، والابن سيصطاد السمك، ولن ينطق أبداً بكلمة لأيّ أحد. وجيمس سيُجبر على إبقاء عينيه طوال الوقت على الشراع. إذ إن غفل عنه، فالشراع سيتجعد ويرتجف، والقارب ستخفّ سرعته، والسيد رامزي سيصيح فيه بحدّة، «حذار! حذار!»، ومكاليستر العجوز سيستدير قليلاً على مقعده. وهكذا سمعا السيد رامزي يطرح سؤالاً عن العاصفة العظيمة التي هبّت في الكريسماس الماضي. «قد هبّت مندفعةً حول الرأس»، أجاب مكاليستر العجوز، يصِف العاصفة العظيمة من الكريسماس الماضي، يوم اندفعت عشر سفن نحو الجون طلباً للملاذ، وقد رأى بأمّ عينه «واحدة هناك، واحدة هناك، واحدة هناك»، (يشير على مهل نحو مواضع على الجون. السيد رامزي يلاحق إشارته بعينيه، مديراً رأسه). قد رأى أربعة رجالٍ يتشبّثون بالدّقل. ومن ثم مضت. «في النهاية تمكنا من دفعها بعيداً»، واصل حديثه (لكن في غمرة غضبهما وصمتهما فما التقطا إلا كلمة هنا وهناك، جالسَين مقابل بعضهما البعض على الطرفين المتقابلين من القارب، توحّدهما معركتهما العظيمة ضد الطغيان حتّى الموت). وأخيراً دفعوا بها بعيداً، وأطلقوا قارب النجاة، ودفعوا بها خارج الرأس - مكاليستر روى القصة؛ ورغم أنهما ما التقطا إلا كلمات معدودات، فقد جلسا واعيين طوال الوقت إلى أبيهما - كيف مال إلى الأمام، كيف صيّر صوته متناغماً مع صوت مكاليستر؛ كيف، نافثاً الدخان من غليونه، ينظر إلى المواضع التي أشار إليها مكاليستر، تلذذّ في فكرة العاصفة والليل الأسود الحالك والصيادين يناضلون في سبيل حياتهم. إذ تروق له فكرة أن الرجال من يتوجب عليهم بذل العرق والجهد على الشاطئ العاصف في حلكة الليل؛ يعرضون عضلاتهم وعقولهم على خط المواجهة العظيمة ضد الأمواج والرياح؛ يروق له أن يشقى الرجال في العمل، وتقرّ النساء في بيوتهن، جالسات إلى جانب أطفالهن النائمين، وأزواجهن يغرقون في البحر، في قلب عاصفةٍ هوجاء. إذ كان لجيمس أن يستشفّ ذلك، وكذلك كام (كلاهما ينظر إليه، يتبادلان النظر) من حركة رأسه، من يقظته ورنّة صوته، من لمحة اللكنة

الأسكتلندية التي شابت صوته، فبدا يتحدث مثل فلّاح أسكتلندي، لدى سؤاله مكاليستر عن السفن الإحدى عشرة التي اندفعت نحو الجون وقت العاصفة. ثلاثٌ منها غرقت.

جلس ينظر بفخر إلى حيث مكاليستر يشير؛ وتصوّرت كام، يعتريها شعورٌ بالفخر به دون أن تعرف لماذا، أنَّ لو أباها كان هناك لأطلق قارب الإنقاذ، لبلغ الحطام. هو شجاعٌ جدّاً، مغامرٌ جداً، قالت كام في نفسها. لكنها تذكرت. تذكرت المعركة؛ مقاومة الطغيان حتّى الموت. فالاستبداد قد أثقل كاهليهما. فهما مجبرَين؛ مأمورَين. ومرةً أخرى أثقلهما بكآبته وسلطته، أجبرهما على تلبية مشيئته، في هذا الصباح الرائع، تعالا، فهذه رغبتي، واحملا الرزم البنيّة هذه، إلى المنارة؛ كيما يشاركا في طقوس يؤدّيها هو لأجل متعته وفي ذكرى أناسٍ ماتوا، طقوس يمقتانها، لذا تلكآ طوال الطريق خلفه، وبهجة اليوم بأسره فسدت.

أجل، النسيم منعش. القارب يتمايل، يقطع الماء بحدّة فيندفق عنه أخضرَ، في فقاعات، في شلالات. جلست تتأمّل الزبد، تتأمّل البحر بكل ما في باطنه من كنوز، دفق موجه سلبها لبّها، والرابط بينها وبين جيمس ارتخى. ارتخى بعض الشيء. وأخذت تفكّر، إلى أي حدٍّ القارب سريع. إلى أين نحن ذاهبون؟ والحركة سلبتها لُبّها، بينما جيمس، عينه ثابتة على الشراع وعلى الأفق، جلس يقود القارب متجهّماً. إلا أنَّ خاطراً راوده وهو يقود القارب أن لعلَّ بيده الفرار؛ فيُلقي عن كاهله بهذا النير كله. قد يحطوا على برٍّ ما؛ وحينها سيتحرر. كلاهما، عيناهما تلتقيان للحظة، اعتراه إحساسٌ من النشوة والفرار، إثر سرعة دفق الموج وتبدل الأجواء. لكن النسيم استثار في السيد رامزي ذات الحماس، وهكذا، ما إن قذف مكاليستر العجوز بخيطه نحو البحر، صاح عالياً،

«فنِينا كلنا»، عقبتها صيحة أخرى، «كلٌّ وحده». ومن ثم، في فورته المعتادة من الندم أو الخجل، استجمع نفسه، ولوّح بيده تجاه الساحل.

«أترين البيت الصغير»، قال مشيراً بإصبعه، متمنياً على كام أن تنظر. رفعت رأسها كارهة ونظرت. لكن أيهم بيتها؟ ما عاد بوسعها تمييز بيتها من بين كلّ البيوت على جانب التل. كلها بدت نائية آمنة وغريبة. الساحل بدا من بعيد، بعيدٍ جداً، مصقول، غير حقيقيّ. ما أبحروا إلا مسافةً صغيرة وها هم بعيدون عنه، تكتسيه هالةٌ متغيرة، وقورة، لشيءٍ ينحسر وما عاد للمرء أي وجودٍ فيه. أي البيوت بيتها؟ عجزت تماماً عن رؤيته.

«لكني الغريق في البحر الأشد اهتياجا»، همهم السيد رامزي. كان قد وجد البيت وبرؤيته إياه، رأى نفسه أيضاً هناك؛ رأى نفسه يمشي على المصطبة، وحده. يذرع المصطبة جيئة وذهاب بين جرار الرماد؛ وبدا في عينيه مُسنّاً محنيّ الظهر. جالساً على القارب، أحنى ظهره، يربض في يأسٍ وخوف، مؤدياً على الفور دوره - دور الرجل المهجور، الأرمل، الثاكل؛ وبذا استحضر في مخيّلته جمهرة من الناس تتعاطف معه؛ جالساً على القارب، أخرج لنفسه مسرحية درامية؛ والتي تطلبت منه إظهار شيخوخته وإرهاقه وأساه (رفع يديه يتأمل نحولهما، كي يؤكّد حلمه) من ثم تخيّل فيض العطف النسوي ينصبّ عليه، تخيلهن يهدّئن من روعه ويتعاطفن معه، وبنيله في حلمه أثراً من تلك المتعة الفاتنة التي لطالما وجدها في العطف النسوي، تنهّد وقال في نبرةٍ رقيقة حدادية:

لكنّي الغريق في البحر الأشد اهتياجا،

ابتلعتني دوّاماتٌ أعمق من دوامته،

فسمع جميع من في القارب كلماته الحدادية. كام جفلت على مقعدها. فقد صدمها - أثار غضبها. الحركة استثارت أباها؛ وقد ارتعد، وانفصل عن دوره، يهتف قائلاً: «انظروا! انظروا!» في نبرةٍ مُلحة دفعت حتّى جيمس إلى إدارة رأسه والنظر من خلف كتفه صوب الجزيرة. الكلّ نظر. الكلّ نظر صوب الجزيرة.

لكن كام عجزت عن رؤية أيّ شيء. استغرقت تتفكّر في كلّ تلك المجازات والمرجة، كثيفة متحابكة بالحيوات التي قضوها عليها، وكيف اختفت الآن، تلاشت: نُهِبت؛ باتت من الماضي؛ باتت غير حقيقية، والحقيقي هو هذا، الآن؛ القارب والشراع ورقعته؛ مكاليستر وقرطاه؛ ضجيج الأمواج - كلّ هذا هو الحقيقي. مستغرقةً في هذه الفكرة، همهمت لنفسها، «فنِينا كلّنا، كلٌّ وحده»، فكلمات أبيها تموج وتتكسّر في ذهنها، المرة تلو المرة، وما إن لمحها أبوها، تحدق في الساحل، تعلوها نظرةٌ ضبابية، حتّى بدأ يمازحها ساخراً. ألا تعرفين اتجاهات البوصلة؟ سألها. ألا تميّزين الشمال من الجنوب؟ أتظنّين حقاً أن البيت في ذاك الاتجاه؟ وأشار مرةً أخرى، وأراها أين يقع البيت، هناك، بمحاذاة تلك الأشجار. تمنى عليها لو تحاول أن تكون أكثر دقة، قائلاً لها: «أخبريني - أيّ الاتجاهين الشرق، وأيّهما الغرب؟» شبه ضاحك وشبه موبّخ، إذ عصى عليه فهم الحالة العقلية لأي شخص، ما لم يكن أبلهاً بالمطلق، يعجز عن تمييز اتجاهات البوصلة. غير أنها تجهلها. وبرؤيته إياها تحدّق في نظرةٍ ضبابية، والتي استحالت الآن نظرةً مذعورة، عيناها مسمّرتان حيث لا بيت هناك، نسي السيد

رامزي حلمه؛ ذرعه المصطبة جيئة وذهاب بين جرار الرماد؛ ونسي الأذرع المتعاطفة الممدودة إليه. وأخذ يقول في نفسه، هكذا هنَّ النسوة؛ ضبابيّة عقولهن أمرٌ ميؤوسٌ منه؛ أمرٌ ما استطاع يوماً فهمه؛ لكن هذه طبيعة الحال. فالأمر ذاته خبره معها - زوجته. هنّ وحسب عاجزاتٌ عن التركيز على أيّ شيءٍ في أذهانهن. لكنه مخطئٌ في غضبه منها؛ كذلك، ألا تستهويه تلك الضبابية في النساء؟ أليست جزءاً لا يتجزّأ من فتنتهن الساحرة. سأجعلها تبتسم لي، قرر في نفسه. فقد بدت خائفة. الصمت يكتنفها إلى حدٍّ بعيد. قبض على أصابعه، عاقداً عزمه على كبت صوته ووجهه وإيماءاته المعبرة السريعة، التي لطالما كانت كلّ تلك الأعوام رهن إشارته متى ما أراد نيل استعطاف الناس ومديحهم. وسيجعلها تبتسم له. وسيعثر على شيءٍ سهلٍ وبسيط يقوله لها. لكن ما عساه يقول لها؟ فبعد كلّ تلك الأعوام التي قضاها مستغرقاً في عمله، نسي كُنه الشيء الذي قد يقوله المرء في مواقف كهذه. هناك جروٌ. لديهم جرو. ومن الذي يعتني بالجرو اليوم؟ سألها. أجل، قال جيمس في نفسه، في نبرةٍ غليظة، يلمح رأس أخته مقابل الشراع، الآن ستُذعن له. وسأُترَك وحدي أحارب الطاغية. وحده سيقف في أرض المعركة. كام أبداً لن تقاوم الطغيان حتّى الموت، قال في نفسه متجهّماً، يراقب وجهها الحزين، المكفهر، المذعن. ومثلما تخيّم غمامة على سفح تلةٍ خضراء وتنحدر عليها بفعل الجاذبية فتغمرها وحدها، من بين كلّ التلال الخضراء، بالكآبة والأسى، وتجبر التلال المجاورة على التفكر في مصير تلك التلة المعتمة الملبدة بالغمام، إما شفقةً عليها، أو ابتهاجاً خبيث بفزعها: خيّم الشعور على كام بأنها معزولة، جالسة بين أناسٍ هادئين، ذوي شكيمة، محتارة كيف لها أن تجيب عن سؤال أبيها عن الجرو؛ كيف لها أن تقاوم استعطافه إياها - اغفري لي، اعتني بي؛ بينما جيمس واضع القوانين، الجالس مع صحائف الحكمة الأبدية على ركبته (يده على ذراع الدفة استحالت صورةً رمزية في مخيلتها)، يقول لها، قاوميه. حاربيه. يقولها عن حق؛ عن عدل. إذ لا بُدّ لهما أن يحاربا الطغيان حتّى الموت. فمن بين كلّ الصفات الإنسانية، العدل هو الأكثر توقيراً في عينيها. رأت في أخيها صورة الإله، وفي أبيها صورة العبد المتوسل. فإلى أيٍّ منهما ستذعن، سألت نفسها، جالسة بينهما، تحدّق في الساحل الذي تجهل كلّ اتجاهاته، تتفكر كيف للمرجة والمصطبة والبيت أن اندمجوا جميعاً في صورةٍ ملساء نائية حيث يعم الآن السلام.

«جاسبر»، أجابت مقطبة الجبين. هو من سيعتني بالجرو.

وما الاسم الذي تنوي منحه إياه؟ ألحَّ عليها بالسؤال. ففي صباه كان لديه كلب، يدعى فرسك. ستذعن له، قال جيمس في نفسه، ما إن لمح نظرةً عابرة على وجهها، نظرةً تذكرها. عينان

خفيضتان، تنظران نحو حبكٍ أو ما شابه. من ثم بغتةً تنظران للأعلى. لمع في ذاكرته اللون الأزرق، من ثم أحدهم، كان جالساً معه، ضحك، استسلم، واعتراه غضبٌ شديد. لا بُدّ أنَّ ذاك الأحد كان أمه، جالسة على مقعدٍ خفيض، وأبوه يقف فوق رأسها. أخذ ينقّب ملياً في السلسلة اللامتناهية من الانطباعات التي صفّها الزمن برقّة، ورقة تعلو ورقة، طيّة تعلو طية، صُفَّت بلا انقطاع على دماغه؛ نقَّب بين الروائح، الأصوات؛ النبرات، قاسية، جوفاء، عذبة؛ والأضواء العابرة، وقرع المكانس؛ صخب البحر وسكونه، وكيف لرجلٍ يذرع المكان جيئةً وذهاب أن توقّف جامداً في مكانه، منتصباً، فوق رأسيهما. وفيما جلس يفكّر، لمح كام، تخوض أصابعها في الماء، تُنعم نظرها نحو الساحل لا تنطق بكلمة. لا، هي لن تذعن، قال في نفسه؛ فهي مختلفة. حسنٌ إذن، إن لم يكن في نية كام الإجابة على سؤاله، فلن يزعجها، قرر السيد رامزي في نفسه، يتلمّس جيبه بحثاً عن كتاب. غير أنها كانت تنوي الإجابة عليه؛ وتمنّت، من كلّ قلبها، لو كان لها أن تزيح العقبة الجاثمة على لسانها فتقول، أوه، أجل، فرسك. سأدعوه فرسك. حتّى أنها أرادت أن تسأله، أليس فرسك الكلب الذي وجد طريق العودة وحده عبر البراح؟ لكن مهما حاولت، ما كان بوسعها التفكير بأيّ شيءٍ تقوله من هذا القبيل، مدفوعةً بإخلاصها الشديد لخوض المعركة، لكنها مع ذلك، ستمرّر إلى أبيها، دون أن تثير شك جيمس، أمارة الحب الذي تكنه له. إذ جال في خاطرها، تخوض يدها في الماء (وها هو ابن مكاليستر اصطاد سمكة إسقمري، ترفس الأرض، والدم على خياشيمها) وتتأمل جيمس الذي أبقى على عينه مسمرة جامدة على الشراع، يرمق بين آنٍ وآخر الأفق، أنت لست معرضاً لهذا، إلى هذا الضغط وانقسام المشاعر، إلى هذا الإغراء العظيم. أبوها يتلمّس جيوبه؛ وفي ثانية، سيجد كتابه. وما انجذبت في حياتها إلى أحد أكثر من انجذابها إليه؛ فيداه جميلتان، وكذا قدماه، وصوته، وكلماته، وتهوّره، وانفعاله، وغرابة أطواره، وعاطفته، وتلفّظه أمام الجميع، **فنِينا كلنا، كلّ وحده،** ونأيه بنفسه. (للتو فتح كتابه). أمّا ما تبقى منه فعصيٌّ عليها تحمله، تفكّرت مستغرقة، تجلس منتصبة، تراقب ابن مكاليستر يسحب خطّاف الصنارة عن خياشيم سمكةٍ أخرى، عماه المطبق وطغيانه الذي سمّم طفولتها وأثار فيها عواصف مريرة، لمّا تزل تفزعها ليلاً من منامها فترتعد وتثور غضباً على ذكرى أمرٍ من أوامره التي يُلقيها عليها؛ إهانةٍ وجّهها إليها: «افعلي هذا»، «افعلي ذاك»، هيمنته عليها: «اخضعي لي».

لذا ما قالت شيئاً، إنما جلست حزينة عنيدة تتأمل الساحل، متدثراً برداءٍ من طمأنينة؛ وكأنما الناس هناك قد خلدوا جميعاً للنوم؛ أحراراً كما الدخان؛ أحراراً في المضيّ والقدوم كما الأشباح.

لا معاناة تثقل كاهلهم هناك. كذا تصورت في ذهنها.

الفصل السادس

أجل، ذاك هو قاربهم، قرّرت ليلي بريسكو، واقفة على حافة المرجة. القارب ذو الشراع البُنّي الرمادي، والذي رأته الآن يستوي على الماء وينطلق عبر الجون. وها هو ذا جالسٌ هناك، تصوّرته، من حوله طفلاه، جالسَين في سكونٍ وصمت. وما كان بيدها الوصول إليه، والعطف الذي لم تمنحه إياه أثقل كاهلها. جعل من الصعب عليها الرسم.

لطالما وجدته رجلاً صعباً. وتذكّرت، كيف عجزت دوماً عن كيل المديح له في وجهه. ما قلَّص علاقتها به إلى شيءٍ حياديّ، يفتقر إلى ذاك العنصر الجنسي الذي طبع أسلوبه الغزلي، المتودّد، شبه الخليع حتّى، مع منتا. كان سيقطف لها زهرة، ويُعيرها كتبه. لكن أتراه صدّق أن منتا ستقرؤها؟ هي جرَّت تلك الكتب معها في أرجاء الحديقة، تدسّ فيها أوراق الشجر استدلالاً على الصفحة.

«أتذكر، سيد كارمايكل؟»، نازعتها الرغبة في طرح السؤال، تتأمّل الرجل المسنّ. عدا أنه غطّى جبينه بقبّعته؛ فافترضت أنه إما نائم، أو حالم، أو مستلقٍ يلتقط الكلمات.

«أتذكر؟»، نازعتها الرغبة في طرح السؤال عليه ما إن مرت بمحاذاته، تفكر مرةً أخرى في السيدة رامزي على الشاطئ؛ البرميل يعلو ويهبط؛ والصفحات تتطاير. لماذا، بعد كلّ تلك الأعوام، هذه الذكرى هي التي نجت، ترنّ، تشعّ، جلية مرئية حتّى في أصغر تفصيل، بينما كلّ ما سبقها فراغ، وكل ما تلاها فراغ، لأميالٍ وأميال؟

«أتراه قارب؟ أتراها فلينة؟»، كانت ستقول، وردّدتها ليلي في نفسها، تستدير عائدة، كارهة مرة أخرى، إلى قماشتها. حمداً للسماء، ها هي معضلة الفسحة لا تزال موجودة، قالت في نفسها، تتناول فرشاتها. الفسحة تحملق فيها. كتل اللوحة بأكملها تقوم على هذه الفسحة. في ظاهرها عليها أن تبدو جميلة وساطعة، ريشانيّة زائلة، كلّ لونٍ مدغمٌ في الآخر كما الألوان على جناح فراشة؛ لكن من أسفل النسيج، فعلى الكتل أن تتشابك بإحكام في مزاليج فولاذية. لوحة لك أن تنفشها بنفسٍ من

صدرك؛ ويستحيل عليك إزاحتها قيد أنملة بفوجٍ من الجياد. وهكذا بدأت تمد الأحمر، الرمادي، تصوغ طريقها نحو الجوف القابع هناك. وفي ذات الوقت، بدا وكأنها اللحظة جالسة على الشاطئ إلى جانب السيدة رامزي.

«أتراه قارب؟ أتراه برميل؟» تساءلت السيدة رامزي. وأخذت تنقب من حولها بحثاً عن نظارتها. وجلست، ما إن عثرت عليها، ترنو إلى البحر، في صمت. وليلي، فيما تواصل الرسم، شعرت وكأنما باباً قد فُتح، يدخله المرء فيقف متأملاً ما حوله في صمت في مكانٍ أشبه بكاتدرائية عالية، مظلمة جداً، مهيبة جداً. الصيحات تتناهى إليها من عالم بعيد جداً. البواخر في الأفق تتلاشى إلى سويقات من دخان. تشارلز يحذف الحجارة فتثب رشيقةً على سطح البحر.

السيدة رامزي جلست في صمت. وتصورتها ليلي سعيدة بجلوسها هكذا، في صمتٍ مريح، منقطعة عمّا حولها؛ تلوذ إلى الراحة في الغموض الذي يكتنف العلاقات الإنسانية. إذ من يعرف حقّاً من نحن، وما نشعر به؟ من ذا الذي يدرك حتّى في لحظة الحميمية، أنَّ هذه معرفة؟ وألن تفسد الأمور، لربّما تساءلت السيدة رامزي (إذ يبدو أن هذا الصمت قد لاذت إليه في كثيرٍ من الأحيان) متى ما نطقتَ بها؟ ألهذا نعبّر أكثر في إيماءاتنا وتصرفاتنا؟ ويبدو أنَّ اللحظة جاءت مثمرة على نحوٍ استثنائي. إذ حفرت حفرةً صغيرة في الرمال وغطّتها، تدفن فيها مثالية اللحظة. مثل قطرةٍ من فضّة يغمس فيها المرء إصبعه فإذ بنورٍ ساطع يضيء ظلمة الماضي.

تراجعت ليلي خطوة للوراء - علَّها - تبقي قماشة الرسم في منظورها. يا له من درب غريب يمشي عليه المرء، درب الرسم. يوغل فيه أبعد وأبعد، إلى أن يصل اللحظة التي يشعر فيها وكأنما يقف على لوحٍ خشبي ضيق، وحده تماماً، في عرض البحر. وفيما أخذت تغمس فرشاتها في اللون الأزرق، غمستها أيضاً في الماضي. وتذكرت، السيدة رامزي نهضت. الوقت قد أزف للعودة إلى البيت - وقت الغداء. ومعاً عادوا سيراً من الشاطئ، هي سارت برفقة ويليام بانكس في مؤخر الركب، وها هي منتا هناك، أمامهم، مع ثقبٍ في جوربها. كيف بدا وكأن ذاك الثقب الدائري من العقب الزهريّ يتباهى في وجوههم! كيف استهجنه ويليام بانكس، على قدر ما تذكر، دون أن ينطق حتّى بكلمة بشأنه! إذ عنى له فناء الأنوثة، القذارة والفوضى، مغادرة الخدم تاركين الأسرة غير مرتّبة حتّى الظهيرة - أشدّ ما يمقت في حياته. كان من طبيعته الارتعاش وبسط أصابعه كلما أراد أن

يصد عن عينيه منظراً بشع - مثلما رفع يديه الآن أمام وجهه. منتا مضت قدماً بعيداً عن ناظريهما ومن المحتمل أن بول التقى بها في الطريق وتوجها معاً نحو الحديقة.

آل رايلي، تفكّرت ليلي بريسكو، تعصر أنبوب اللون الأخضر. جمعت كلّ انطباعاتها عن آل رايلي. وها هي حياتهما تنجلي أمام عينيها في سلسلةٍ من المشاهد؛ إحداها، على السلم ساعة الفجر. بول قدم وتوجه إلى حجرة النوم باكراً؛ منتا ظلت متأخرة. وها هي منتا، مجعّدة، مصبَّغة، مبهرجة متوهجة على السلم الساعة الثالثة صباحاً. بول يخرج في بيجامته حاملاً في يده مسعراً خشية وجود لص. منتا تأكل شطيرة، شبه واقفة جانب النافذة، في الضياء الشاحب لشمس الصباح الباكر، على سجادة مثقوبة. لكن عمَّ يتحدثان؟ سألت ليلي نفسها، وكأنما بالنظر إليهما يتسنى لها سماعهما. منتا واصلت قضم شطيرتها، منزعجة، فيما أخذ هو يعنفها، يسيء إليها، في دمدمة كي لا يوقظ الأطفال، الولدين الصغيرين. هو ذاوٍ، مرهق؛ هي متوهجة، لا مبالية. فالأمور بينهما فلتت بعد عامهما الأول؛ وزواجهما استحال زواجاً فاشلاً.

وهذا، قالت ليلي في نفسها، تغمس فرشاتها في الطلاء الأخضر، ابتداع مشاهد كهذه، هذا ما ندعوه «معرفة» الناس، «التفكر» في الناس، «التعلق» بالناس! ولا كلمة حقيقية؛ هي اختلقت الأمر برمته؛ لكن يظل هذا ما تعرفه حقاً عنهما. ومضت تسبر غور النفق في طريقها نحو لوحتها، نحو الماضي.

مرةً سمعت بول يقول إنه «يلعب الشطرنج في بيوت القهوة». وبنت على قوله هذا صرحاً من خيال. تذكّرت، كيف أنها لدى سماعها إيّاه يقول هذا، تصوّرته يرن على الخادمة، فتجيبه، «السيدة رايلي في الخارج، سيدي»، فيقرّر أنه هو الآخر لن يأتي إلى البيت. رأته جالساً في زاوية مكانٍ كئيب حيث الدخان ملتصق بالمقاعد الفاخرة الحمر، حيث النادلات لا ريب يعرفنك، يلعب الشطرنج مع رجلٍ ضئيل يتاجر في الشاي ويقطن في سربتون، وهذا كلّ ما يعرفه بول عنه. وحتى لدى وصوله البيت منتا لم تكن بعد هناك ما أفضى إلى المشهد على السلم، عندما حمل المسعر خشية أن يجد لصّاً (ولا ريب كي يخيفها أيضاً) وتحدث معها بكل مرارة، قائلاً إنها دمرت حياته. وعلى أيّة حال حين مضت للالتقاء بهم في كوخٍ قرب ركمانزورث، الأجواء كانت متوترة على نحوٍ فظيع. بول اصطحبها إلى الحديقة كي يُريها الأرانب الوحشية البلجيكية التي يربّيها، ومنتا لحقت بهما، تغنّي، تطوّق كتفه بذراعها العارية، خشية أن يسرّ لها بأيّ شيء.

ليلي رأت أن منتا كانت ضجرة من الأرانب. لكن منتا ما كانت أبداً لتفضح نفسها. ما زلّ لسانها قطّ بكلامٍ شبيه بكلام لعب الشطرنج في بيوت القهوة. فهي أشدّ وعياً بكثير، أشد حذراً. لكن عوداً إلى قصتهما - فقد تجاوزا الآن المرحلة الخطرة من زواجهما. ولدى قضائها بعض الوقت لديهما في الصيف الماضي تعطّلت سيارتها وكان على منتا أن تناوله صندوق العدة. جلس هو على الطريق يصلّح السيارة، ورأت في النحو الذي ناولته فيه عدّته - مهنيّ، مباشر، وديّ - دليلاً على أن الأمور بينهما قد باتت على ما يرام. ما عادا «واقعين» في الحب؛ لا، فقد اتخذ له امرأة أخرى، امرأة جدّية، تجدل شعرها في ضفيرة وتمسك في يدها بحقيبة (منتا قد وصفتها في شعورٍ من الامتنان، بل وحتى الإعجاب)، تحضر الاجتماعات وتشارك بول آراءه (فمع الوقت باتا صريحين في علاقتهما أكثر وأكثر) عن قيمة الضريبة على الأراضي وضريبة الرساميل. كانا أبعد ما يكون عن فسخ زواجهما، كون هذا التحالف بينهما قد صحح مساره. وبات جليًّا لها أنهما أصبحا صديقين رائعين، فيما وقفت ترقبه يصلح سيارته ومنتا تناوله العدّة.

وهذه هي قصة آل رايلي، قالت ليلي في نفسها. وتصورت نفسها تسردها على السيدة رامزي، والتي كان سيحدوها الفضول الشديد إلى معرفة ما حلّ بآل رايلي. ولسردت على السيدة رامزي، في نبرةٍ يشوبها الانتصار، كيف آل زواجهما إلى فشلٍ ذريع.

عدا أنَّ الأموات، تفكَّرت ليلي، تواجه صعوبة في تصميم لوحتها ما دفعها إلى التريث والتفكر بروية، ترجع للوراء خطوة أو خطوتين، آه، الأموات! تمتمت، نشفق عليهم، ننفضهم عنًّا، وحتى أننا، في أحيانٍ، نزدريهم. هم في رحمتنا. السيدة رامزي قد تلاشت ومضت، قالت في نفسها. ولنا الآن أن ندوس على رغباتها، نحسّن من أفكارها العتيقة المحدودة. تنحسر عنا أبعد وأبعد. وبدت لها، على نحوٍ ساخر، كأنما تقف في نهاية رواق السنين تصيح قائلة، من بين كلّ الأمور المتنافرة، «تزوجي، تزوجي!» (تجلس منتصبة الظهر في بكرة الصباح فيما العصافير تزقزق خارجاً في الحديقة). ولكان لزاماً عليها وقتئذ أن تخبرها، بأن الأمور ما سارت على هواها. وهما سعيدان بالوضع الذي آلت إليه حياتهما؛ وأنا سعيدة بالوضع الذي آلت إليه حياتي. فالحياة قد تبدلت كليةً. وإذ بكيانها، وحتى جمالها، في لحظة، يستحيل عتيقاً مغبرّاً. وللحظة، وقفت ليلي هناك، الشمس الحارة على ظهرها، تستحضر آل رايلي، تعلن انتصارها على السيدة رامزي، من لن تعرف أبداً عن ذهاب بول إلى بيوت القهوة واتخاذه عشيقة؛ عن جلوسه على الأرض ومنتا تناوله عدته؛ عن وقوفها هنا ترسم، وما تزوجت قط، حتّى من ويليام بانكس.

السيدة رامزي قد خطّطت للأمر. ولربّما، لو عاشت عمراً أطول، لفرضته عليها. فمذ ذاك الصيف بدأت تصفه بـ «أطيب الرجال». «في طليعة علماء جيله، كذا يصفه زوجي». ووصفته أيضاً بـ «ويليام المسكين - كم يحزنني، متى ما ذهبت لزيارته، أن لا أعثر على شيءٍ لطيف في بيته - لا أحد ينسّق له الأزهار». وهكذا أخذت ترسلهما في نُزهٍ معاً، وقالت لها، في تلك النبرة التي تشوبها مسحة الجهل التي تنسلّ بها السيدة رامزي إلى دخيلة سامعها، بأنها تملك عقلاً علميّاً؛ وتهوى الأزهار؛ ودقيقة في كلامها. وما هوسها هذا بالزواج؟ تساءلت ليلي، تدنو وتبتعد عن حاملها.

(وفجأة، مثل نجمةٍ انسلت فجأة في السماء، قبسٌ أحمرُ توهّج متّقداً في ذهنها، وهجه يكتسي بول رايلي، ينبثق من بول رايلي. يتصاعد منه كما لهب النار المشتعلة في قربانٍ حرَقهُ همجيّون احتفالاً على شاطئٍ ناءٍ. سمعت الهدير والقرقعة. رأت البحر بأسره، على أميالٍ وأميال، يستحيل أحمر ذهبيّاً. رائحة نبيذية اختلطت به وانتشت عليها، إذ اجتاحتها كرّةً أخرى تلك الرغبة المتهورة برمي نفسها عن الجرف والغرق بحثاً عن مشبكٍ لؤلؤي ضاع على شاطئ. والهدير والقرقعة نفَّراها وأثارا فيها الخوف والقرف، وكأنما بوقوفها تتأمل عظمته وقوته رأت فيه أيضاً كيف يقتات على ثروة البيت، نهماً، جشعاً، مقرفاً، فعافته. لكن يظل مرآه عظيماً، يتجاوز كلّ ما اختبرته في حياتها، وما انفكّ يحترق عاماً بعد عام مثل إشارة نارية على جزيرة صحراوية على طرفٍ ناءٍ من البحر، ويكفي المرء أن يقول «واقعٌ في الحب» وفوراً، كما حدث التو، تعود نار بول وتشتعل. وها هي النار غرقت وقالت في نفسها، ضاحكة، «آل رايلي»؛ وكيف يقضي بول وقته في بيوت القهوة يلعب الشطرنج).

بالكاد فلتت بجلدها من مصيرٍ كهذا. إذ تأملت مفرش الطاولة، وخطر لها أنها ستحرك الشجرة أبعد نحو الوسط، ولا حاجة بها أبداً للزواج من أحد، واعترتها إذ ذاك نشوةٌ عظيمة. وانتابها إحساس، الآن وقد بات بمقدورها الوقوف في وجه السيدة رامزي - بالإجلال للسلطة المذهلة التي فرضتها على المرء. كان يكفيها أن تقول، افعل هذا، وسيلبي المرء رغبتها. حتّى ظِلُّها عند النافذة برفقة جيمس كان مفعماً بالنفوذ. تذكرت صدمة ويليام بانكس من تجاهلها دلالة الأم وطفلها. أتراها ليست معجبة بجمالهما؟ سألها. لكن ويليام، تذكرت، قد أنصت إليها بعينيه الطفوليّتين الحكيمتين لدى شرحها له أن المسألة ليست عدم توقيرٍ منها: بل أن الضوء هناك استلزم ظلاً وهكذا. ما كان في نيتها الحطّ من قدر موضوع، وهما متّفقان في ذلك، قد تناوله رافاييل من منظورٍ إلهي. هي ليست

بشكاكة متشائمة. بل العكس. وبفضل عقله العلمي فقد تفهّم - دلالة الذكاء المتجرد الذي أسعدها وأراحها إلى حدٍ كبير. وبذا بات في مقدورها الحديث بجدية عن الرسم مع رجل. صدقاً، صداقته هي إحدى المتع في حياتها. هي أحبت ويليام بانكس.

ذهبا إلى هامبتون كورت حيث اعتاد، كونه الرجل النبيل المثالي، أن يفسح لها كلّ الوقت اللازم كي تغسل يديها، بينما يتمشى بمحاذاة النهر. كان تصرفاً نموذجياً في علاقتهما. فأشياء كثيرة بينهما تركت دون أن تقال. وكانا سيمضيان للتنزّه في الأفنية، يتأمّلان بإعجاب، صيفاً تلو صيف، التناسب والأزهار، وكان سيتحدّث معها في مواضيع عدة، عن المنظور، عن العمارة، فيما يتنزّهان، وكان سيتوقف كي يتأمل شجرة، أو الإطلالة على البحيرة، أو يُظهر إعجابه بطفل (ندمه العظيم - أنه لم يُرزق بابنة) على ذاك النحو المتحفظ المبهم والطبيعي في رجلٍ قضى معظم سنيّ حياته في المختبرات فما أن غادرها وإذا بمرأى العالم يبهر بصره، وبات لزاماً عليه أن يتمهّل في خطاه، يرفع يده كي يحجب عن عينيه الضوء الساطع ويتوقّف، رأسه مرميٌّ للخلف، فقط كي يلتقط نفسه. من ثم كان سيخبرها أنّ مدبّرة منزله في عطلة؛ أنّ عليه شراء سجادة جديدة للسلّم. علَّها ترغب في الذهاب برفقته لدى شرائه السجادة الجديدة. ومرةً أفضى بهما الحديث إلى الكلام عن آل رامزي فوصف لها، كيف حينما رآها للمرة الأولى، كانت تعتمر قبّعة رمادية؛ عمرها ما تجاوز وقتئذ التاسعة عشرة أو العشرين. كانت جميلة تخطف الألباب. ووقف يرنو بنظره إلى نهاية الدرب المشجر في هامبتون كورت وكأنما رآها واقفة بين النوافير هناك.

وها هي تقف الآن ترنو إلى مرقاة حجرة الاستقبال. وأبصرت، عبر عيني ويليام، شكل امرأة، مسالمة وصامتة، منكسة الرأس. جلست تتأمّل، تتفكَّر (تصوّرتها ليلي في ثوبها الرمادي ذاك اليوم). عينها لا بُدّ كانت كسيرة. وما كانت أبداً لترفعها. أجل، قالت ليلي في نفسها، تنظر في تركيز، لا بُدّ أني رأيتها تبدو هكذا، لكنها ما ارتدت الرمادي؛ وما كانت ساكنة إلى هذا الحد، ولا شابّة، ولا مسالمة. فصورتها هذه هي الصورة المتوقعة منها. هي جميلة تخطف الألباب، كما وصفها ويليام. عدا أنَّ الجمال ليس بكل شيء. والجمال له ضريبته - إذ يأتي في قالب جاهز، على نحو مثالي. فيوقف الزمن - يجمّد الحياة. فينسى المرء تلك الارتعاشات الصغيرة؛ فورة الدم، الشحوب، تشوّهٌ شاذٌّ ما، ضوءٌ ما أو ظلّ، والذي يصيّر الوجه للَحظة مجهولاً ومن ثم يُسبغ عليه ميزةً سيراها المرء فيه للأبد. لكنه من الأسهل بكثير صقل كلّ تلك الملامح تحت غطاء الجمال. لكن يا ترى ما الملامح التي كانت تعتريها، تساءلت ليلي في نفسها، متى ما دسّت رأسها بسرعة في قبّعة

صيادي الغزلان، أو هرعت راكضة على العشب، أو وبّخت كينيدي البستاني؟ من له أن يخبرها؟ من له أن يمد لها يد العون؟

ورغماً عن إرادتها وجدت نفسها تطفو إلى السطح، تتدلى خارج لوحتها، تنظر، مشدوهة، وكأنما تنظر نحو أشياء غير حقيقية، صوب السيد كارمايكل. كان مستلقياً على كرسيه، يداه متشابكتان على كرشه، ما كان يقرأ وما كان نائماً، إنما يتشمّس مثل مخلوقٍ متخم بالوجود. كتابه كان قد هوى على العشب.

راودتها الرغبة في الذهاب مباشرةً إليه «سيد كارمايكل!» فيرفع رأسه وينظر إليها بتلك النظرة العذبة المألوفة، من عينيه الضبابيتين المبهمتين الخضراوين. لكنك لا توقظ امرأً من نومه إن كنت جاهلاً لما ستقوله له. وما أرادت قوله ليس بشيءٍ واحد، بل كلّ شيء. لكن الكلمات الصغيرة التي تفكك الفكرة وتمزق أوصالها لا تعبر عن شيء. «عن الحياة، عن الموت؛ عن السيدة رامزي» - لا، قالت في نفسها، لا يسع المرء قول أي شيء لأي أحد. فإلحاح اللحظة يضيع الهدف. الكلمات ترفرف مهتاجة فتنحرف عن مسارها وتخطئ الهدف ببوصات أدناه. من ثم يستسلم المرء؛ والفكرة تعود تغرق من جديد؛ من ثم يغدو مثله مثل معظم الناس في منتصف العمر، حذراً، مسترقاً، مع تجاعيد بين عينيه، تعلوه نظرة الإدراك الأبدي. إذ كيف للمرء أن يعبّر بالكلمات عن عواطف الجسد؟ أن يعبّر عن الخواء فيه؟ (تتأمل درجات مرقاة حجرة الاستقبال؛ كم تبدو خاوية إلى حدٍّ مهول) فهذه مشاعر الجسد، لا العقل. وإذا بهذه الأحاسيس الجسدية التي اعترتها على المرأى الخاوي للدرجات تغدو بغيضة جداً. أن ترغب ولا تحظى بما ترغب فيه، أثار في جسدها بأسره إحساساً عارماً من القسوة، الخواء، الإجهاد. أن ترغب ولا تحظى بما ترغب فيه - أن ترغب وترغب - كيف لألمٍ كهذا أن يعصر قلبك، يعصره المرّة تلو المرة! آه سيدة رامزي! صاحت تناديها في صمت، تنادي ذاك الوجود الجالس جوار القارب، الجوهر المخلوق منها، تلك المرأة في الرماديّ، وكأنما تعنّفها لرحيلها، ومن بعد رحيلها، لعودتها مرةً أخرى. إذ بدا ملاذاً آمناً، التفكر فيها. شبحاً، هواءً، لا شيء، شيءٌ لك أن تلهو به بسهولة وأمان في أيّ وقت ليلاً أم نهار، هي هكذا لهت بها، من ثم بغتة رفعت يدها وعصرت قلبها. فجأة، درجات حجرة الاستقبال الخاوية، هدب الكرسي داخلاً، الجرو يتقلب على المصطبة، تَمَوُّج الحديقة وهمسها، كلها غدت انحناءات أرابسكيّة تزخرف قلب الخواء التام.

«وما المغزى؟ كيف لك أن تفسر كلّ هذا؟» أرادت أن تسأل، تستدير مرة أخرى نحو السيد كارمايكل. إذ بدا لها وكأنّ العالم بأسره قد ذاب ساعة الصباح الباكر في بركة فكرية، في حوضٍ عميق من الواقعية، ولكان لأي امرئٍ أن يتصوّر لو أن السيد كارمايكل نطق بكلمة، فدمعةٌ ستسيل وتصدّع سطح البركة. ومن بعد؟ من بعد شيءٌ ما سينبثق. يدٌ ستندفع، سيفٌ سيلمع. بالطبع كلّ ما تصورته هراء.

وإذ بانطباع غريب يراودها، بأن السيد كارمايكل قد أنصت حقّاً إلى كلّ ما لم يسعها النطق به. فهو رجلٌ مسنٌّ غامض، مع بقعة صفراء على لحيته، ومع قصائده، وألغازه، يبحر صافي الذهن عبر العالم الذي لبى كلّ رغباته، حدّاً يكفيه أن يضع يده على المرجة حيث يستلقي وسيصطاد تماماً ما يشتهي. وعادت تنظر نحو لوحتها. وكانت هذه إجابته ـ حسب ظنها ـ كيف أنَّ «أنت» و«أنا» و«هي» نعبر ونفنى؛ لا شيء منّا سيبقى؛ والكل سيتبدّل؛ الكل خلا الكلمات، خلا اللوحات. غير أنَّ لوحتها ستُعلق في العليّة، قالت في نفسها؛ ستُطوى وتُدسّ أسفل أريكة؛ ومع ذلك، مع ذلك، حتّى مع لوحة كهذه، فإن ما قاله صحيح. ولعل للمرء أن يقول هذا حتّى عن خربشة كهذه، التي ما اكتملت بعد إلى اللوحة في ذهنها، غير أنها صبَت نحوها، وهذا من شأنه «أن يبقى إلى الأبد»، هكذا كانت ستعبر عن رأيها، أو، لأن الكلمات المنطوقة في خلدها بدت متبجحة، كانت ستلمح إلى رأيها هذا، بلا كلمات؛ وفيما وقفت تنظر نحو اللوحة، وجدت نفسها فجأة غير قادرة على رؤيتها. فعيناها اغرورقتا بسائلٍ حار (لم تظنه دمعاً للوهلة الأولى) والذي دون أن يقلق ثبات شفتيها، أفعم الأجواء، وسال على وجنتيها. هي تملك سيطرة تامة على نفسها ـ أوه، أجل! ـ وعلى كلّ منحىً آخر في حياتها. أتراها تبكي لأجل السيدة رامزي، غير واعية لإحساس التعاسة فيها؟ عادت ووجّهت سؤالها إلى السيد كارمايكل. إذن علام بكاؤها؟ وما المغزى؟ هل للأشياء أن تُلقي بأيديها في الهواء وتقبض على شخص؛ هل للسيف أن يقطع؛ هل للقبضة أن تمسك؟ أليس هناك من أمان؟ ألا يتعلم المرء في قلبه سبل الحياة؟ ما من دليل، ما من ملاذ، لا شيء سوى معجزة، الوثب من قمّة برج مستدق نحو العدم؟ أترى يعقل، أن حتّى في عين الكهول من الناس، هي هذه حقيقة الحياة؟ ـ مروّعة، غير متوقعة، مجهولة؟ للحظة شعرت بأنهما إن نهضا، ههنا، الآن، على المرجة، يطالبان بتفسير، لماذا هي قصيرة، لماذا هي غير مفهومة، يطالبان صارخين في هتافٍ عنيف، ككائنين بشريين مهيّئين بالكامل ويحقّ لهما ألّا يُحجب عنهما أيّ شيء، فالجمال سيتجلّى؛ الفضاء سيمتلئ؛ وتلك الزخارف الخاوية ستتجسّد في هيئة؛ وإن صرخا بأعلى صوتيهما فستعود إليهما السيدة رامزي.

«السيدة رامزي!» صاحت صارخة، «السيدة رامزي!» والدمع سال على وجنتيها.

الفصل السابع

{ابن مكاليستر تناول سمكة من السمكات واقتطع مربعاً من جنبها كي يعلّقه طعماً في خطافه. الجسد المشوّه (لمَّا يزل حيّاً) أُلقيَ في البحر.}

الفصل الثامن

«السيدة رامزي!» صرخت ليلي، «السيدة رامزي!» لكن لا شيء حدث. الألم استفحل. وتفكَّرت، كيف من شأن ألمٍ مبرح كهذا أن يقلص المرء إلى هذا الحدِّ من البلاهة. على أيّة حال، الرجل المسنّ لم يسمعها. ظلَّ على وجوده العطوف، الهادئ - وإن اختار المرء أن يصفه بهذا - السامي. حمداً للسماء، لا أحد سمعها تصرخ صرختها المخزية هذه، كُفَّ أيها الألم، كفَّ عنّي! هي بالتأكيد لم تفقد عقلها. وما من أحدٍ رآها تقفز عن حافة لوح الخشب وتهوي في بحور الفناء. ظلت كما هي، عانساً كهلة هزيلة، يدها تقبض على فرشاة.

وها إنّ ألم الاحتياج، مرارة الغضب (أن تستدعيها، لحظة ظنّت أنها لن تشعر أبداً بالأسى على السيدة رامزي. أتراها افتقدت وجودها بين فناجين القهوة هذا الصباح؟ ولا حتّى مثقال ذرة) أخذ يخبو؛ ومن الألم والمرارة تبقَّى ترياق، إحساسٌ من الارتياح هو في ذاته بلسمٌ لها، كذلك تبقى، وإن على نحوٍ غامض، إحساسٌ بوجود شخصٍ آخر، بالسيدة رامزي وقد ارتاحت للحظة من نير الثقل الذي وضعه العالم على كاهلها، تقف خفيفةً رشيقة إلى جوارها ومن ثم (فهذه السيدة رامزي في أوج جمالها) رفعت إلى جبينها إكليلاً من الزهر الأبيض ومضت معتمرةً إياه. ليلي عادت تعصر أنابيب ألوانها. وبشراسة واجهت مشكلة الوشيع. بدا غريباً لها كيف تراها جلية أمام عينيها، تقطع الحقول في خطاها السريعة المألوفة، وبين الطيات الأرجوانية الناعمة، بين زهور الياقوتية والزنبق، تضمحل وتتلاشى. هي الخدعة التي تلعبها عين الفنان. إذ بعد أيام من سماعها خبر وفاتها رأتها أيضاً على هذه الصورة، تعتمر إكليل زهرها وتمضي بلا أي تردّد صحبة رفيقها، صحبة ظلٍّ يقطع الحقول. المشهد، العبارة، يمتلكان القدرة على المواساة. وحيثما ترسم، هنا، في الريف، أو في لندن، تعاودها الرؤيا، وعيناها، نصف مغمضتين، تبحثان عن شيء تقيم عليه رؤياها. تتأمل عربة القطار، الباص؛ تختلس خطّ كتف أو خطّ وجنة؛ تتأمل النوافذ المقابلة؛ تتأمل بيكاديلي، بأنوارها المعلقة في الأماسي. كلها باتت حقلاً من حقول الموت. لكن شيئاً ما انفكّ على الدوام - لعلّه وجه، صوت، الصبيّ موزع الجرائد يصيح بأعلى صوته **أخبار اليوم** - يخترقها، يزجرها، يوقظها،

مطالباً إياها بأن تُعيره الانتباه، وحتماً كان سيحصل عليه، وبذا توجب على الرؤيا أن تعيد أبداً خلق ذاتها من جديد. وها هي مرة أخرى، متأثرة باحتياج غريزي إلى النأي والزرقة، تلتفت وتتأمل الجون أسفلها، تخلق من شرائط الموج الأزرق أكمات، ومن المساحات الأرجوانية حقولاً صخرية، ومرةً أخرى أيقظها الشيء المتنافر في الصورة. بقعة بنية وسط الجون. قارب. أجل، أدركت هذا بعد ثانية. لكن قارب من؟ قارب السيد رامزي، أجابت نفسها. السيد رامزي؛ الرجل الذي تجاوزها في خطىً عسكرية، رافعاً يده لها في تحية، متحفّظاً، يتقدّم الموكب، في جزمته الجميلة، سائلاً إيّاها عطفها، والذي ضنّت به عليه. القارب يقطع طريقه إلى وسط الجون.

ويا له من صباحٍ صافٍ عدا عن رياح عابرة هنا وهناك، بدت فيه السماء هي والبحر نسيجاً واحداً، كأنما الأشرعة منتصبة في أعالي السماء، أو السحب انحدرت بين الأمواج. وفي أقاصي البحر، باخرة أطلقت في الهواء لفيفة عظيمة من دخان ظلّت مرسومة هناك، تنثني زخارف من دوائر ومنحنيات، وكأنما الهواء شاشٌ رقيق يمسك بالأشياء ويحفظها برقّة في شباكه، يؤرجحها بحنان في هذا الاتجاه وذاك. وكما يحدث أحياناً متى ما استحال الطقس صافياً جدّاً، تبدى للرائي وكأنما الجروف تعي وجود البواخر، والبواخر تعي وجود الجروف، وكلٌّ يبعث برسائل للآخر. وإن وقف الرائي قريباً جداً من الساحل، ستتبدّى له المنارة في سديم هذا الصباح بعيدةً نائية.

«وأين هم الآن؟» سألت ليلي نفسها، ترنو نحو البحر. وأين هو الآن؟ ذاك الرجل المسنّ جداً الذي تجاوزها في صمت، حاملاً تحت ذراعه رزمة بنّية؟ القارب بلغ وسط الجون.

الفصل التاسع

لا يشعرون بشيء هناك، قالت كام في نفسها، تتأمّل الساحل، والذي، في علوّه وهبوطه، بات أبعد وأكثر سكينة. يدُها تشقّ أثراً في البحر، عقلها يخلق من الخطوط والدوامات الخضر نقوشاً، يهيم خدِراً مُكفَّناً في الخيال، في عالم البحر السفلي حيث عناقيد اللؤلؤ تلتصق بالرذاذ الأبيض، حيث في الضوء الأخضر تبدّلٌ يغمر عقلَ المرء بالكامل والجسدُ يشعُّ نصف شفاف مُدثَّراً بعباءةٍ خضراء.

وإذ بالدوّامة حول يدها تتراخى، اندفاع التيار يهمد؛ والعالم بات مفعماً بأصوات الصَّرير والصَّريف. للمرء أن يسمع تكسر الأمواج وصفعها جنبات القارب وكأنما رسوا التو في مرفأ. كلّ شيءٍ بات أقرب وأقرب. إذ الشراع، والذي أبقى جيمس عينيه مسمرتين عليه إلى أن بدا له كما شخصٍ يعرفه، قد ارتخى كليةً؛ وها هم قد توقفوا، القارب يرفرف على سطح الماء في انتظار هبوب الريح، تحت الشمس الحارة، على بعد أميال من الساحل، على بعد أميال من المنارة. كلّ شيءٍ في العالم وقف ساكناً. المنارة ثابتة لا تتزحزح، وخط الساحل البعيد أضحى راسخاً. الشمس اشتدت حرارتها وكلٌّ بدا يلتصق بالآخر يستشعر وجوده بعد غفلته عنه. قصبة مكاليستر غرقت في البحر. لكن السيد رامزي واصل القراءة، ساقاه ملتفّتان أسفله.

كان يقرأ من كتاب صغير لامع غلافه مرقّش مثل بيضة زقزاق. وبين الآن والآخر، فيما هم عالقون في هذا السكون الرهيب، يقلب صفحة. وفي كلّ قلبة رأى جيمس إيماءة خاصة موجهة إليه؛ الآن جازمة؛ الآن آمرة؛ الآن بنيّة استدرار عطف الناس عليه؛ وطوال ذاك الوقت، بينما أبوه يقرأ ويقلّب الصفحات، الصفحة الصغيرة تلو الصفحة، ظلَّ جيمس متهيّباً اللحظة التي سيرفع فيها أبوه رأسه ويتحدّث إليه بحدّة عن شيءٍ أو آخر. ما بالهم متلكِّئون هنا؟ سيسألهم ملحّاً، أو ما شابه من أسئلة لا معقولة. وإن فعلها وسأل، قال جيمس في نفسه، سأتناول سكيناً وأطعنه في قلبه.

لطالما أبقى في دخيلته على هذه الصورة الرمزية القديمة، تناوله السكين وطعن أبيه في قلبه. عدا أنَّ الآن، وقد كبر، يجلس محدّقاً في أبيه، في غضبٍ عقيم، فليس بهذا، هذا المسنّ الذي يقرأ،

من يريد قتله، بل ذاك الشيء الذي يهبط عليه - ولربّما حتّى دون وعيٍ منه: ذاك الخطّاف الوحشيّ أسود الجناحين، الذي يهبط فجأة، بمخالبه ومنقاره، كلها باردة صلبة، فيطعنك الطعنة تلو الطعنة (وها هو يشعر بالمنقار على ساقيه العاريتين، حيث طعنه في الماضي وقتما كان طفلاً) ومن ثم ينصرف، تاركاً إياه مرةً أخرى، رجلاً مسنّاً، رجلاً مهموماً، يقرأ كتابه. ذاك من سيقتل، ذاك من سيطعن في قلبه. وأياً يكن ما يفعل - (إذ قد يقوم بأي شيء، قال في نفسه، يتأمل المنارة والساحل النائي) قد يكون تاجراً، مصرفياً، محامياً، مديراً على رأس مؤسسة، فذاك من سيقاتل، ذاك من سيلاحق ويسحق - الطغيان، الاستبداد، إذ بهذا يدعوه - إجبار الناس على فعل ما لا يشاؤون، انتزاع حقّهم بالكلام. إذ كيف كان لأحدهما أن يقول، لا، لست بذاهب، ردّاً على قوله، **نحن ذاهبون إلى المنارة**. افعل هذا. اجلب لي ذاك. الجناحان الأسودان ينبسطان، المنقار الصلب يمزّق. وفي اللحظة التالية، ها هو ذا جالسٌ يقرأ كتابه؛ ولعله قد يرفع رأسه - إذ لا أحد بوسعه أن يتنبّأ - ويتصرف بعقلانية. قد يتبادل الحديث مع مكاليستر وابنه. قد يدس جنيهاً ذهبيّاً في يد امرأة عجوز تتجمد برداً في الشارع، ولربّما سيهتف عالياً على مرأى مباراة على متن سفينة صيد؛ ولعله سيلوّح بذراعيه متحمّساً في الهواء. أو لعلّه سيجلس على رأس مائدة عشاء يخيّم عليها من الطرف للطرف صمتٌ رهيب. أجل، قال جيمس في نفسه، فيما القارب تصفعه الأمواج متوانياً تحت الشمس الحارة؛ هناك قفرٌ من ثلجٍ وصخور مهجورٌ وعارٍ من كلّ شيء؛ وانتابه الإحساس، إحساسٌ ما انفكّ يراوده مؤخراً، متى ما قال أبوه شيئاً أو فعل شيئاً فاجأ به الآخرين، بأن هناك على ذاك القفر أثر زوجين من الأقدام وحسب؛ أثره وأثر أبيه. هما وحسب من يفهم أحدهما الآخر. فعلام إذن هذا الذعر، هذه الكراهية؟ عاد وقلَّب الأوراق الكثيرة التي طواها الماضي فيه، يُنعم النظر في قلب تلك الغابة حيث الضوء والظل متماهيان في بعضهما البعض فيحرّفان الأشكال كلها، فيتخبّط المرء، الآن الشمس في عينيه، الآن ظلٌّ معتمٌ، في سعيه بحثًا عن صورة تهدّئ وتفصّل وتقولب مشاعره في شكلٍ متماسك ملموس. فرضاً وقتئذ حين كان طفلاً عاجزاً في عربة أطفال، أو جالساً على ركبة شخصٍ ما، رأى عربة تسحق قدم أحدهم، ببراءة عن غير عمد؟ فرضاً رأى القدم أولاً، في العشب، ناعمة، مكتملة؛ من ثم العجلة؛ من ثم القدم ذاتها، أرجوانية، مسحوقة. عدا أنَّ العجلة بريئة. وبذا حين مشى أبوه متهادياً في الرواق يطرق الأبواب في بكرة الصباح كي يذهبوا إلى المنارة فالعجلة دهست قدمه، دهست قدم كام، دهست كلّ قدمٍ في طريقها. وما كان بوسع المرء إلا أن يجلس ويشاهد.

لكن يا تُرى قدمُ من كانت، وفي أيّة حديقة حدث كلّ هذا؟ فمشاهد كهذه لها إطارٌ وخلفية في الذاكرة؛ الأشجار التي نمت فيها؛ الأزهار؛ شعاعة ضوء؛ شخوصٌ وأشياء. كلّ شيء بدا وكأنما ينصّب نفسه في حديقة لا أثر فيها لهذه الكآبة. لا شيء من تلويح الأيدي هذا في الهواء؛ الناس تحادثوا في نبرة صوتٍ اعتيادية. داخلين خارجين على مرِّ اليوم. امرأة عجوز تثرثر في المطبخ؛ الستائر يتنشّقها النسيم ويزفرها؛ كلّ شيءٍ يرفرف مع الريح؛ كلّ شيءٍ ينمو؛ وأعلى كلّ تلك الأطباق والزبديّات والأزهار الصفر الحمر الطويلة المسلولة ينسدل حجابٌ أصفر رقيقٌ جداً، أشبه بورقة كرمة، في الليل. الأشياء تنزع إلى السكون والعتمة في الليل. لكن حجاب ورقة الكرمة رقيقٌ جداً، حدَّ تحمله الأضواء، حدَّ تجعّده الأصوات؛ وعبر الحجاب لهُ أن يرى هيئة شخصٍ ينقضّ، يسمعه قادماً، مبتعداً، حفيف فستان، رنين سلسلة.

ذاك هو العالم الذي دهست فيه العجلة قدم شخصٍ ما. شيءٌ ما، تذكَّر، ظلَّ ملوّحاً في الهواء، شيءٌ مجدبٌ وحادّ هبط عليهم، كما النصل، كما السيف المعقوف، يسدد ضرباته عبر الأوراق والأزهار حتّى في ذاك العالم السعيد إلى أن ذبل على يده وانهار.

«ستمطر»، تذكّر أباه يقول له. «لن يسعك الذهاب إلى المنارة».

حينذاك كانت المنارة برجاً فضيّاً، ضبابيّاً، بعينٍ صفراء، تفتح فجأة، وبرفقٍ في المساء. أمّا الآن -

تأمّل جيمس المنارة. كان له أن يرى الصخور البيض حيث تتكسر الأمواج؛ البرج، منتصباً موحشاً؛ مُخطَّطاً بالأسود والأبيض؛ كان له أن يرى النوافذ؛ ورأى حتّى ملابس الغسيل منشورة على الصخور كي تجفّ. إذن هذه هي المنارة، هذه؟

لا، فالأخرى كذلك هي المنارة. إذ لا شيء ببساطة هو شيءٌ واحدٌ بعينه. فالمنارة الأخرى أيضاً حقيقية. شيءٌ بالكاد يُرَى عبر الجون. في المساء يرفع المرء ناظريه فيرى تلك العين تُفتح وتغمُض فيبدو وكأنما ضوؤها يرتحل إليهم عبر تلك الحديقة المشمسة الطلقة حيث هم جالسون.

غير أنّه عاد واستجمع نفسه. إذ كلما قال في نفسه «هم» أو «أحدهم» وتناهى إليه حفيفُ شخصٍ آت، رنين شخصٍ مبتعد، أضحى حساساً جداً لأيّ وجودٍ في الغرفة. وأبوه هو الموجود الآن. والتوتر على أشده. إذ في أيّة لحظة متى ما همد النسيم، سيصفق أبوه دفتي كتابه، قائلاً: «ما

الذي يجري الآن؟ وعلام نحن متلكّئون هنا، إيه؟» مثلما فعل مرة، حين هوى بنصل سيفه عليهم في المصطبة وتصلّب جسدها بالكامل، ولو كان من فأس، أو سكين، أو أي شيء مستدق حاد الطرف، لتناوله وطعن أباه في قلبه. جسدها تصلب بالكامل، من ثم، ذراعها ارتخت، وشعر بأنها ما عادت تُصغي إليه، نهضت على نحوٍ ما وارتحلت بعيداً عنه تاركةً إياه خلفها، عقيماً، سخيفاً، جالساً على الأرض قابضاً على مقصّ.

ولا هبّة نسيم في الهواء. المياه تخرّ وتقرقر أسفل القارب حيث ثلاث أو أربع سمكات أسقمريات تصفق ذيولها في بركة ليست عميقة كفاية كي تغطيهن. وفي أي لحظة السيد رامزي (نادراً ما جرؤ على النظر إليه) قد ينهض، يصفق كتابه، ويتفوه بشيءٍ قاسٍ؛ لكنه ما زال يقرأ، وبذا، خلسة، وكأنما ينسلّ أسفل السلم حافي القدمين، خائفاً من إيقاظ كلب الحراسة على صرير لوح، مضى يتفكر مستغرقاً في هيئتها، كيف كانت، وإلام ذهبت تاركةً إيّاه ذاك النهار؟ بدأ يتتبّع خطاها من حجرة إلى حجرة إلى أن وصلا في النهاية إلى حجرة يعمّها ضوءٌ أزرق، كأنما يشعُّ منعكساً عن أطباق آنية الصيني الكثيرة، حيث تكلمت مع شخصٍ ما؛ وأنصت إليها تتكلم. كانت تتكلم مع خادمة، ببساطة تنطق بما يدور في خلدها. هي وحدها من كانت تنطق بالحقيقة؛ وإليها وحدها كان له أن يسرّ بالحقيقة. وهذا هو سر انجذابه الأبديّ لها، ربّما؛ كونها شخصاً يتسنى لأي امرئٍ أن يفصح له عما يجول في خاطره. عدا أنه طوال تفكره بها، كان واعياً أيضاً لأبيه يتقفّى أثر أفكاره، يتفحّصها، فترتعش وتتداعى. لذا في النهاية كفَّ عن التفكر بها.

وها هو ذا جالسٌ هناك، يده على ذراع الدفة، في وهج الشمس، يحدّق في المنارة، عاجزاً عن إبداء أيّة حركة، عاجزاً عن نفض غبار البؤس الذي ترسّب في عقله حبّةً حبة. بدا كأنما حبلٌ يشدّ وثاقه، وأبوه من طوقه به والسبيل الوحيد أمامه للفرار هو في تناوله سكيناً وغمده في... غير أنَّ الشراع تمايل اللحظة على مهل، امتلأ على مهل، والقارب انتفض، يتحرك مثلما السائر في منامه، من ثم استيقظ وانطلق عبر الموج. ويا له من ارتياحٍ عظيم. بدا وكأنما كلّ عاد وانفصل عن الآخر واستكان مرتاحاً إلى زاويته، وقصبات صيد السمك انحدرت مشدودة من على جانب القارب. غير أنَّ أباه ما نهض. هو وحسب رفع يده اليمنى على نحوٍ مبهم عالياً في الهواء، من ثم تركها تهوي من جديد على ركبته كأنما كان يقود سمفونية سرية.

الفصل العاشر

{البحر بلا بقعةٍ عليه، دار في خلد ليلي بريسكو، لمّا تزل واقفة تتأمل الجون. البحر يمتدّ أمام ناظريها كما الحرير. يا لها من قوّةٍ عظيمة يمتلكها البُعْد؛ فقد ابتلعهم في جوفه، وإحساسٌ ساورها بأنهم قد رحلوا إلى الأبد، وبرحيلهم باتوا جزءاً من طبيعة الأشياء. اليوم جدّ صافٍ، جدّ هادئ. الباخرة ذاتها تلاشت، لكن لفافة الدخان العظيمة لمّا تزل عالقة في الهواء، تتدلى كما علمٍ حداديّ ساعة الوداع.}

الفصل الحادي عشر

إذن هكذا تبدو الجزيرة، قالت كام في نفسها، تشقّ الموج مرةً أخرى بأصابعها. إذ ما سبق لها قطّ أن رأت الجزيرة من عرض البحر. مستلقية هكذا على البحر، مع انبعاجٍ في الوسط وقطاطَين[7] اثنين حادّين، والبحر ينجرف عنها، ويمتدّ لأميال وأميال عن كلّ جانب من جانبيها. صغيرةٌ جداً؛ أشبه بورقة شجر منكمشة على ذاتها. وهكذا ركبنا على متن قاربٍ صغير، قالت في نفسها، تسرد على نفسها حكاية، مغامرة هروب من سفينة غارقة. لكن مع البحر يندفق عبر أصابعها، عسالج الطحالب تتلاشى خلفها، فرغبتها بسرد قصّة على نفسها ما كانت برغبة جديّة؛ الإحساس بخوض مغامرة، حماسة الهروب، هو هذا ما ترغب فيه، إذ تفكّرت مستغرقة، فيما القارب يبحر، كيف لغضب أبيها بشأن جهات البوصلة، عناد جيمس بشأن القتال، والكرب الذي يعتريها، أن انسلّ كله، مضى كله، انجرف كله مع التيار. فما التالي إذن؟ إلى أين هم متّجهون؟ من يدها المتجمدة، الخائضة عميقاً في البحر، انبجست عينٌ من البهجة إثر التغيير، إثر الهروب، إثر المغامرة (كونها على قيد الحياة، كونها هناك). والقطرات المتناثرة من عين البهجة العفوية الفجاءة تساقطت في الظلمة، على الأشكال الخاملة في ذهنها؛ أشكالٌ من عالمٍ لم يُدرَك بعد بيد أنها تتقلّب في ظلمتها، تلتقط شرارة ضوء من هنا وهناك؛ اليونان، روما، القسطنطينية. فبقدر ما هي صغيرة، أشبه بورقة شجر منكمشة على ذاتها، مع رذاذ ماءٍ ذهبي ينساب فيها ويندفق من حولها، فحتى تلك الجزيرة الصغيرة لها موقعها في هذا الكون - أليس كذلك؟ لأجابها الرجال الكبار في المكتب. إذ اعتادت الشرود من الحديقة إلى المكتب عمداً كي تلحق بنقاشهم. إذ هناك تجدهم (أحياناً السيد كارمايكل وأحياناً السيد بانكس برفقة أبيها) جالسين قبالة بعضهما في مقعديهما الخفيضين. وستجدهما يطقطقان صفحات التايمز أمامهما، متى ما أتت من الحديقة في مظهرها الفوضوي، عن شيءٍ ما تفوّه به أحدهم عن المسيح، أو سماعهما بخبر التنقيب عن ماموث في شارع من شوارع لندن، أو متسائلين عما كان عليه حقيقةً نابليون. من ثم يتناولان كلّ هذا بأيديهما النظيفة (لطالما رأتهم في ملابس رمادية؛ تفوح منهم رائحة الخلنج) يجمعان القصاصات، يقلّبان الصحيفة، يضعان

ساقاً على ساق، وبين الآن والآخر يتكلّم أحدهما بإيجاز عن موضوع ما. وكيما تسلي نفسها كانت ستتناول كتاباً من الرف وتقف هناك، تراقب والدها يكتب، على نحو متساو، أنيقٍ جداً من الحاشية للحاشية، مع سعلة صغيرة بين وقت وآخر، أو كلام موجز يتبادله مع السيد الجالس قبالته. وكان سيخطر لها، واقفة هناك مع كتابها المفتوح، أنَّ أيّة فكرة تخطر للمرء لها أن تتوسّع وتمتدّ هنا كما ورقة الشجر المغمورة في الماء؛ فإن وجدت القبول هنا، بين السادة الكبار يدخنون ويطقطقون التايمز فالفكرة إذن صحيحة. وفيما وقفت تراقب أباها يكتب في مكتبه، (جالساً الآن في القارب) فهي لا تراه رجلاً مختالاً، ولا طاغية، ولا هو بالرجل الذي يرغب باستدرار عطفك. وهي موقنة، لو أنه رآها هناك، تقرأ كتاباً، لكان سألها، بمنتهى الرفق، أمن شيءٍ بيدي لأن أمنحك إياه؟

خشية أن تكون مخطئة في ظنّها، تأمّلته يقرأ الكتاب الصغير بغلافه اللامع المرقّش كما بيض الزقزاق. لا؛ هي محقّة في ظنها. إذ انظر إليه الآن، أرادت أن تصيح في وجه جيمس. (عدا أنَّ عينَي جيمس على الشراع). هو وحشٌ متهكم، لقال جيمس. دوماً ما يحيل مسار الحديث عنه وعن كتبه، لقال جيمس. أنانيٌ لا يطاق. والأسوأ من ذلك كله، هو طاغية. لكن انظر! قالت له، تنظر إليه. انظر إليه الآن. تأمّلته يقرأ كتابه الصغير مع ساقيه ملتفّتين أسفله؛ ذاك الكتاب الصغير ذي الصفحات المصفرة والمألوف لديها، دون أن تعرف ما المكتوب عليها. هو كتابٌ صغير؛ الأسطر لصيقة ببعضها؛ وعلى الورقة الغفل، هي تعرف ذلك، قد دوَّن إنفاقه خمسة عشر فرنكاً على العشاء؛ النبيذ تكلف هذا القدر؛ وقد منح النادل بقشيشاً بقيمة كذا؛ وجمعها كلها على نحو مرتب أسفل الصفحة. أما المكتوب فعلاً على الصفحات التي انثنت حوافها بوجود الكتاب في جيبه، فلا تعرف. ما الخاطر الذي يجول في باله، لا أحد يعرف. عدا أنه دوماً ما يستغرق فيه، وبذا متى ما رفع عينيه للحظة، كما يفعل الآن، فليس يرفعهما كي يرى شيئاً؛ بل كي يثبّت الخاطر في ذهنه. ومتى ما تحقق ذلك، راح عقله يسرح، وينغمر في قراءته. وحين يقرأ، تصورته يرشد أحداً ما، يقود قطيعاً كبيراً من الأغنام، أو يشقّ طريقه قُدماً على مجازٍ ضيق؛ وأحياناً سيعدو في خطٍ مستقيم، يقتحم غصون العليق الشائكة، وأحياناً سيبدو وكأنه ارتطم بغصن، أو غصن عليق أعماه، لكن ما كان ليدع شيئاً يفتّ في عضده؛ وقُدماً يواصل، يقلب الصفحة تلو الصفحة. وعادت تسرد على نفسها حكاية هروبها من سفينة غارقة، لأنها كانت آمنة، آمنة في وجوده جالساً هناك؛ آمنة، كما اعتادت أن تشعر كلما انسلت من الحديقة إلى مكتبه، تتناول كتاباً، والسيد الكهل، فجأة يخفض الصحيفة ويقول شيئاً موجزاً عن شخصية نابليون.

عادت تحدّق عبر البحر، في الجزيرة. عدا أنَّ ورقة الشجر فقدت حدة حوافها. باتت صغيرة جداً؛ نائية جداً. والبحر الآن بات أكثر أهمية من الساحل. الأمواج تحيط بهم من كلّ جانب، تتقاذف وتغرق، حطبة تتخبط على موجة؛ ونورسٌ يعتلي موجة أخرى. ههنا، قالت في نفسها، تخوّض أصابعها في الماء، سفينةٌ غرقت، وتمتمت، شبه نائمة، في نبرةٍ حالمة، وهكذا فَنِينا، كلٌّ وحده.

الفصل الثاني عشر

أمورٌ كثيرة تتوقف عليه، تفكّرت ليلي بريسكو، تتأمّل البحر الذي بالكاد تظهر بقعة عليه، الناعم جداً حدَّ بدت الأشرعة والسحب منصوبة في زرقته، أمورٌ كثيرة تتوقف عليه، قالت في نفسها، على البُعْد، على المسافة: قرب الناس منا أو بعدهم عنا؛ فالمشاعر التي تحملها تجاه السيد رامزي تتبدل مع إبحاره أبعد وأبعد عبر الجون. إذ بدا لها وكأنما مشاعرها تستطيل، تمتطّ؛ وبدا هو كأنما ينأى عنها أكثر وأكثر. بدا وكأنما هو وطفلاه قد ابتلعتهم الزرقة، ابتلعتهم تلك المسافة؛ لكن هنا، على المرجة، قريباً منها، نخر السيد كارمايكل فجأة. وضحكت. أنشب براثنه في كتابه وحمله عن العشب. استقر في كرسيه مرة أخرى ينفث لاهثاً كما وحش البحر. الأمر برمّته مختلف، لأنه قريبٌ جداً. والآن مرة أخرى عمَّ الهدوء الأجواء. لا بُدّ أنّهم قد نهضوا عن أسرّتهم، تكهّنت تتأمل البيت، لكن لا حركة تبدّت لها من هناك. لكنها عادت وتذكرت، من عادتهم الانصراف على عجل ما إن تُرفع المائدة، كلّ ينصرف إلى شأنه. عادة متأتّية من الانسجام مع هذا الصمت، هذا الخواء، لاواقعية بكرة الصباح. هو ديدن الأشياء أحياناً، أخذت تتفكّر، تتوانى للحظة متأمّلةً النوافذ الطويلة المتألقة وسحابة من الدخان الأزرق: أن تغدو مرضاً، وقبل أن تطفح العادات اليومية على السطح، فللمرء أن يستشعر ذات اللاواقعية، مذهلة مروعة؛ يستشعر شيئاً ينبثق. هي الساعة التي تسطع فيها الحياة إشراقاً وحيوية. وللمرء أن يكون على راحته. فمن رحمة السماء أن لا داعي في تلك الساعة لأن يقطع المرء المرجة، في خطوات سريعة رشيقة، كي يحيّي السيدة بكويث، التي كانت ستخرج بحثاً عن زاوية تجلس فيها، «أوه، صباح الخير، سيدة بكويث! يا له من يومٍ رائع! أتراك تجرئين على الجلوس في الشمس؟ جاسبر خبّأ الكراسي. لا بأس، دعيني أبحث لك عن كرسي!» وكل ما شابه من الثرثرة المعتادة. ما من داعٍ لأن ينطق المرء بكلمة في تلك الساعة. له أن يبحر بسلاسة، يميل بأشرعته (هناك حركةٌ نشطة تعم الجون، القوارب على وشك الإبحار) بين الأشياء، ما وراء الأشياء. وما هي بالساعة الخاوية، بل المترعة. شعرت وكأنما تقف اللحظة في سائلٍ ما، مغمورةً فيه حتّى شفتيها، تتحرك وتطفو وتغوص فيه، أجل، فتلك المياه عميقة لا يُسبَر غورها. ففيها أريقت

حيواتٌ عديدة. آل رامزي؛ الأطفال؛ وكل لقيطٍ وشاردة. المرأة الغسّالة مع سلتها؛ الغداف؛ زهرة سوسن الشعلة؛ أرجوانيّة الزهور وخضرتها الرمادية: إحساسٌ مشترك يضمها سوية.

هو ذا الإحساس بالاكتمال الذي لربّما، قبل عشر سنوات، واقفة تقريباً حيث تقف الآن، دفعها إلى القول إنّها لا بُدّ واقعة في غرام هذا المكان. فالحب يتجلى في ألف شكلٍ وشكل. ولربّما هناك عاشق هِبتُه اختيار عناصر من أشياء متفرقة وجمعها معاً، مانحاً إياها اكتمالاً افتقرت إليه في حياتها فرادى، فيخلق من مشهدٍ ما، أو من تجمعٍ لأناس (كلهم رحلوا وتفرقوا)، مشهداً منمنماً في كرة ثلجية حيث الخاطر يتريّث والحب يلهو.

عيناها استقرتا على اللطخة البنية، على قارب السيد رامزي الشراعي. وافترضت وصولهم المنارة وقت الغداء. عدا أنَّ الريح تجدَّدت، ومع تبدّل السماء الواهي وتبدل البحر الواهي والقوارب تغيّر من مواقعها، فالمنظر الطبيعي، الذي كان قبل لحظة ثابتاً على نحوٍ عجائبي، قد بات غير مرضٍ. فالريح بدّدت لفافة الدخان؛ وشيءٌ ما في مواقع السفن أثار استياءها.

فعدم التناسب هناك بدا وكأنما يعكر انسجاماً في ذهنها. وإذ بكربٍ غامض يجثم على صدرها. وتيقّنت منه ما إن التفتت ونظرت نحو لوحتها. هي أهدرت صباحها. إذ أياً يكن السبب فقد عجزت عن تحقيق التوازن الهش بين قوّتين نقيضتين؛ السيد رامزي واللوحة؛ والذي كان من الضروري تحقيقه. أترى هناك خطأٌ في التصميم؟ أيا ترى، سألت نفسها، العيب في خطّ الجدار، أيجب أن يكون منكسراً، أم تراها كتلة الأشجار، ثقيلة أكثر مما ينبغي؟ ضحكت متهكمة؛ إذ لدى بدئها العمل ألم تعتقد أنها قد حلت تلك المشكلة؟

إذن ما هي المشكلة؟ لزامٌ عليها أن تحاول القبض على الشيء الذي لا ينفكّ يتملّص منها. تملص منها ما إن تفكرت في السيدة رامزي؛ ويتملص منها الآن ما إن عادت تتفكّر في لوحتها. وحي العبارات هبط عليها. وحي الرؤى هبط عليها. لوحاتٌ جميلة، عباراتٌ جميلة. لكن ما أرادت فعلاً القبض عليه هي تلك الصدمة على وتر الأعصاب، ذاك الشيء عينه قبل أن يغدو شيئاً. اقبضي عليه وابدئي من جديد؛ اقبضي عليه وابدئي من جديد؛ ظلت تردّد يائسة، تنصّب نفسها من جديد أمام حاملها. يا لها من آلةٍ بائسة، ردّدت في نفسها، يا لها من آلة غير فعالة، هذا الجهاز الإنساني المهيّأ للرسم أو للإحساس؛ فدائماً ما يتخبّط في اللحظات الحرجة؛ وحينها على المرء أن يستبسل، أن يتحلّى بالشجاعة، ويمضي قُدماً. عابسة، أخذت تحدق. حسنٌ، هو ذا الوشيع، واضحٌ كفاية. لكن

المرء لا يحقّق شيئاً باستحضاره العجلة. لا شيء يتأتّى عن تحديق المرء في خط الجدار سوى انبهار العين، ولا عن التفكر في - كانت تعتمر قبعة رمادية. جمالها مذهل. دع الشيء يأت إليّ، قالت في نفسها، إن كان سيأتي. فهناك لحظات يعجز فيها المرء عن التفكر والإحساس. وإن عجز المرء عن التفكر والإحساس، سألت نفسها، فأين عساه يكون؟

هنا على العشب، على الأرض، قالت في نفسها، وقد جلست تتفحّص بفرشاتها مستعمرة من لسان الحمَل. فالمرجة مكسوّة بأعشاب بريّة لم تشذب. جالسة على هذا العالم، استغرقت متفكّرة، إذ عصي عليها التحرر من إحساسها بأن كلّ شيءٍ يحدث هذا الصباح إنما يحدث للمرة الأولى، ولربّما للمرة الأخيرة، مثلما يعرف المسافر على متن قطار، حتّى وإن كان شبه نائم، سارحاً عبر النافذة، أن لزاماً عليه أن ينظر الآن، فقد لا يبصر تلك البلدة مرة أخرى، ولا تلك الكارّة، ولا تلك المرأة العاملة في الحقول. المرجة هي العالم؛ وفيها اجتمعوا، في هذه المحطة النشوى، قالت في نفسها، متأمّلة العجوز كارمايكل، الذي بدا (رغم أنه ما نطق بكلمة طوال ذاك الوقت) يشاركها خواطرها. وعلى الأرجح لن تلتقي به مرة أخرى. فقد بات رجلاً هرماً. وكذلك، تذكّرت، تبتسم على مرأى الخف يتدلى من قدمه، قد أضحى رجلاً مشهوراً. الناس قالوا عن شعره بأنه «جدّ جميل». وإذ بهم ينشرون قصائد كتبها قبل أربعين عاماً. والآن بات هناك رجلٌ مشهور يدعى كارمايكل، وتفكرت، مبتسمة، كيف لامرئٍ أن يتجسد في عدة هيئات، كيف تجسّد على هيئة مختلفة في الصحف، أما هنا، فها هو ذا على هيئته المعهودة. يبدو تماماً كما اعتاد أن يبدو عليه - وإن أكثر شيباً. أجل، بدا الرجل ذاته، لكنها تذكرت، أحدهم قال لها، بأن لدى سماعه بمقتل آندرو رامزي (قتل فوراً بشظية قذيفة؛ كان مقدراً له أن يصبح عالم رياضيات عظيماً) فالسيد كارمايكل «فقد كلّ رغبة في الحياة». وما الذي عناه بقوله هذا؟ تساءلت. هل قطع ساحة ترافلغار حثيث الخطى ممسكاً بعصاً غليظة؟ هل قلّب الصفحات المرة تلو المرة، دون أن يقرأ كلمة منها، فيما يجلس وحيداً في غرفته في سانت جونزوود؟ لا فكرة لديها عمّا فعل، لدى سماعه بمقتل آندرو، لكنها استشعرت أثره في نفسه. فلا حديث دار بينهما سوى تمتمة كلما التقيا على السلم؛ يرفعان ناظريهما نحو السماء يتمتمان *الطقس سيغدو صافياً أو لن يغدو صافياً*. لكن حتّى على هذا النحو لك أن تعرف الناس، قالت في نفسها: أن تعرف الخطوط العريضة لا التفاصيل، أن تجلس في حديقة أحدهم تتأمّل منحدرات التل البعيدة تنقلب أرجوانية بين زهور الخلنج. هي على هذا النحو تعرفه. وهي تعرف أنه قد تبدل على نحو ما. وما قرأت يوماً بيتاً من شعره. غير أنها تعرف كنه شعره، بطيءٌ وجهوري، معتّقٌ ورخيم. عن

الصحراء والجمل. عن النخلة والمغيب. التجرّد طغى على شعره؛ قصائده ذكرت شيئاً عن الموت؛ وعن الحب أقلّ القليل. هو أصلاً متجردٌ في شخصه. إذ ما رغب إلا بأقلّ القليل من الآخرين. إذ ألم تكن عادته السير خلسة على نحو غريب كلما مر بمحاذاة حجرة الاستقبال مع صحيفة أسفل ذراعه، يحاول تجنب السيدة رامزي والتي لسبب ما لم ترُق له كثيراً؟ ولهذا السبب بالذات، كانت ستوقفه دوماً. وكان سيحني رأسه لها. كان سيقف رغماً عنه وينحني بإجلال لها. ولانزعاجها من عدم رغبته بشيء منها، كانت السيدة رامزي ستسأله (وكان لليلي أن تسمعها) ألا يحتاج معطفاً، حصيرة، صحيفة؟ لا، ليس بحاجة إلى أي شيء. (وهنا سيحني رأسه لها). فهناك خصلةٌ بها لم ترُق له. لربّما استبدادها، إيجابيتها، واقعيتها. فقد كانت امرأة جدّ صريحة.

(ضجة لفتت انتباهها إلى نافذة حجرة الاستقبال - صرير مفصل باب. النسيم العليل يلهو بالنافذة).

لا بُدّ أن هناك أناساً آخرين لم ترُق لهم، خطر على بالها (أجل؛ هي واعية إلى خواء مرقاة حجرة الاستقبال، لكن ما من أثرٍ تركه الخواء في نفسها. فهي لا تريد السيدة رامزي الآن). - أناسٌ ظنوها جدّ واثقة، جدّ صارمة.

كذلك، على الأرجح، فجمالها قد أهان الكثيرين. رتيب، كانوا سيصفونه، على ذاته دائماً وأبداً! هم يفضلون النوع الآخر - المظلم، المرح. وهناك ضعفها أمام زوجها. تركُها إياه ينفجر في نوبات غضبه. من ثم باتت متحفظة. لا أحد عرف تماماً ما أصابها. وكذلك (عوداً إلى السيد كارمايكل وعدم إعجابه بها) ما كان لامرئٍ أن يتخيل السيدة رامزي واقفة ترسم، مستلقية تقرأ، على المرجة صباحاً بأكمله. من سابع المستحيلات. ودون أن تنطق بكلمة، الدلالة الوحيدة على مهمتها هو سلّةٌ كانت تحملها على ذراعها، تنطلق نحو البلدة، إلى الفقراء، كي تجلس في غرفة نومٍ ضيقة هواؤها فاسد. وأحياناً كثيرة رأتها ليلي، في خضم لعبة، أو نقاش، تذهب في صمت، سلّتها على ذراعها، تمشي منتصبة الظهر. وكانت ستلاحظ عودتها، فتتفكّر فيها، شبه ضاحكة (كم هي منهجية مع فناجين الشاي)، وشبه متأثرة (كم جمالها فتّان)، وتقول لها في نفسها، الأعين المغمضة على ألمٍ قد أبصرتكِ، وهناك جلستِ أنتِ معهم.

ومن ثم كانت السيدة رامزي ستنزعج لأنّ أحدهم قد تأخر، الزبدة ليست طازجة، أو فنجاناً تشظّى. وفيما هي مستغرقة في انزعاجها من الزبدة غير الطازجة تأمّلها المرء متفكّراً في المعابد

الإغريقية، وكيف لهذه الفتنة أن جلست هناك معهم في تلك الغرفة الضيقة بهوائها الفاسد. وما تحدثت قطّ عن مهامها - إليهم كانت تمضي، مباشرة، بدقة. فغريزتها المعصومة، غريزة السنونو في الارتحال جنوباً، غريزة الخرشوف في ملاحقة الشمس، دوماً ما دفعتها نحو الجنس البشري، إلى التعشيش في قلبه. وهذه الغريزة، كما حال كلّ الغرائز، تثير القلق في نفوس من لا يشاركونها؛ على الأرجح في نفس السيد كارمايكل، ويقيناً في نفسها. فهي والسيد كارمايكل يتشاركان الاعتقاد ببطلان الفعل، بسموّ الفكر. ووجدا في مهامها هذه توبيخاً لهما، صورة ملتوية للعالم الذي يعرفانه، تحثهما على الاحتجاج، ما إن يريا أفكارهما المسبقة المتحيزة تتلاشى، تختفي في قبضة أيديهما. وتلك كانت طبيعة تشارلز تانسلي أيضاً: سببٌ من أسباب بغض المرء له. إذ أنّ من ديدنه قلب الموازين في عالمك. وإلام آلت حياته، تساءلت، تهز متكاسلة أعشاب لسان الحمل بفرشاتها. قد نال الزمالة. قد تزوج؛ ويعيش الآن في جولدرز غرين.

توجهت يوماً إلى قاعة واستمعت إليه يخطب وقت الحرب. كان يستنكر شيئاً. يدين أحداً. كان يعظ المحبة الإنسانية. والإحساس الوحيد الذي اعتراها حينها هو كيف لامرئٍ أن يحبّ أبناء جنسه إن كان لا يميز لوحة عن أخرى، إن وقف خلفها يدخن التبغ المفروم (الأونصة بخمسة بنسات، آنسة بريسكو) فيجعله من شأنه القول لها بأن المرأة ليس بوسعها أن تكتب، ليس بوسعها أن ترسم، ليس أنه آمن في قوله هذا، بقدر ما، ولسببٍ غريب، تمنّاه؟ ها هو ذا واقفٌ هناك، نحيلٌ، أحمر، وأجشّ، يعِظ الحبّ من أعلى منصة (هناك نملٌ يدب بين ألسنة الحمل جلست تعكّر صفوه بفرشاتها - نملٌ أحمر، نشط، لامع، أشبه بتشارلز تانسلي). وهناك جلست ترمقه بنظرة ساخرة من على مقعدها في القاعة نصف الفارغة، يضخّ الحب في تلك الفسحة الباردة حدّ القشعريرة، وإذ بغتة، ها هو ذا البرميل أو أيّاً يكن يعلو ويهبط بين الأمواج والسيدة رامزي تبحث عن محفظة نظارتها بين الحصى. «أوه، يا له من أمرٍ بغيض! قد فقدتها مرة أخرى. لا تتعب نفسك سيد تانسلي. فأنا أفقد الآلاف منها كلّ صيف»، فما كان من تشارلز تانسلي إلا أن ضغط بذقنه على ياقته البيضاء، خوفاً من أن يدين مبالغتها هذه، لكن بيده أن يطيق تلك المبالغة في من يحب، فابتسم لها ابتسامة ساحرة. لا بُدّ قد أفضى إليها بمكنون قلبه في نزهة من تلك النزه الطويلة حيث يتفرق الناس ويعود كلٌّ أدراجه وحده. كان ينفق على تعليم أخته، أخبرتها السيدة رامزي. وإنّه لفضل عظيم يعود إليه. وفي قرارة نفسها، هي مدركة لانطباعها المشوه عنه، تهزّ ألسنة الحمل بفرشاتها. إذ، في نهاية المطاف، أليست نصف انطباعات المرء عن الأناس الآخرين انطباعات مشوهة، تخدم غرضاً شخصيّاً في النفس.

في ذهنها، كان هو كبش الفداء. كلما فقدت أعصابها انهالت على خاصرته الهزيلة جلداً. ولو أرادت رؤيته على نحو جديّ فكان عليها أن تطيق الاستماع إلى حديث السيدة رامزي عنه، إلى رؤيته بعينيها.

نصبت جبلاً صغيراً للنمل كي يتسلق عليه. فإذا به تصيبه نوبة سعار من الحيرة إثر تدخّلها هذا في نواميس كونهم. بعضهم فرّ مذعوراً في هذا الاتجاه، والبعض الآخر في ذاك.

يحتاج المرء إلى خمسين زوجاً من الأعين كي يبصر بها، تفكّرت متأملة. وحتى الخمسين زوجاً ليست بكافية كي يبصر حقّاً تلك المرأة. فلزامٌ على زوج من تلك الأعين أن يكون أعمى تماماً أمام جمالها. كي يبصرها حقّاً فالمرء في أشدّ الحاجة إلى حاسة سرّية، أرقّ من النسيم، ينسلّ بها عبر ثقوب الأبواب ويحيط بها حيث تحبك، تتكلم، أو تجلس صامتة عند النافذة؛ فيختلس منها أفكارها، تخيّلاتها، رغباتها، ومثلما يضمّ النسيم أعمدة دخان الباخرة، يكنزها هو في نفسه. فما الذي عناه الوشيع لها، ما الذي عنته الحديقة لها، وانكسار الموجة، ما الذي عناه لها؟ (ترفع ليلي ناظريها، مثلما رفعت السيدة رامزي ناظريها فيما مضى؛ هي أيضاً سمعت سقوط موجة على الشاطئ). وما الإحساس الذي أثاره فيها، سماعها صيحات أطفالها، «هل تحسب للضارب؟ هل تحسب للضارب؟» فيما يلعبون الكريكت؟ إذ كانت ستكف عن الحبك للحظة. تعلوها نظرةٌ ثاقبة. من ثم تعود وتنتكس إلى وضعها القديم، وفجأة يقطع السيد رامزي سيره على المصطبة أمامها ويقف جامداً في مكانه فإذا بصدمة غريبة تسري في عروقها تؤرجها في اهتياجٍ عظيم بوقوفه هكذا فوق رأسها ينظر أسفلاً إليها. كان بوسع ليلي أن تراه.

مدَّ يده إليها وأنهضها عن كرسيها. بدا وكأنما قد سبق له أن فعل ذلك؛ كأنما مرة انحنى على ذات النحو وأنهضها من على متن قارب، يطفو عدة بوصات بعيداً عن البر، مما تطلب من الرجال النبلاء أن يمدوا أيديهم إلى السيدات ويساعدهن على بلوغ الساحل. مشهدٌ عتيق واعتيادي، يتطلب عادةً ارتداء النسوة التنانير المنتفخة، وارتداء الرجال الشراويل. بسماحها له أن يعينها على النهوض، فقد ظنت السيدة رامزي (تفترض ليلي) أن الوقت قد أزف. أجل؛ ستجيبه بها الآن. أجل، ستتزوجه. ووطأت على مهل، بهدوء، أرض الساحل. على الأرجح ما نطقت إلا بـ «أجل»، يدها لمّا تزل في يده. ولعلها قالت «سأتزوجك»، يدها في يده؛ لكن ولا كلمة أكثر. ومذ ذاك، المرة تلو المرة، رعشة الحماسة ذاتها تعتريهما ـ تكهنت ليلي في قرارة نفسها، تمهد طريقاً أمام نملها. هي لا تبتدع

شيئاً من مخيلتها؛ هي وحسب تحاول تمهيد شيءٍ مُنِح إليها قبل أعوام، مطوياً؛ شيء قد رأته. إذ مع وعورة الحياة اليومية، مع وجود كلّ هؤلاء الأطفال، كلّ هؤلاء الزوار، يعتري المرء إحساسٌ من التكرار - شيءٌ يسقط حيثما سقط شيءٌ قبله، وبذا تغدو الحياة صدىً لا ينفكّ يتردد.

لكنه من الخطأ بمكان، قالت في نفسها، تتصورهما يسيران معاً، ذراعها بذراعه، متجاوزين الدفيئة، تبسيطُ علاقتهما. فزواجهما ما كان نعمةً رتيبة - هي مع نزواتها وسرعة بديهتها؛ وهو مع رعداته وكآبته. أوه، لا. باب حجرة النوم يصفقه بعنف بكرة الصباح. يستهل جلوسه على المائدة بمزاجٍ منفعل. طنين صحنه الهاوي وقد قذف به عبر النافذة. وإذ يخيم على البيت بأسره إحساسٌ بأن الأبواب تصفق والستائر تصطفق، كأنما عصفة ريحٍ هائجة هبّت في المكان واندفع الناس في أرجاء البيت يحاولون على عجالة إحكام إغلاق الكُوّات وإبقاء الأشياء على ترتيبها. كانت قد صادفت بول رايلي على السلم في عصفةٍ من تلك العصوف. وانفجرا ضاحكَين، مثل طفلين، على مرأى السيد رامزي، وقد وجد حشرة أبي مقصّ في حليبه على مائدة الفطور فطيَّر الكأس بأكملها خارجاً وهوت على المصطبة. «حشرة أبو مقص»، همهمت برو، مصعوقة، «في حليبه». غيره لكان وجد أم أربع وأربعين. غير أنه قد شيَّد من حوله سياجاً من القداسة، واستوطن الحيز بهالةٍ من الجلالة بحيث مجرد عثوره على أبي مقص في حليبه أعده اعتداءً وحشيّاً.

غير أنه أرهق كاهل السيدة رامزي، روَّعها قليلاً - تطايُر الأطباق وصفق الأبواب. وأحياناً كانت ستخيّم عليهما فترات صمتٍ طويلة متجهمة، فيما، مستغرقة في حالة ذهنية تستفز ليلي، شبه حزينة، شبه ممتعضة، بدت السيدة رامزي وكأنها عاجزة عن تجاوز العاصفة بهدوء، الضحك عليها معهم، وفي ظاهرها المرهق بدت وكأنها تخفي شيئاً. وبعد برهة كان سيتسكع خلسةً حول المكان المتواجدة فيه - يجول أسفل النافذة حيث تجلس تكتب رسائلها أو تتبادل الحديث، إذ كانت حريصة على انشغالها لدى مروره بها كيما تتفاداه، متظاهرة بعدم رؤيتها له. من ثم يضحى رقيقاً كما الحرير، دمثاً ومهذباً، يحاول الظفر بها من جديد. ومع ذلك كانت ستمتنع، تفرض لأوانٍ قصير خيلاءها وزهوها المستحقّ بجمالها، والذي أغلب الأحيان تنكره؛ وكانت ستلتفت؛ وترمقه، من خلف كتفها، مع إما منتا، بول، أو ويليام بانكس دوماً برفقتها. وبعد مرور وقت، واقفاً خارج المجموعة، مثل كلبٍ ذئبيّ يتضور جوعاً (تنهض ليلي عن العشب وتقف تتأمل درجات المرقاة، النافذة، حيثما رأته واقفاً آنذاك)، كان سينطق باسمها، مرة واحدة، للعالم بأسره كي يسمع، مثل ذئبٍ يعوي في الثلج، ومع ذلك كانت ستظلّ على تمنعها؛ وكان سيعود وينطق باسمها، وهذه المرة شيءٌ ما في

نبرته يستثيرها، وكانت ستمضي إليه، فجأة، تاركةً إياهم جميعاً خلفها، وكانا سيسيران معاً بين أشجار الكُمّثرى، الملفوف، ومساكب توت العليق. وهناك كانا سيحلَّان خلافهما معاً. لكن على أيّة حال وبأيّة كلمات؟ فكلاهما عزيز النفس في علاقتهما، وبذا، ما إن يمضيا، هي وبول ومنتا يسترون فضولهم وانزعاجهم، وينشغلون بقطف الأزهار، رمي الكرة، الثرثرة، إلى أن يحل موعد العشاء، وها هما ذلكما، هو على رأس المائدة، وهي على الرأس المقابل، كما المعتاد.

«ولم لا يتخصص أحدكم في علم النبات؟ مع كلّ تلك السيقان والأذرع لم لا يقوم أحدكم ...؟» وهكذا كانا سيتحادثان كما المعتاد، ضاحكين، بين الأطفال. الكل كان سيكون كما المعتاد، خلا رعشة تقطع الهواء، نصل سيفٍ يهوي بينهما، وكأنما مرأى أطفالهما جالسين حول أطباق الحساء كما المعتاد قد فرض نفسه بعد تلك الساعة التي قضياها بين الكُمّثرى والملفوف. لا سيما، ظنّت ليلي، في عين السيدة رامزي، والتي كانت سترمق برو، الجالسة في الوسط بين أشقائها وشقيقاتها. إذ لطالما بدت برو منشغلة الذهن، حريصة أشد الحرص على ألّا يقع أيّ خطأ، بحيث نادراً ما تتكلم. كيف لامت برو نفسها على حشرة أبي مقص في الحليب. كيف شحب وجهها لدى قذف السيد رامزي بطبقه عبر النافذة! الكآبة التي تعتريها إثر فترات الصمت الطويلة! على أيّة حال، أمها بدت وكأنما تعوضها؛ تطمئنها إلى أن كلّ شيء على ما يرام؛ واعدةً إياها بأنها عن قريب، في يومٍ من الأيام، ستعيش ذات السعادة التي تعيشها الآن. وهي عاشتها، لكن لأقلّ من عام.

قد تركت الزهور تتهاوى من سلتها، تصورت ليلي في ذهنها، تخزر عينيها وقد تراجعت خطوة للوراء كأنما كي تتأمل لوحتها، والتي لم تلمسها، رغم أن ملكاتها الفنية في نشوة، على السطح تبدو جامدة لكن في الأعماق تتحرك في سرعةٍ بالغة.

قد تركت الأزهار تتهاوى من سلتها، نثرتها وبعثرتها على العشب، وكارهة مترددة، لكن بلا سؤال ولا شكوى - إذ أليس من ملكاتها الانصياع إلى المثالية؟ - مضت هي الأخرى. أسفل الحقول، عبر الوديان، بيضاء، منتثرة بالزهور - على هذه الصورة كانت سترسمها. التلال شظفة؛ وعرة؛ وشديدة الانحدار. الأمواج تتكسر جشّاء على الصخور أسفلها. ومضوا، ثلاثتهم معاً، السيدة رامزي تتقدمهم في خطىً سريعة، وكأنما تتوقع الالتقاء بأحدهم في الجوار.

فجأة إذا بالنافذة التي تتأمّلها تبيضُّ بوجود هيئة رقيقة خلفها. أخيراً ها قد قدم أحدهم إلى حجرة الاستقبال؛ أحدهم جالسٌ على الكرسي. لأجل السماء، صلّت في قلبها، دع الجالس أيّاً يكن

يجلس ثابتاً في مكانه ولا يتهادى إليها مترنحاً كي يتبادل معها الحديث. ومن رحمة السماء، أن أياً كان الجالس فقد لبث في الداخل؛ ولحسن حظها، جلس في هيئة ألقت بظلّ مثلثٍ غريب الشكل على المرقاة. والذي أضفى تغييراً بسيطاً على بُنية اللوحة، تغييراً مثيراً للاهتمام. وقد يغدو نافعاً. ها هي تستعيد حالتها المزاجية. عليها أن تُبقي بصرها ثاقباً فلا تُرخي ولو لثانية حدّة عاطفتها، تصميمها على ألّا تُحبَط، عزمها على ألّا تنخدع. لزامٌ عليها أن تمسك بالمشهد - هكذا - بين فكَّي ملزمة ولا تدع لأي شيءٍ أن يأتي ويفسده عليها. فكل ما يبتغيه المرء، قالت في نفسها، تغمس فرشاتها بتروٍّ، هو التحلّي بالصدق مع التجربة العادية، الشعور ببساطة بأن هذا كرسي، تلك طاولة، ومع ذلك، في الآن ذاته، يُدرك أنها معجزة، نشوةٌ غامرة. ولعل حلّ المشكلة في متناول يدها. آه، لكن ما الذي جرى؟ موجةٌ بيضاء تجاوزت زجاج النافذة. لا بُدّ أن النسيم قد هزّ هدباً في الحجرة. قلبها وثب عليها انقض عليها وعذبها.

«السيدة رامزي! السيدة رامزي!» أخذت تصيح، تستشعر الرعب القديم يجتاحها من جديد - أن ترغب وترغب ولا تحظى بشيء. أما زال بيدها إنزال هذا الألم بها؟ من ثم، في هدوء، أحجمت عن الانجراف، وإذ ذاك الإحساس أيضاً يغدو جزءاً من التجارب العادية، على ذات المستوى مع الكرسي، الطاولة. السيدة رامزي - من طيبة قلبها المثالية - جلست في هدوء، بكل بساطة، على الكرسي، صنارتاها في يديها تتقارعان بخفة، تحبك الجورب البُنّي المحمر، تلقي بظلها على المرقاة. هي ذا جالسة هناك.

وكأنما بات لديها أمرٌ لا بُدّ أن تشاركه، مع ذلك يستعصي عليها ترك حاملها، ذهنها مشغولٌ كليّةً بما تفكر به، بما تراه، مضت ليلي متجاوزة السيد كارمايكل، قابضة على الفرشاة في يدها، نحو حافة المرجة. وأين القارب الآن؟ وأين السيد رامزي؟ فهي ترغب فيه.

الفصل الثالث عشر

السيد رامزي على وشك الانتهاء من القراءة. يدٌ ظلّت تحوم أعلى الصفحة وكأنما على أهبة الاستعداد لقلبها لحظة ينتهي من قراءتها. جلس هناك حاسر الرأس مع الريح تعصف بشعره، معرَّضاً لكل شيء على نحو مذهل. بدا مُسنّاً جداً. وقد بدا لجيمس، الآن يراه يلتفت برأسه قبالة المنارة، والآن يلتفت قبالة قفر المياه المندفقة نحو المجهول، مثل حجرٍ عتيق مطروحٍ على الرمال؛ بدا وكأنما قد تجسّد على الهيئة التي لطالما جاست في أعماق ذهنيهما - هيئة الوحدة التي لكليهما هي حقيقة الأشياء.

كان يقرأ على عجل، وكأنما لم يطق صبراً الوصول إلى النهاية. فقد اقتربوا جداً من المنارة. وها هي ذي تلوح أمامهم، مقفرة منتصبة، سوداء بيضاء صارخة، وللمرء أن يرى الأمواج تتكسّر شظايا بيضاء مثل كأسٍ تتهشم على الصخور. له أن يرى الخطوط والغضون في الصخور. وله أن يبصر النوافذ واضحة؛ أثرٌ أبيض يعلو إحداها، وعلى صخرة هنالك عنقودٌ أخضر. رجلٌ غادر المنارة ونظر إليهم عبر منظار من ثم عاد داخلاً. هي هذه إذن، قال جيمس في نفسه، المنارة التي تأملها عبر الجون كلّ تلك الأعوام؛ برجٌ مقفر على صخرةٍ جدباء. وقد سُرّ لمرآها هذا. فقد أكّدت شعوراً مبهماً لطالما راوده عن شخصيته. تصوّر السيدات العجائز، مستذكراً حديقة البيت، يسحبن كراسيهن على المرجة. العجوز بكويث، مثلاً، لطالما قالت لهم كم منظر المنارة جميل ولطيف وكيف يجب عليهم أن يكونوا فخورين جداً ويجدر بهم أن يكونوا سعداء جداً، لكن في واقع الأمر، يتأمّل المنارة منتصبة على صخرتها، هي هذه. نظر إلى أبيه يقرأ منكبّاً مع ساقيه الملتفتين بإحكام. هما يتشاركان هذه المعرفة. «نمضي في وجه عاصفةٍ هوجاء - وغرقنا محتوم»، قال في نفسه، في صوتٍ شبه عال، تماماً كما أبيه.

بدا وكأنما لدهرٍ ما نطق أحدهم بكلمة. وكام سئِمت من تأمّل البحر. كِسرٌ من الفلين الأسود تطفو بمحاذاتهم؛ السمك ميتٌ في قاع القارب. ولمّا يزل أبوها يقرأ، وجيمس يتأمّله وكذا هي تتأمّله،

وقد أقسما على محاربة الطغيان حتّى الموت، وظل هو يقرأ غير واعٍ البتة لما يدور في خلديهما.

على هذا النحو فرَّ منهما، قالت في نفسها. أجل، مع جبينه العظيم وأنفه العظيم، متشبّثاً بكتابه المرقّش الصغير أمامه، فرَّ منهما. قد تحاول إمساكه بيديك، لكن كما الطير، سينشر جناحيه، يتملص من قبضتك، يرفرف بعيداً ويستقر على جذلٍ مهجور. راحت تحدّق في المدى الشاسع للبحر. الجزيرة تقلصت جداً بحيث ما عادت حتّى تبدو ورقة شجر. بدت قمّة صخرة لأيّة موجة عارمة أن تحجبها. ومع ذلك، ففي ضآلتها تكمن كلّ تلك المجازات، كلّ تلك المصاطب، كلّ حجر النوم - كلّ تلك الأشياء التي لا تعد ولا تحصى. لكن، كما تنزع الأشياء إلى تبسيط نفسها قبيل النوم بحيث تفصيل واحد من ألوف التفاصيل يفرض نفسه، هكذا هي شعرت، تتأمّل نعسة الجزيرة، كلّ تلك المجازات والمصاطب وحجر النوم اضمحلت وتلاشت، فما تبقّى شيء سوى مبخرة زرقاء شاحبة تتأرجح في ذهنها ذهاباً وإياباً على نحوٍ إيقاعي. هي حديقة معلقة؛ هي وادٍ، مليءٌ بالطيور، والأزهار، والظباء ...وغفت.

«هلمَّ بنا»، قال السيد رامزي، فجأة يصفق كتابه.

هلمّ إلى أين؟ إلى أيّة مغامرة عظيمة؟ استيقظت جفِلة. نرسو على برّ؟ نتسلق جبلاً؟ إلى أين يقودهم؟ إذ بعد صمته الرهيب جفلوا على كلماته. لكن ما قاله غير منطقيّ. هو جائع، كذا قال. وقد حان وقت الغداء. علاوةً على ذلك، انظرا، قال لهما. «ها هي ذي المنارة. نحن على وشك الوصول إليها».

«قد أحسن صنعاً»، قال مكاليستر، مادحاً جيمس، «قد أبقى الدفة ثابتة».

لكن أباه ما مدحه قطّ، تفكر جيمس متجهّماً.

السيد رامزي فتح الرزمة ووزع الشطائر عليهم. وها هو ذا الآن سعيد، يتناول الخبز والجبنة برفقة صيادي السمك. لأحبَّ العيش في كوخٍ والتسكّع في المرفأ يعبر عما يجول في خاطره برفقة غيره من المسنين، تصوّر جيمس، يرقب أباه يقطع الجبنة إلى شرائحَ صفرٍ رقيقة بمدية جيبه.

هو حقّاً هذا، هو ذا، ما انفكّ يراود كام الإحساس، فيما تقشّر بيضتها المسلوقة. فاللحظة تشعر بذات الإحساس الذي ساورها لدى وجودها في المكتب مع رجالٍ كهول يقرؤون التايمز. الآن

لي أن أفكر كيفما أشاء، ولن أقع من شفا هاوية ولن أغرق، لأن ها هو ذا، يبقي عينيه عليّ.

في غضون ذلك انطلق القارب يُبحر بهم على وجه السرعة بمحاذاة الصخور مما أثار حماساً عظيماً - إذ بدا وكأنهم يقومون بفعلين في آنٍ واحد: يتناولون غداءهم هنا في الشمس وكذلك ينجون بأنفسهم من غرق سفينة في قلب عاصفةٍ هوجاء. هل لديهم ما يكفي من ماء؟ هل لديهم ما يكفي من مؤن؟ سألت نفسها، تسرد على نفسها قصة خيالية، واعية في ذات الآن للحقيقة.

قريباً سيغادرانها، قال السيد رامزي لمكاليستر العجوز؛ لكن أطفالهما سيرون العجب. مكاليستر قال إنه بلغ الخامسة والسبعين في آذار الماضي؛ السيد رامزي في الحادية والسبعين. مكاليستر قال إنه ما سبق أن رأى طبيباً؛ وما خسر قطّ سنّاً. وهكذا أريد لأطفالي أن يعيشوا - كام واثقة أن هذا ما يجول في خاطر أبيها، إذ أوقفها عن رمي شطيرتها في البحر قائلاً لها، وكأنما يفكر في الصيادين وطبيعة حياتهم، إنها إن لم تُرد الشطيرة فعليها أن تعيد وضعها في الرزمة. عليها ألّا تهدرها. قالها في نبرة مفعمة بالحكمة، وكأنما هو عليمٌ بكل ما يجري في العالم، بحيث ما إن سمعته حالاً حتّى أعادتها، من ثم أعطاها، من رزمته، كعكة زنجبيل بالجوز، يتصرف كما نبيلٍ إسباني عظيم، يناول سيدة واقفة عند النافذة زهرة (إلى هذا الحد كان دمثاً). كان رث الملبس، بسيطاً، يتناول الخبز والجبن؛ مع ذلك ها هو يقودهم في رحلةٍ عظيمة حيث، على حد علمها، سيغرقون حتماً.

«هنا غرقت»، قال ابن مكاليستر بغتة.

ثلاثة رجال غرقوا حيث نحن الآن، قال الرجل العجوز. رآهم بعينه يتشبّثون بالدقل. والسيد رامزي، يُلقي نظرة على موقع غرقهم، كان على وشك، كام وجيمس خشيا، أن ينفجر صارخاً:

لكني الغريق في البحر الأشد اهتياجا

وإن فعل، فما كانا سيطيقان الأمر؛ كانا سيصيحان زاعقين؛ إذ ما كانا سيحتملان نوبةً من نوباته العاطفية الفائرة في صدره؛ غير أنّهما فوجئا بقوله، «آه»، وكأنما يقولها في نفسه. لكن علامَ نثير جلبة حول ذلك؟ إنّه لأمرٌ طبيعي أن يغرق الرجال في العاصفة، فهي مسألة صريحة لا لبس فيها، وأعماق البحر (نثر فُتاتاً من غلاف شطيرته عليهم) في النهاية ما هي إلا ماء. من ثم، وقد

أشعل غليونه، تناول ساعته. نظر إليها بانتباه؛ ولربّما أجرى معادلة حسابية. وأخيراً قال، في نبرة انتصار:

«أحسنت!» جيمس قاد القارب بهم مثل بحّارٍ متمرس.

هاك! قالت كام في نفسها، تتوجّه إلى جيمس في صمت. ها قد ظفرتَ أخيراً به. فهي تعرف أن هذا ما رغب فيه جيمس، وتعرف أنه الآن وقد ظفر به فالسرور يعتريه حدَّ أنه لن يلقي نظرة لا عليها ولا على أبيه ولا على أي أحد. وها هو ذا يجلس منتصب الظهر، يده على ذراع الدفة، أقل تجهّماً وعبوساً. كان مسروراً جداً حدَّ أنه ما كان ليدع أحداً يشاركه سعادته ولو بمثقال ذرة. أبوه قد مدحه. ولعل البقية ظنوه لا مبالياً البتة بالمديح الذي ناله. لكن كام تعرف. ها قد ظفرتَ بما ترغب فيه.

وجهة القارب تغيرت، وها هو يبحر بهم بسلاسة وسرعة، يعوم على أمواج متأرجحة، كلّ موجة تسلمه إلى الموجة التالية في خفة إيقاعية مذهلة بمحاذاة الحيْد في فورة من البهجة. على اليسار صفٌ من الصخور بدت بُنّية عبر الماء الذي بات أرق وأكثر اخضراراً، وعلى صخرة عالية، موجة ما انفكّت تتكسر فينبجس منها وابلٌ من القطرات. للمرء أن يسمع تلاطم الماء ودقدقة القطرات المنهمرة وصوتاً أشبه بالصهصهة والهسهسة تنبعث عن الأمواج تتقلّب وتطفر مرحاً وتصفع الصخور وكأنما هي مخلوقاتٌ متوحشة تعيش بمطلق حريتها فتتقاذف وتتشقلب هكذا على مرّ الأبد.

والآن أبصروا رجلين على المنارة، يراقبانهم متأهبَين للقائهم.

السيد رامزي زرّر معطفه، وثنى حاشيتَي بنطاله. تناول الرزمة الورقية البنية الكبيرة، المغلفة بشكلٍ سيّئ، والتي أعدتها نانسي، ثم عاد وجلس مع الرزمة على ركبته. وبدا مستعداً بالكامل للرسوّ جالساً يتأمل الجزيرة. ولعله بعينيه الثاقبتين رأى جلياً الشكل المتقلّص الشبيه بورقة شجر منكمشة على طبقٍ من ذهب. ما الذي يراه؟ تساءلت كام. فكل شيءٍ بدا لها ضبابيّاً. ما الذي يجول في خاطره الآن؟ تساءلت. وما الشيء الذي يسعى إليه، بمنتهى الثبات، التصميم، والصمت؟ أخذا يراقبانه، كلاهما، يجلس حاسر الرأس مع رزمته على ركبته يحدّق ويحدّق في الشكل الأزرق الواهن الذي بدا كما الدخان المتصاعد عن شيءٍ أفنى ذاته حرقاً. ما الذي ترغب فيه، كلاهما راودته

الرغبة في طرح السؤال. كلاهما أراد أن يقول، اسألنا أي شيء وسنمنحك إياه. لكنه ما سألهما شيئاً. جلس يتأمل الجزيرة ولربّما خطر على باله، **فنِينا كلّنا، كلٌّ وحده،** أو لعله يقول في نفسه، ها قد وصلت. ها قد عثرتُ عليه؛ عدا أنه ما نطق بشيء.

من ثم اعتمر قبعته.

«اجلبي تلك الرزم»، قال يومئ صوب الأشياء التي أعدتها نانسي لهم كي يحملوها إلى المنارة. «رزم رجال المنارة»، أردف قائلاً. نهض ووقف في قيدوم القارب، فارعاً منتصباً، كيما يراه العالم بأسره، تصور جيمس، وكأنما يقول، «لا رب موجود»، وكام تصورته يقف كأنما على وشك أن يقفز نحو المدى، وكلاهما نهض يلحقان به ما إن وثب، بخفة شابٍ يافع، قابضاً على رزمته، نحو الصخرة.

الفصل الرابع عشر

«لا بُدّ أنّه قد بلغ المنارة»، قالت ليلي عالياً، تشعر فجأة بالإنهاك. فالمنارة باتت شبه خفية، تبدّدت إلى سديمٍ أزرق، والجهد الذي تبذله في رؤيتها والجهد الذي تبذله في تصوره يرسو عليها، والذي بدا جهداً واحداً لا يتجزّأ، قد مطَّ جسدها وعقلها إلى أقصى المدى. آه، غير أنها أخيراً تنفّست الصعداء. فأيّاً كان ما رغبت بمنحه، لدى مغادرته إياها هذا الصباح، ها هي أخيراً قد منحته إياه.

«لقد رسا»، قالت في صوتٍ عالٍ. «وانتهى الأمر». ومن ثم، يموج ناهضاً عن الأرض، ينفث أنفاسه، وقف العجوز كارمايكل جانبها، يبدو كما إلهٍ وثنيّ عتيق، أشعث، الأعشاب عالقة في شعره ورمحه الثلاثيّ (ليست سوى رواية فرنسية) في يده. وقف بجانبها على حافة المرجة، جسده يترنح قليلاً، وقال، يحجب عينيه بيده: «لا بُدّ أنّهم قد رسوا»، وأيقنت بأنها كانت على صواب. ما كان من داعٍ لهما كي يتكلما. فقد تشاركا الأفكار والخواطر ذاتها وأجاب أسئلتها دون أن تسأله شيئاً. وقف جانبها كأنما يبسط يديه على وهن البشرية ومعاناتها؛ تصورته يعاين، بعينٍ صبورة مشفقة، وجهتها الأخيرة. والآن سيتوّج المناسبة، خطر لها ما إن هوت يده المرفوعة على مهل، يلقي من علوّه العظيم بإكليلٍ من البنفسج والزنابق، فترفرف هاويةً على مهلها، وتنبسط على سائر كوكب الأرض.

وعلى عجل، وكأنما هاتفٌ مباغت استدعاها، استدارت نحو قماشتها. وها هي هناك - لوحتها. أجل، بكل أخضرها وأزرقها، بخطوطها المتعرجة المتقاطعة، محاولتها القبض على شيءٍ ما. ستُعلَّق في العلّية، قالت في نفسها؛ ستؤول إلى الخراب. فليكن، وما همّها؟ سألت نفسها، تتناول من جديد فرشاتها. نظرت نحو درجات المرقاة؛ خاوية؛ نظرت نحو قماشتها؛ ضبابية. وفي لحظة تجلٍّ مباغتة، كأنما لمحته بيّناً واضحاً لثانية، رسمت خطاً هناك، في الوسط. وها هي فعلتها؛ اللوحة اكتملت. أجل، قالت في نفسها، تضع جانباً فرشاتها في إعياءٍ شديد، هي ذي رؤياي.

Notes

[1←]
لدى ترجمتي الرواية، ولوجود عدد لا حصر له من المقالات والمصادر، فقد ارتكزت في البحث بشكلٍ أساسي على كتاب:

«The Cambridge Companion to To The Lighthouse: Edited by Allison Pease»

وهو دليل أدبي أكاديمي يتضمن تجميع لأهم المقالات التحليلية التي كتبت حول الرواية.

[2←]
في ترجمة هذه السونيتة عدتُ إلى تعريب الأديب جبرا ابراهيم جبرا لمجموعة مختارة من السونيتات لا تتضمن السونيتة الثامنة والتسعين. إلا أن المجموعة تتضمن السونيتة السابعة والتسعين، (والتي يقول مطلعها: كالشتاء كان عنك غيابي، يا متعة السنة العابرة.) وكونها قريبة في الثيمة والأسلوب والمفردات، فقد استوحيت منها ترجمتي لهذه السونيتة.

[3←]
ألبيون «Albion»: اسمٌ من أسماء إنجلترا وغالباً ما يستخدم في سياق أدبي.

[4←]
المعطف الأحمر وياقة الفرو البيضاء إشارة إلى أعضاء مجلس اللوردات

[5←]
المُطرَّزة: مقطوعة شعرية إذا جُمعت حروف أوائل أبياتها وأواخرها شكلت كلمة أو عبارة.

[6←]
«Boeuf En Daube»: يخنة لحم فرنسية.

[7←]
القِطاط: حرف الجبل